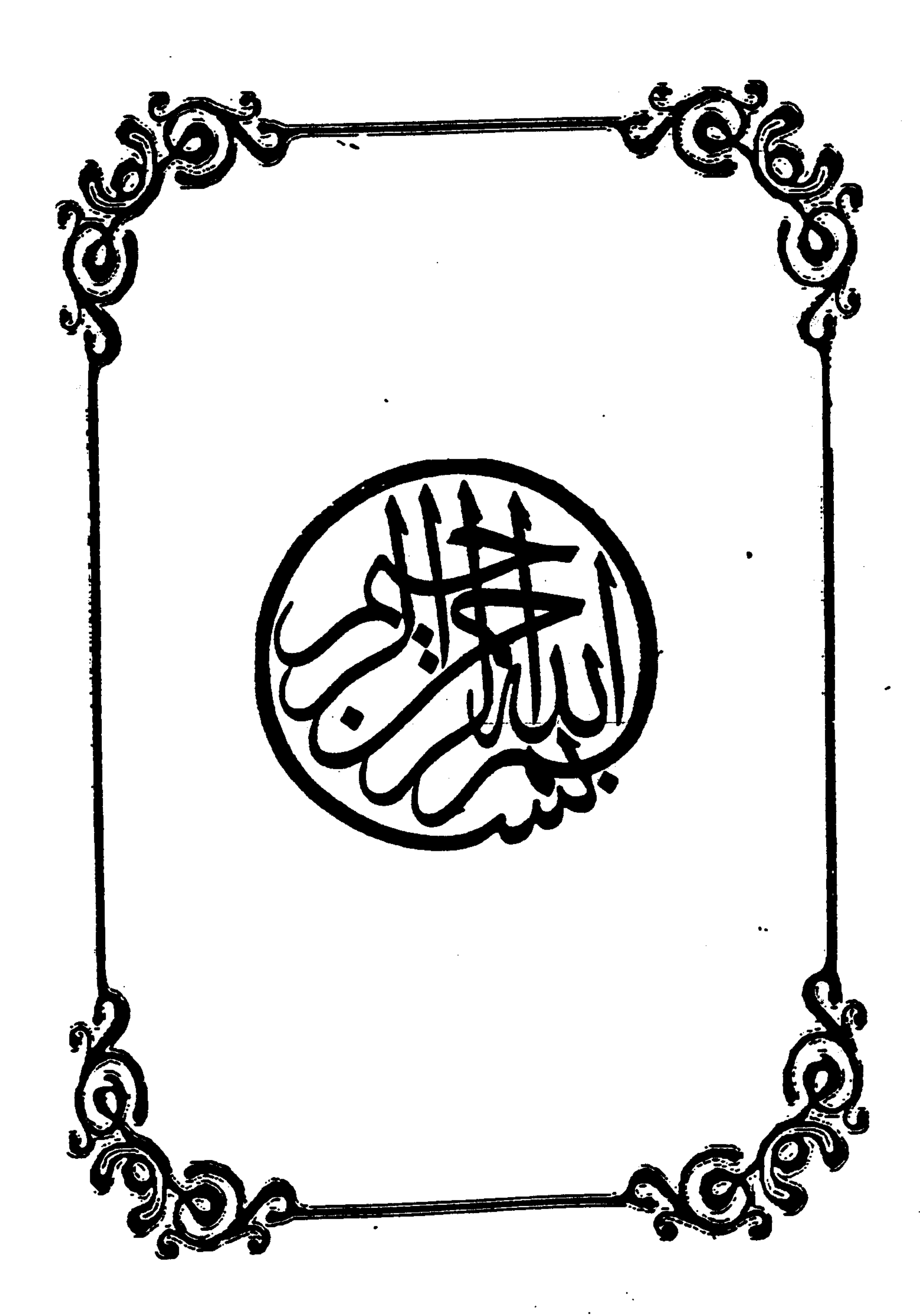
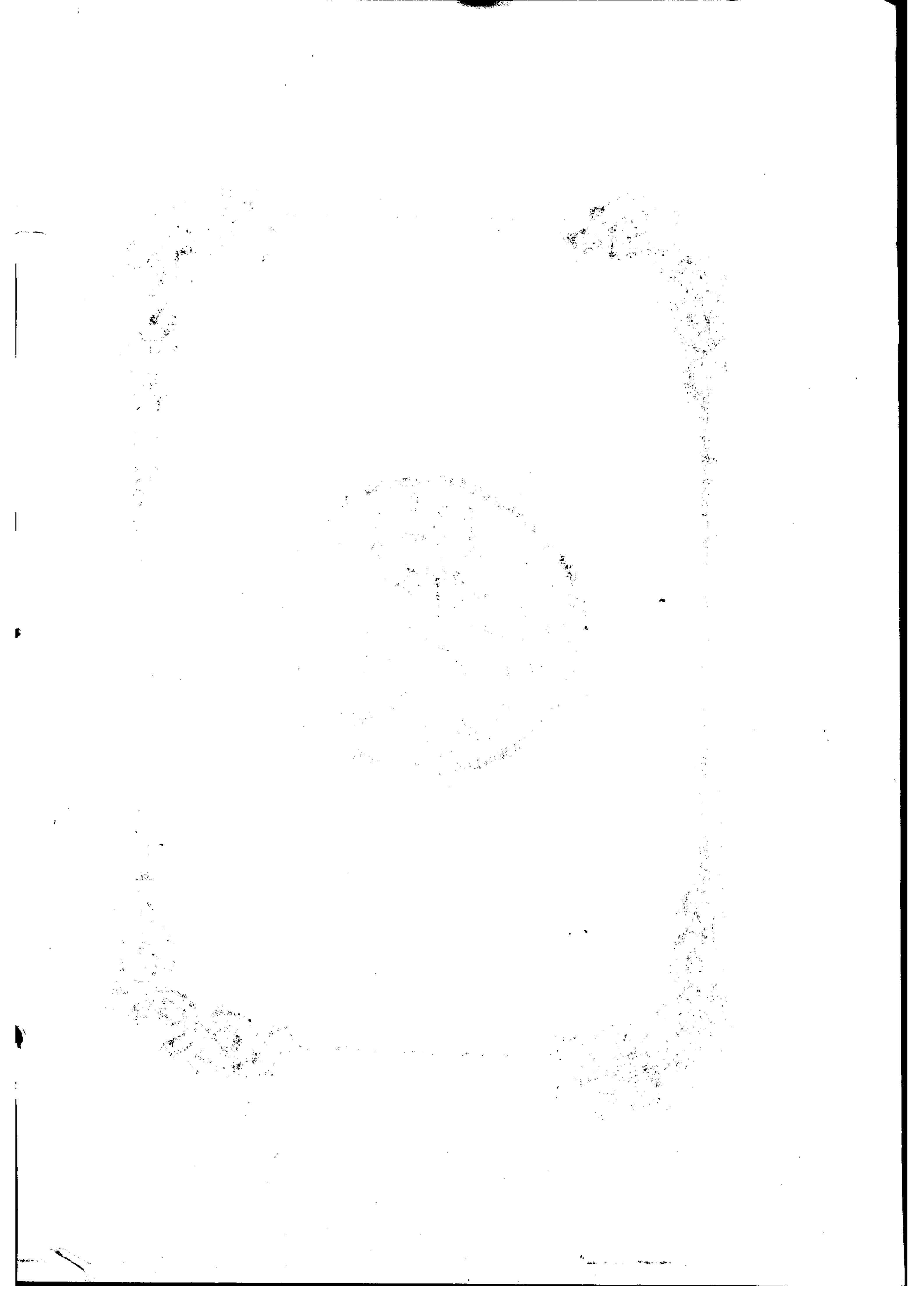
الدولة العباسية والعلاقات الخارجية

دكتور
محمد عبد العظيم أبو النصر
استاذ التاريخ الإسلامي المساعد

(١٤٢٧ هـ/٢٠٠٦)


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمه

توفي الله سبحانه وتعالي رسوله الأكرم محمد صلي الله عليه وسلم في العام الحادي عشر من الهجرة الشريفة ؛ وترك عليه السلام أمر الحكم شوري بين الناس دون وصية منه لأحد من بعده بالخلافة

فإختار المسلمين أبو بكر الصديق رضي الله عنه لخلافته في مبايعة جماعية أرست قواعد العدل والحرية والإختيار منذ زمن بعيد ؛ ومات الصديق رضي الله عنه في العام الثالث عشر من الهجرة

فإختار المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتي استشهاده سنة ٢٣هـ

ثم بايعوا عثمان بن عفان بالخلافة حتي استشهادة سنة ٣٥ هـ

فإختاروا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والذي استشهد هو الأخر سنة ٤٠ هـ في الكوفة ؛ وإنشق الصف حول المطالبة بدم عثمان حتي تنازل الحسن بن علي رضي الله عنه عن الخلافة طواعية سنة ٤١ هـ لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وأرضاه فيما يسمي بعام الجماعة لإجتماع كلمة المسلمين علي خليفة واحد ؛ ولكن معاوية رأي أن يغير في نظام الخلافة فجعلها وراثية لظروف رآها من وجهة نظره ؛ فثار ضد ابنه اليزيد الثوار ومنهم عبد الله بن الزبير رضي الله عنه والحسين بن علي رضي الله عنه والذي استشهد في كربلاء فرفع العلويين راية المطالبة بدمه وأحقيتهم في الخلافة ؛

فكانت الدولة الأموية التي لعبت دورا مهما في نشر الإسلام ؛ كانت قاسية معهم لدرجة كبيرة ؛ وكثرت ثورات آل البيت من العلويين ومن شايعهم والذين سموا في المصطلح الإسلامي بإسم الشيعة ؛ إلي أن تنازل العلويون عن الدعوة لآل العباس سنة ٩٨هـ .

فقامت الدعوة العباسية ونظمت لتقضي علي الخلافة الأموية سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠م وتقوم الدولة العباسية التي قدر لها أن تعيش مدة طويلة من (١٣٢ - ٥٦٥٦)(٧٥٠-١٢٥٨) وكان عصرها الأول من أزهي وأقوي عصورالإسلام وحضارتها وخلفائها أمثال المنصور والمهدي والرشيد والمأمون والمعتصم ثم تسلط عليهم الأتراك والفرس إلي أن قهرهم المغول واسقطوا الخلافة العباسية في بغداد (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م)وفي هذه الدراسة ركزت علي العصر العباسي الأول دون سواه نظرا لأن الخلافة العباسية شهدت فيها قوتها وحيويتها وعزها ومجدها ؛ ثم توالت عليها المصائب والشدائد حينما خرج خلفاء العصور التالية عن المنهج الذي بني عليه بني العباس دولتهم من البداية

والله ولي التوفيق

مميزات ومآثــر الدولة العربية الإسلامية

قــبل الحديــث عــن الدولة العباسية بما لها أو عليها لابد أن نذكر مأثر الدولــة الأموية وهى الدولة التى قامت سنة ٤١هـــ حتى ١٣٢هـــ، والتى خلفت دولــة الرســول صلى الله عليه وسلم. ودولة الخلفاء الراشدين التى قامت بقيام الإســلام فــوق جزء بسيط من شبه الجزيرة العربية، ولكنها ما لبثت أن أمتدت وأتسعت وبخاصة أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم الوليد بن عبدالملك حــتى شملت أجزاء كبيرة من المشرق والمغرب هذه الدولة التى رسمت لنفسها صــفحة مــن الفخــار والمجــد والعظمة فى التاريخ نظراً لكثير من الحسنات والمميزات وهى:-

١-الفتوحات الإسلامية:

يــرجع الفضل لدولة الراشدين والدولة الأموية فى إقامة الفتوحات الإسلامية العظيمة حيث أتسعت حدوها شرقاً إلى اواسط آسيا وغرباً إلى المحيط الأطلسى ، ففتحــت بــلاد الشام على يد خالد بن الوليد ومصر على يد عمرو بن العاص شمال أفريقيا والأندلس على يد عدد كبير من كبار قادة المسلمين أمثال عقبة بن نافع، حسان بن النعمان، وموسى بن نصير وغيرهم .. كما تم فتح بلاد ماوراء النهر على يد قتيبة بن مسلم الباهلى، ومنطقة السند فى شمال غرب الهند على يد محمد بن القاسم.

٢-أصباغ الدولة بالصبغة العربية:

أنتشــر العرب خارج شبه الجزيرة العربية فى البلاد المفتوحة فصبغوا تلــك البلاد بالصبغة العربية لكثرة القبائل التى هاجرت إليها بعاداتها وتقاليدها ، خاصة بعد أن أهتمت الدولة الأموية بالعرب.

٣-التعريب :

من المعروف أن الخليفة عمر بن الخطاب قد ترك إدارة البلاد المفتوحة فى يد أهلها رغم عدم دخولهم فى الإسلام لأنهم أعلم الناس بها، كما أبقى على تحرير وكتابة الدواين بلغة اهلها فديوان الشام كتب بالرومانية وديوان العراق وفارس بالفارسية وديوان مصر بالقبطية، ولكن عبدالملك بن مروان أمر بتعريب الدواوين والعملة وجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدولة مما أدى إلى تقوية الحكم العربى، وانتشار اللغة العربية.

٤-تدوين الحديث النبوى الشريف:

حيث بدأ الاهتمام بكتابة السيرة النبوية والحديث النبوى الذى يعد المصدر الثانى للعقيدة الإسلامية بعد القرآن على يد رجال من أعظم علماء المسلمين ، فقد أمر عمر بن عبدالعزيز بجمع الأحاديث وتدوينها ودراستها وتفسيرها مما أدى إلى أنتشار اللغة العربية بين المسلمين من غير العرب.

ولكن ماهى الأسباب التى عجلت بسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية؟

العوامل التى عجلت بسقوط الدولة الأموية ونجاح وقيام الدعوة العباسية هى:-

١-الحالة الاجتماعية للموالى وظلم بعض خلفاء وولاة بنى أمية لهم:

الموالى هم المسلمون من غير العرب من الفرس والروم والحبش والاتراك والمصريين وغيرهم من الذين دخلوا فى الإسلام، وعندما تغلب العرب عليهم أرتفعت نفسية العرب خاصة فى العصر الأموى وتملكهم شعور بالسيادة، وأخذوا يشعرون أن العربى خلق ليسود ، وخلق غيره ليخدم، وتتمثل نظريتهم فى قول أحدهم عن الموالى (يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحيكون ثيابنا).

وأعتقد العرب أنهم هم الأشراف ، وأن غيرهم لاحساب لهم حتى بعد اسلامهم إلا بعد أن يلحقوا ببعض القبائل العربية على أن يكونوا موالى لهم

لأنهــم كــانوا يــنظرون إلى الموإلى على انه عبد، ولم يحتقر العرب الموإلى لجنســيهم فقــط بــل لمهنهم ، فالعرب يحترفون السياسة والحكم والحرب، بينما يشــتغل الموإلى بالمهن اليدوية كالزراعة والصناعة، وكان بعض خلفاء وولاة الدولــة الأمويــة قــد زادوا في ظلم الموإلى فأستخدموهم فى الاعمال الكتابية وابعدوهــم عن الوظائف النبيلة، فلما ولى سعيد بن جبير القضاء بالكوفة غضب العرب وقالوا لايصلح للقضاء إلاعربى. وكان سعيد رضى الله عنه من الموإلى وكانوا يستخدمونهم فى الحروب مشاة ، وحرموهم من ثمرات البلاد المفتوحة، وحرموهم من العطاء ، ومنحوهم الشئ القليل من الغنائم والفئ.

وكــان الموإلــى محتقرين فى المجتمع ، فلا يخاطبهم العرب بالكنية أو اللقــب ، وكانوا يقولون لايقطع الصلاة إلا ثلاثة (حمار أو كلب أو مولى)، بل ابقوا الجزية على من اسلم منهم، ومنع عمر بن عبدالعزيز ذلك عندما قال أن الله قد بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً.

كما منع العرب التزاوج مع الموإلى فقد جلد وإلى المدينة الأموى مولى تــزوج مــن بن سليم وفرق بينه وبين زوجته وضربه مائتى جلدة، وحلق رأسة ولحيته وحاجبيه وقد أمتد أحتقارهم إلى أولاد الإماء ويسمون ابن الامة الهجين وقالوا لاتصلح لهم العرب.

ولذلــك سخط الموإلى على الأمويين فى خراسان ومصر وبلاد المغرب وغــيرها من البلاد المفتوحة، فأنخرط الموإلى فى أى دعوة للمساواة التى علمها لهم الاسلام فدخلوا فيه لانه لايفرق بين أسود ولا أبيض ولا أعجمى إلا بالتقوى ، وكــان ذلك سبباً فى دخول أهل خراسان فى الدعوة العباسية التى قامت على المساواة والعدل والاخاء.

ولكــن يجب أن نقرر أن هذه النظرة كانت سائدة فى الأوساط الرسمية وبيــن القبائل والأعراب، أما الأوساط العلمية والدينية فكانت تنظر إلى الموإلى بعين المساواة.

٢) كثرة الاحزاب في أواخر العصر الأموى:

مثل أهل السنة والشيعة الذين قرروا أن تكون الخلافة فى بيت على رضى الله عنه وأولاده بالوراثة من بعده، وقال الغلاة منهم أن الأئمة معصومين ، والسبئية نسبة إلى عبدالله بن سبأ اليهودى ، والخوارج الذين كانوا بالامس من أشياع على بن أبى طالب، ثم خرجوا عليه بعد التحكم فى صفين سنة ٤٠هـ، الذين كانوا يعتقدون أن الخلافة حق لكل مسلم حر. ثم المرجئه الذين ظهروا فى دمشق والذين خالفوا الخوارج فى تكفيرهم الخلفاء الثلاثة عثمان وعلى ومعاوية ذاهبين إلى القول أن كل من آمن بوحدانية الله لايمكن الحكم عليه بالكفر، وأن ذلك موكول إلى الله وحده يوم القيامة ، مهما كانت الذنوب التى أقترفها، والمبادئ السياسية التى يدين بها، فهم يرجئون الحكم على اخوانهم فى الدين إلى الله وحدة الذى يعلم خائنه الأعين وما تخفى الصدور. ثم المعتزله أو القدرية التى تكلمت عن شروط الامام وأطلقوا على حكامهم وفقائهم لقب الائمة التى كانت الشيعة تطلقه على فقائها . وقد أنشغل خلفاء بنى أمية فى محاربة هذه الفرق والأحزاب أو تأييدها ، فقد خرج الخوارج فى المشرق والمغرب وقالوا لاحكم إلا لله مما كان سبباً فى زوال الدولة الأموية.

٣)أنقسام بنى أمية على أنفسهم:

والمنافسة بينهم، وكثرة الخلافات الموجودة بين المتأخرين منهم وتطلعهم إلى الخلافة جعلهم لايفكرون فى بنى العباس ولا فى نشاط دعوتهم ، وكان أكبر همهم أنصرافهم إلى مطامعهم وخلافتهم.

٤) قصر مدة أواخر الخلفاء الآمويين فى الحكم:

حيث لاتزد مدة حكم الخليفة اليزيد بن الوليد على ستة أشهر.

٥) تولية العهد لاكثر من واحد:

مما بذر بذور الشقاق والمنافسة بين أفراد البيت الأموى حتى قبل الخلافة فـــى عهد بنى أمية تحولت إلى ملك استبدادى يعتمد على نظام التوريث، وبذلك خـــرجوا عن حكم الدولة الإسلامية القائم على الشورى ، والذى ساد طوال عهد الراشـــدين وكـــان لهذا الساسة أثرها فى ضعف الامويين فلم يكد الأمر يتم لأحد أبناء الخليفة المتوفى حتى يعمل على إقصاء الآخر عن ولاية العهد وأحلال أحد أولاده مكانه.

٦) العصبية القبلية فى الأمصار والجيش:

عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على ازالة العضبية القبلية والشعور القـــبلى واحـــلال الوحـــدة الإسلامية محلها فاجتمعت القبائل العربية تحت لواء الإســـلام ودانـــت له بالطاعة واستمر ذلك طوال عصر الراشدين، إلا أن روح العصبية قد بعثت من جديد بعد وفاة يزيد بن معاوية حيث تفككت وحدة العرب بالشام، حينما مال بنو أميه إلى عرب الجنوب ضد الشمال، وتعتبر معركة مرج راهط سنة ٦٥ هـــ صراع بين عرب الشام وعرب اليمن مما أدى إلى أذكاء نار العصـــبية بيـــن قبائل العرب فى خراسان التى كانت مهد الدعوة العباسية، وقد أضـــعفت العصبية القبلية الجيش الاموى وأذنت بزوال دولته ، حيث كان الجيش خليطاً من قبائل العرب.

٧)ثورات العلويين ضد الأمويين:

قتل معظم العلويون فى كربلاء ، فانتصر بنو أمية على بنو هاشم ، ولكن أصبحت البقية الباقية من العلويين مقدسه، فقام المختار بن يوسف مناديا بثأر آل البيت، وداعيا إلى محمد ابن الحنفية فعرق انصاره بالتوابين.

٨)ضياع هيبة أواخر حكام بنى أميه:فى أعين الناس بسبب تطاول بعضهم على بعض.

٩)إخفاء أمر الدعوة العباسية: وشخص المدعو إليه فى شعار الرضا لآل محمد دون تحديد شخص المدعو اليه هلى هو علوى أم عباسى؟

١٠)اختـــيار خراسان كمقر للدعوة العباسية: لبعدها من ناحية ووجود عصابية كبيرة من الفرس الموإلى الذين انضموا للدعوة، حيث كانت خراسان بركان من العصبية القبلية أنفجر بفضل أعمال أبومسلم الخراسانى.

النسب العباسي:

تنسب الدولة العباسية إلى العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله علية وسلم ومن صلب ولده عبدالله بن العباس جاءت سلسة خلفاء هذه الدولة . وعبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف جد الرسول صلى الله عليه وسلم بقى عقبة فى كثير من أولاده ولكن العدد الأكبر كان من ولديه العباس وأبى طالب فقد ملا بنوهما السهول والأودية والأمصار الإسلامية من أقصى المغرب إلى بلاد ماوراء النهر فى أواسط آسيا.

- **العباس بن عبدالمطلب بن هاشم:**

أمه نتيلة بنت جناب بن كليب أحدى قبائل ربيعة ولد قبل حادث الفيل بثلاث سنوات فهو أسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين.

كان العباس من سادات بنى هاشم وعقلائهم ، وكان صديقاً ووفياً لأبى سفيان بن حرب ولما جاء الإسلام كان من المخلصين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإن لم يظهر مبايعيته ، وكان هو الذى أحكم الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند مبايعة الأنصار له فى بيعه العقبة الثانية حين الهجرة.

ولقد خرج مع المشتركين فى بدر سنة ٢هـ وهو كاره ولذلك قال النبى صلى الله لأصحابه يوم بدر من لقى منكم العباس وطالباً وعقيلاً ونوفل وأبو سفيان فلا تقتلوهم فإنهم خرجوا مكرهين، بل أن العباس كان فى جملة أسرى بدر ففدى نفسه، وفدى عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب ثم رجع وأقام بمكة.

وكان مقامه بمكة ضرورة ، فقد كان يتسمع أخبار المشركين ويكتبها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يتقوى به المؤمنين فى مكة ، وكان لهم عونا على إسلامهم، وكان قد طلب الهجرة بعد اسلامه، ولكن النبى عليه السلام كتب اليه بالبقاء فى مكة فمقامة فيها (جهاد). ولكنه هاجر إلى المدينة قبيل الفتح

وحضـــر فـــتح مكة فى رمضان سنة ٨هـــ، وكان سبباً فى نجاة أبى سفيان بن حرب وفى تشريفه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من دخل دار أبى سفيان فهـــو أمن) وحضر غزوة حنين وكان له فيها بلاء حسن، ثم خرج إلى المدينة فأقام بها.

• كـــان رسول الله عليه وسلم يحبه ويكرمه، وعلي ذلك جرى الخلفاء من بعده وكانت وفاته فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة ٣٢هـــ وله ٨٨ سنة ودفن بالبقيع.

• عَقبِه وأولاده:

وأعقب من الولد الفضل وهو أكبر أولاده به كان يكنى وعبدالله وعبيدالله وعبدالرحمـــن وغـــيرهم اولاداً وبناتاً، وعبدالله ابنه الثانى جاء من صلبه وعقبه خلفاء الدو!ـ العباسية.

• عبدالله بن العباس:

هو ثانى ولد العباس بن عبدالمطلب ، ولد قبل الهجرة بسنتين فكانت سنة حيـــن وفـــاة رسول الله صلى الله علية وسلم ثلاث عشرة سنة، وكان المصطفى علـــيه الســـلام يحبه ودعاله فقال " اللهم علمه التأويل" فكان رضى الله عنه أعلم الـــناس بآيات القرآن وتأويلها والفقه فى الدين، وكان عمر رضى الله عنه يحبه ويدخلــــه مع كبار الصحابة فى مجلس شوراه الخاصة ويستفتيه فى كثير من من المسائل على صغر سنة وولا عثمان موسم الحج سنة ٣٥هـــ وهو محصور فقام بـــالحج خير قيام، ولما بويع على رضى لله عنه بالخلافة كان له عضداً وسنداً ونصيراً فى حروبه كلها فولاه البصرة وأعمالها، ولكنه أعتزل الحكم ورحل إلى الطـــائف التى ظل بها مقيماً طوال حياة معاوية كلها، وكان معاوية يحبه ويتودد إليه كثيراً كما كان يفعل مع سائر بنى هاشم ، وتوفى سنة ٦٨هـــ.

ومن نسله جاء البيت العباسى لأن أخوته لم يكن لهم نسل باق، وعقبه الذى نما جاء من ولده على بن عبدالله بن العباس رضى الله عنهم.

- **على بن عبدالله بن العباس:**

أمه زرعة بن مشرح من معد يكرب من كندا، ولد ليلة قتل على بن أبى طالـب كـرم الله وجه سنة ٤٠هـ فسمى باسمه وكنى بكنيته أبى الحسن، وهو أصغر أولاد أبيه، وكان سيداً وشريفاً ويقال كان أجمل قرشى على وجه الأرض وأكـثرهم صلاه وكان مفرطاً فى الطول اذا طاف فكأنما الناس مشاه حوله وهو راكباً من طوله وقد أقطعه بنو أمية قرية أسمها الحميمة بالشراة (بشرق الأردن حالياً) فأقام بها وفيها أنحاء اكثر اولاده وكانت وفاته سنة ١١٧هـ.

وأعقب على أثنين وعشرين ولدا ذكرا وإحدى عشرة أنثى. ومنهم انتشر البيـت العباسـى وكثر جدا وورثه ابنه محمد اكبر أبناءه الذى كانت الخلافة فى أولاده.

- **محمد بن على بن العباس:**

أكـبر أولاد علـى بن محمد عبدالله بن العباس، وهو الذى ابتدأت الدعوة العباسـية على يديه، وكان ذلك فى حياة أبيه على، ولكن لم يكن لأبيه على ذكر فى هذه الدعوة.

- **إبراهيم الأمام:**

ابن محمد بن على بن العباس وأخو أبو العباس السفاح أول خلفاء الدولة العباسـية وأبـو جعفـر المنصور مؤسسها الحقيقى وهم مبدأ هذه الخلافة التى اسـتمرت تحكـم العلام الإسلامى قرابة ستة قرون من الزمان سنة ١٣٢-٦٥٦هـ/٧٥٠-١٢٥٨م حتى سقطت على يد المغول.

ولكن السؤال المطروح هل طمع العباس وأودلاه فى الحكم والخلافة؟

رغم أنهم أقرب نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

كــان العــباس عند وفاة المصطفى عليه السلام، وأختيار أبوبكر خليفة للمسلمين هو أسن بنو هاشم واكبرهم ، ولكنه لم يطالب بالخلافة ، فقد كان دائماً مؤيداً للدعوة الإسلامية. وأنه لم يحمل لها الحقد مثل غيره من اعمام النبى عليه السلام كأبى لهب، بل كان خير سند لها كما مريناً.

ولم يظهر العباس طمعاً فى خلافه النبى عليه السلام ، بل أقبل بعد موته علــى بــن اخــيه على وقال له: أبسط يدك لنبايعك" فرفض على كرم الله وجه لانشغاله بدفن النبى عليه السلام.

كــان عمر ينظر إليه على انه رأس أسرة النبى عليه السلام ففرض له فــى ديــوان العطــاء وبدأ به، حتى انه كان يستعين بدعاء العباس عند انقطاع المطر.

ولــم يكن عبدالله بن العباس هو الآخر طامعاً فى الخلافة، فأعتزل فتنه عثمان وأقام بمكة واهتم بجمع الحديث حتى نبغ فيه،ورفض مبايعة بن الزبير فى مكــة عــند ثورته ضد الأمويين كذلك لم يسع على محمد عبدالله بن العباس إلى الخلافــة وهــو الــذى ولد فى الليلة التى قتل فها على كرم الله وجهه، وقد أقام بالحمــيمة كمــا مر بنا، ربما بأمر من الأمويين ليكون تحت رقابتهم إلى وقت وفاته فى سنة ١١٨هـ/٧٣٦م.

ولكــن كــيف انقلب الأمر؟ وأصبح بنو العباس لهم دولة؟ وبمعنى أخر كيف انتقلت الدعوة إلى بنى العباس؟ وكيف قامت الدولةالعباسية؟

توفــى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤثر عنه خبر فيمن يتولى خلافة المسلمين بعده لانه عليه السلام كان قد ترك الأمر شورى بناءاً على أمر الله تعــالى (وشــاورهم فى الأمر) (وأمرهم شورى بينهم)،وكان العباس بن عبدالمطلــب رضى الله عنه قد أشار على، على بن أبى طالب كرم الله وجه أن

يدخـــل على رسول الله عليه السلام، وهو مريض فيسأله عن الخلافة بعده فإن كانت فيهم وإلا أوصى بهم من سيكون الخليفة فأمتنع على رضى الله عنه.

وفـــى ســـقيفة بنى ساعده اجتمع الأنصار ليختاروا من بينهم من يخلف المصطفى عليه السلام ، ولكن ارتضى المسلمون مبايعة أبوبكر الصديق رضى الله عنه بعد المناظرات التى جرت بين المهاجرين والأنصار، مع وجود فئة قليلة تمـيل إلى أن تكون الخلافة فى بنى هاشم رهط النبى عليه السلام الذين لم يكن مـــنهم مـــن أعمامه سوى العباس أسن بنى هاشم، وابن عمه على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ولكنه بايع ابوبكر بالخلافة وعمر وعثمان الذى توفى العباس فى عهده سنة ٣٢هـــ.

وتولـــى على الخلافة بعد مقتل بن عفان فى الفتنة سنة ٣٥هـــ، وأمضى علـــى رحمـــه الله حـــياته فى حروب مخالفية فى البصرة والنهروان إلى أن تم اغتياله سنة ٤٠هـــ على يد أحد الخوارج فى الكوفة.

وانتقلـــت الخلافـــة إلى ابنه الحسن رضى الله عنه الذى ارتضى التنازل عنها لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه سنة ٤١هـــ فى عام الجماعة، مفضلاً جمـــع كلمة المسلمين والسكن بطيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقام على ذلك حتى توفى سنة ٥٠ هـــ.

وظل معاوية يسوس الناس بما عرف عنه من لين العريكة وسخاوة اليد، فأجتمعـــت الأمة على طاعته والرضا به، وسكنت الدعوة إلى أهل البيت، وخبت نـــار التشـــيع إلا أنهـــا كانـــت مستكينة فى أنفس ذويها ينتظرون الوقت الملائم للهبوب.

ولكـــن معاوية اختار ابنه اليزيد وليا لعهده، فهب أعاصير الفتنة فى مكة والمديـــنة والكوفة فثار الحسين بن على فى المدينة، وعبدالله بن الزبير فى مكة طالبا الخلافة لنفسة ، وثارت المدينة تطلب عزل اليزيد من ولايه العهد.

وأرسـل أهـل الكوفـة إلى الحسين يطلبون إليه المجئ عليهم لمبايعته وينـتزعوا مـن أعناقهم بيعة اليزيد فلبى الحسين الدعوة.ولكن خذله أهل الكوفة لعادتهم وحدثت مأساة كربلاء وقتل الحسين رحمه الله.

ممـا ترتـب عليها نتائج فى غاية الأهمية أهمها المطالبة بدمه ، حيث قامت ثورات مثل ثورة المختار الثقفى الذى ذهب إلى الكوفة مطالبا بدم الحسين ولكنها فشلت واختلفت شيعة الحسن والحسين فى أمر الثأر له حتى انتقلت الدعوة منهم إلى بنى العباس.

بنو هاشم واتحاد كلمتهم للقضاء على بنى أميه:

أثـار قتل الحسين فى كربلاء حماسة المسلمين فتوحدت صفوف الشيعة وزادت الدعـوة لأل على قوة، واشتد العداء بين الأمويين والعلويين الذين أثاروا الفتنة والثورات فى الولايات الإسلامية.

وتـزعم ثـورات الشيعة المختار بن عبيدالله الثقفى الذى ظهر الكيسانية بعده، وهى فرقة شيعية مغالبة فى اعتقادها بإحاطة الأئمة بالعلوم الإلهية، فتذهب إلـى أن محمد بن الحنيفية قد أحاط بالعلوم كلها ويجمعهم القول بأن الدين طاعة رجـل" حـتى قال بعضهم أن طاعة ذلك الرجل تبطل ضرورة التمسك بقواعد الإسلام" كما أبطلوا الاجتهاد فى الأحكام.

ومـن الكيسانية تفرعت الهاشمية القائلون بانتقال الإمامة من محمد بن الحنفـية إلى ابنه أبى هاشم (عبدالله) إذ أن محمداً أطلع ابنه على أسرار العلوم والحكـم . علمه التأويل وعلم الباطن ، وقالوا أن لكل ظاهراً باطناً ولكل تنزيل تأويل ، وقد ساعد تطرف الهاشمية فى التأويل على تسرب كثير من الأراء غير الإسلامية إليهم وعلى دخول كل من اسلم لطمع أو خوف فى صفوفهم.

ولكـن الأئمـة مـن الهاشمية تبرأوا من ادعاءات المغالبين لمحمد بن الحنيفـية، لكن ابنه ابو هاشم الذى دفعه طموحه إلى الاستفادة من الصراع مع

بــنى أمــية، هــو أول من نظم الدعوة وشجع شعور التقديس للامارة والاراء المــتعلقة بالــتأويل ، وقــام بأمر الشيعة حيث كانوا يأتونه ويقوم ويؤدون إليه الخراج.

انتقال حق الامامة والدعوة إلى بنى العباس:

تذكــر المصــادر انــه فى ٩٨ هـ استدعى الخليفة الاموى سليمان بن عبدالملك (ابا هاشم بن عبدالله) ولكرم وفادته ، واظهر التودد له، ولكن لما رأى الخليفة علمه وفصاحته خافه، فدس له السم فى اللبن، ولما شربه أبوهاشم وأحس بدنــو اجلــه قصــد الحميمة، وكان بها (محمد بن على بن عبدالله بن العباس) فأوصــى له، ودفــع إليه كتبه وصرفه الشيعة نحوه – وسلم اليه كتب الدعاة)، وتوفــى أبوهاشم فى نفس العام بعد ان أمد محمد بن على العباس بأسماء داعى دعاته فى الكوفة ومن يليه من الدعاة، كما سلمة رسائل يقدمها إليهم.

وبذلك تحول حق الامامة من العلويين إلى العباسيين بسهوله ويسر، وهنا يحــس بنا ان نسأل : لماذا عدل "أبوهاشم" عن أهل بيته من العلويين وحول حقه إلــى بــنى عمــه من العباسين الذين كانوا حتى هذا الوقت خارجين عن النزاع العلوى الاموى؟

والإجابة على هذا السؤال تدور فى الأسباب الأتية؟

١) كانت العلاقة بين بني هاشم علويين وعباسيين ، تقوم على الود والصفاء حــتى هــذه اللحظة،وكان كلاهما متحداً على العدو المشترك وهو بنى أمــيه، ولــم يرشــح المسلمون أحدا من بنى هاشم إلا على بن طالب وأولاده، ولــم يــتجه النظر إلى العباس إلا انه لم يكن من السابقين إلى الإسلام ،ولم يرشح للخلافة هو وأودلاه من بعده، وقيل أن أبا سفيان بن حــرب جــاء العباس بعد بيعة أبى بكر فقال له (ابسط يدك وأبايعك، فرفض العباس) فاطمئن العلويون.

٢) اذهــب المــوت جــيلاً من العلويين حيث ان الإمام علي السجاد زين العابديــن قد توفي في المدينة سنة ٩٢هــ وكان ابناه محمد الباقر وزيد لايــزالان فــي أول شبابهما غير ظاهرين، على حين لم يعقب ابوهاشم عبدالله من بعده من يخلفه.

٣) كــان العباسيون في اواخر القرن الأول الهجري بفضل علم عبدالله بن العباس وانتشاره على يد عكرمة تلميذه الذي نشرة في المشرق ، قد نالوا احــترام الناس لقرابتهم من بيت الامام علي ومن " رسول الله صلى الله عليه وسلم" كما انهم اصبحوا أكثر كفاية ونشاطاً من الناحية السياسية من العلويين ، واكثر تطلعاً إلى النفوذ والسلطان.

٤) قــيل ان ابــو هاشــم فعل ذلك لانه لم يجد بين افراد البيت العلوي من يستطيع النهوض باعباء امامة المسلمين.

٥) ان الــناس لــم يحــتاجوا إلى ان يفرقوا يؤمئذ بين ال البيت؟ هل هم علويــون ؟ ام عباســيون لانهم نظروا اليهم جملة واحدة على انهم كل متضامن لاينازع احد منهم احدا، وان كانوا بيوتا مختلفة لكل بيت دوره ووجاهته.

٦) حاجة الدعوة إلى شيخ كبير مسن من آل البيت كمحمد بن علي عبدالله العــباس، علــى أن هناك مسالة جديرة بالملاحظة وهي ان نزول أبي هاشــم بن محمد عن الامامة لبني العباس لايمكن ان يعتبر نزولا عن العلويين جميعاً، لأن فريقاً كبيراً منهم ظل متمسكاً بعقائد الشيعة الامامية ، بدليل قيامهم في وجه العباسيين بثورات عارمة بعد قيام دولتهم.

وهكــذا صــار محمد بن علي بن العباس هو شيخ الدعوة للرضا من آل محمــد القــادر على ان يتكلم باسمهم دون ان ينازعة احدا ويشك في نواياه ،

كـــان من الطبيعى ان ينظر آل البيت بعين الرضا لكل تنظيم يدعو للرضا لال محمد والذى اتخذته الدعوه العباسية شعاراً لها.

تنظيم الدعوة العباسية:

رأى الأمام محمد بن على العباس أن نقل السلطة من بيت إلى بيت لابد ان يســبقه أعداد الأفكار وتهيئها النفوس لهذا التغير،وان كل محاولة فجائية قد تكون عاقبها الإخفاق ، فرأى أن الأمر يحتاج إلى شدة الحيطة فطلب من شيعته أن يدعو الناس إلى ولايه آل البيت دون تسمية أحد خوفاً عليه من بنى أمية.

ولقــد ورث محمد بن على الدعوة وهى أقوى الدعوات وأكثرها ايجابية وتنظــيماً، فمــنذ أن قامت الدعوة لأبن الحنيفية كانت قائمة على الستر والكتمان بأرسال الدعاة وجمع الذكاه ليوم الوثوب.

ولمـــا تسلمها المختار وأظهرها ، أعلنها حرب شعواء تدعو إلى قتل أل أبى سليمان بن عبدالملك وهدم دمشق، فلما ألت الدعوة إلى محمد بن على ابقى على ايجابيتها وجعل هدفها القضاء على دولة بنى أمية واعلان الخلافة فى بنى هاشم وذلك بالدعوة الغامضة للرضا من آل محمد دون ان يذكر الدعاه المقصود بالدعوة أهو من فرع العلويين أم العباسيين وان كان عليهم ان يبينوا فضلها وظلم بنى أمية واشاعة أحاديث نبوية تؤيد ذلك.

كذلك استمر محمد بن على العباس فى ارسال الرجال والدعاة وكان ابو هاشــم قد طلب منه ذلك، وطلب من الدعاة الطاعة له، فأصبحت الدعوة على يدية اكثر تنظيماً واسعة النطاق على اكثر دعاية كبيرة بجعله لها مجلس يشرف عليها يتكون من أثنى عشر نقيباً . وسبعون داعيا وكان الدعاه يذهبون فى زى التجار والزهاد على ان يجتمع بهم محمد بن على فى موسم الحج اذا يأتون إليه بالمال ويأخذون منه التعليمات والأوامر.

ومهما يكن من أمر؟ فما هى الخطوات التى اتبعُها العباسيون للوصول إلى غايتهم ، أو بالاصح كيف نظم العباسيون الدعوة.

●يمكن تقسيم الدعوة العباسية إلى قسمين:-

السرى – العلنى

الدعـوة السـرية: الـتى بـدأت فى مستهل القرن الثانى الهجرى حتى سنة١٢٩هـ.

الـدور العلنى للدعوة : بانظمام ابو مسلم الخراسانى لها حتى سنة ١٣٢ هـ ٧٥٠م.

١)الدعوة السرية:

يعـد محمـد بـن علـى بن عبدالله العباس أول الساعين من العباسين للوصـول إلـى الخلافة، فقد بدأ بتنظيم الدعوة تنظيماً سرياً دقيقاً وذلك بارسال النقـباء والدعـاة والعمال، يتخفون فى زى التجار وأصحاب المصالح ويدعو الـناس فـى سر وكتمان ، وارسلهم إلى الجهات البعيدة التى يكثر فيها أعدا الدولـة الأموية والحاقدون على الأمويين بسبب سياسة التمايز بين ماهو عربى ومـن هـو أعجمى. فاختار خراسان لتصبح هى الأرض الملائمة لزرع بذور الدعوة العباسية.

وهـنا نطـرح السؤال الاتى؟ لماذا اختار محمد بن على خراسان ولم يختار الكوفة مقر التشييع أو البصرة وغيرها لتصبح مقراً للدعوة ؟

يجيـب محمد بن على العباس بنفسه على هذا السؤال فى رسالته إلى أحد دعاته فيقول " أما الكوفة وبسوادها فشيعة على، واما البصرة فعثمانية تدين بـالكف تقـول كونـوا مـع عثمان المقتول ولاتكونوا مع عثمان القاتل، وأما الجزيـرة فأعراب أعلاج، ومسلمون فى اخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بنى أمية، وعداوة راسخة وجهل متراكم، وأما مكة

والمدينة فقد غلب عليهم أبوبكر وعمر، فعليكم عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة، لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل، وهم جنود لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وشوارب وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أجسام منكره، وبعد فإني اتطلع إلى المشرق مطلع سراج الدنيا ومصباح الحق.

وهكذا بدأت الدعوة العباسية السرية من الحميمة التى أتخذها العباسيون مركزاً لنشر دعوتهم فى البداية فى عهد عمر بن عبدالعزيز ثم وجه محمد بن على بن العباس دعاته إلى الامصار فعين مسيره العبدى، وبكير بن ماهان وأبو سلمه الخلال دعاة فى العراق.

اما دعاة خراسان فأولهم أبوعكرمة السراج مولى بنى العباس وقد تجمع حوله خمسة نقباء، وكانوا نواة الدعوة فيها، ثم ارسل بكير من ماهان سنة ١٠٨ هـ إلى خراسان وفى سنة ١١٨هـ، وارسل بن ماهان محمد بن يزيد إلى خراسان ليرأس الدعوة فيها فبدل اسمة إلى (خداش) وسكن مرو فنجح نجاحاً كبيراً ، ولكنه انقلب على الدعوة فقبض عليه وقتل.

وترأس للدعوة فى خراسان من بعده سليمان بن كثير الخزاعى ، ثم يتوفى محمد بن على العباس فى الأول، ذى القعدة سنة ١٢٥هـ، وأوصى بالامامة لابنه ابراهيم الذى لقب الامام ، والذى ارسل بكير ماهان إلى خراسان فجمع الاتباع واخبرهم بوصية محمد واعطاهم رسالة ابراهيم فاعترفوا به ودفعوا لـه مـا جمعوه من الأموال للامام. ثم عين ابو سلمه الخلال امر خراسان سنة ١٢٦ هـ بعد وفاة بكر بن ماهان فانصاع الناس له.

النقبـــاء:

يعتـــبر النقباء الكادر الثانى فى الدعوة العباسية ، وكانوا يأتمرون بأمر الدعـــاة ولهم قدراتهم العسكرية والدعائية ، ولم يكونوا يقلون عن الدعاه قيمة انما كانوا يجهلون امام الوقت، فقد كان العلم به سرا لايعرفة ألا الدعاه فقط .

وكـــان لكل داعية اثنى عشر نقيبا ، وكان النقباء تتبعهم درجات اقل فى مراتـــب الدعـــوة وهـــى العمل، وكان لكل نقيبا سبعون عاملا يديرون الجهاز السـرى ويســاعدون النقباء ثم يمضى التشكيل فى عمقة إلى أن ينتهى بالخلايا السرية التى كانت تندس فى جميع الأمصار الإسلامية.

شعارات الدعاية للثورة:

لكـــل دعـــوة أو مذهب شعارات خاصة تنادى بها وتجعلها رمزاً يؤمن بضـــرورة تحقيقة واذا قسنا الدولة العباسية بشعاراتها وبالفوائد التى حققتها هذه الشـــعارات لأعتـــبرنا الدعـــوة العباســـية بشعاراتها وبالفوائد التى حققتها هذه الشـــعارات لاعتبرنا الدعوة العباسية من اكبر الثورات فى التاريخ العالمى. لأن هذه الشعارات مهمة فى فترة التحضير لنجاح الدعوة وهى السبب المباشر نجاح الدعـــوة العباســـية ، وبمعـــنى آخـــر لأنها ستحكم على العباسيين، هل أطلقوا الشعارات رغبة فى كسب الأنصار أم صدقوا ما وعودا.

المســـاواة:

أول شعارات الدعوة المساواة بين الشعوب، وهو الشعار الذى ساهم إلى حـــد كبير فى نجاح الدعوة العباسية وانصف الشعوب المستعربة. واندمجت فى ظل دولة عربية إسلامية وصارت تتطلع إلى المساواة بعد الظلم الواقع عليها من بعـــض خلفاء وولاه بنى امية ، وهو الشعار الذى يعنى فى حضارتنا الإسلامية الراقـــية عدم التفرقة بين الناس بحسب الوانهم أو دمائهم او تاريخهم (لافرق بين

عــربى وأعجمى أو ابيض-أو أسود الا بالتقوى). وهو مبدأ أساسى فى الشريعة الإسلامية، لأنه من القرآن الكريم والسنة الشريفة وأجماع الفقهاء.

(٢) الامامه للرضا من ال محمـــــد

كان هذا الشعار غامض غير محدد بتجديد أخر بالنسبة لعامة الناس ، اما الخاصـــه فهم يعرفون روسائهم ولمن يدعون أل البيت ، و العامه والخاصة معا يـريدون الا تـبقي الامامــه فــى أمـية والشعار ينادى بضرورة نقل الخلافه عنـــــهم واعتبـــارهم مغتصبيــن

فقــد حــول الدعــاة والنقباء انظار الناس إلى ان بنى اميه قد وقعوا فى الضلال والفسق وان حكمهم (قهر وجبر وغلبه) حين حولوا الخلافه إلى ملك كما وجه أل محمد (عباس او طالبيين) الطعن إلى ولاة بنى أميه وسموهم ولاة الجور ٠ ولكن لم يكن احد يتوقع ان يكون الفائزين من أل محمد هم بنو العباس

٣) الدعوه إلى الاصلاح :

- الاصلاح اوالدعوة إلى الكتاب والسنة كان من شعارات الدعوه العباسيه العــام، وهــو اشمل هذه الشعارات ، فالمساواة من مطالب رجال الفقه اختلاف مذاهبـــهم واجناســـــهم

وقد كانت الدعوة مرتبطه بالتمسك بالاسلام واصوله لاقرار العدالة ، بعد ان وقعــت احداث كثيره تركت آثار مريرة فى النفوس فى العصر الأموى مثل حصـــار الكعبه على يد الحجاج وانتهاك حرمة المدينة المنورة يوم الحرة ومقتل العديـد من أبنـــاء الصحابة والتابعين، وسفك دماء ال البيت فى كربلاء وسياسه الجبر والقهر والاستبداد واضطهاد المعارضة والابتعاد عن سيرة السلف الصالح وحب الترف واللهو وكثرة مظاهره، وكثرة المذاهب وتصارعها والاعتماد على العصـبيه ممـــا ادى إلى تضافر الدعاة لنشر الدعوة انضموا تحت لواء أبومسلم الخرســانى وبــايعوه وقــد جاءتــه الوفود من مدن خراسان كلها ومن القرى

الصغرى ومن أهل الثغور من كرمان وكابل وخوارزم وجرجان والديلم ،وأهل مـــاوراء النهر وأهل طخارستان بل آمن العرب بهذه الدعوة ودخلت فيها قبائل عربية مثل خزاعة وطئ وبكر بن وائل وتغلب وتميم، وهكذا انتشرت الدعوة فى العالم الإسلامى كله ولكنها تركزت فى ايران بعامة وفى خراسان بخاصة.

وكانـــت الكوفة مزكز الدعوة الأول ومقر الإمام،ولكن الدعاة كلهم كانوا موالـــى ايرانيين من الباعة وأصحاب الحوانيت ويعتبر خداش المؤسس الحقيقى للحزب العباسى فى مرو بخراسان قبل أبو مسلم وكان للدعاة والنقباء أساليب فى الدعوة منها:-

١-قـــال محمـــد بن على لدعائه (انطلقوا أيها النقر فأدعوا الناس فى رفق وســـتر) فكـــان الدعاة يجوبون خراسان ظاهر أمرهم التجارة ويراسلوا الأمام فى الحميمة بوساطة الكوفة، أو يجتمعون به وقت الحج.

٢- الســـتر: حـــاول الدعـــاه ستر دعوتهم بكل وسيلة ، فلما قبض أسد بن عـــبدالله القسرى الوالى الأموى على خراسان (١١٧ هــ/ على جماعة مـــنهم ســـليمان بـــن كثير الخزاعى، قال سليمان للأمير (انا من قومك اليمانية ، وان هؤلاء المضرية تعصبوا علينا" فخلى سبيلة) وهكذا ضرب سليمان على وتر العصبية القبلية حتى يكسب ود الوالى.

٣-التبشـــير فـــى المـــناطق التى كان العداء فيها للأمويين بالغا منتهاه مثل خراسان وماوراء النهر حيث كان التذمر المالى والاجتماعى شديداً فيها.

٤-جذب الشيعة العلويين وعدم الظهور للناس كمدعيين للملك . بل كوسيلة للـــثورة التى يريدها الله، فلم تكن البيعة تؤخذ باسم العباسيين بل لشخص غـــير معيـــن من آل البيت اتفق عليه فيما بعد وتجنبوا كل ما يبين انهم قـــاموا لأخـــذ محـــل العلويين. بل انهم اعلموا انهم جاءوا لأخذ ثار من استشهد منهم.

ولنرجع إلى سير الدعوة السرية، فقد توسعت الدعوة وانتشرت واضطربت أحوال خراسان، واستوجبت ذلك الاتصال بالأمام مباشرة بواسطة احد ثقاته، والسيطرة على الوضع، كما تحتم وجود رجل قوى على رأس الدعوة فكان اختيار ابومسلم الخراساني سنة ١٢٨هـ ليكون ممثل الامام في خراسان.

علانية الدعوة وقيام الدولة العباسية (١٢٩- ١٣٢هـ)

هذه السنوات الأربع ، فترة قصيرة زمنيا ، عميقة تطورا واحداثا بل هي من أهم السنوات في تاريخ العباسيين ، فقد خرجت الدعوة من الستر إلى العلانية، ووضحت فعاليتها وحان أوان الحكم لها أو عليها وبدأت شعارات الدعوة تمتحن صلابتها وقوتها ، وقد كانت هذه السنوات الأربع حافلة بالنضال العنيف والاشتباكات الدموية، وعمليات تصفيه للأمويين ونفوذهم، وفيها ظهرت القوى الجديدة أعني بها الفرس وسيطرتهم بدلا من العرب، وفيها تحولت الإمامة إلى خلافة، وظهر زيف شعار الدعوة للرضا من آل محمد ليحل محله الرضا من آل العباس .... ولكن كيف حدث ذلك لنرجع إلى الوراء قليلاً؟

ابو مسلم يتزعم الدعوة العباسية في المشرق:

كانت سنة ١٢٧هـ سنة حرجة في تاريخ الدعوة العباسية في الشرق، حيث تكون للشيعة بخراسان تنظيم استقل عن العباسيين وتفاقم خطره برئاسة خداش الذي تساهل في امر الدين وكانت رئاسه الدعوة في خراسان لاتريد أن تخضع لرئاسة الكوفة أو تأتمر بأمرها، وقد خشى العباسيون أن يفلت الامر من ايديهم في خراسان ، ولكن موت محمد بن على بن عبدالله العباس سنة ١٢٧هـ والذي كان يؤلف قلوب هؤلاء جميعاً قد سبب نوعا من الخوف لخلفه ابنه ابراهيم بن محمد الملقب بالأمام والذي بدأ يتخذ الخطوة الحاسمة للسيطرة على الموقف في خراسان سيطرة تامة ، فوضع اللبنة الأولى في صرح الدولة

العباســية، وذلك عن طريق اختياره أبى مسلم الحراسانى رئيسا ليصبح له امر الدعوة فى خراسان.

وأصبح ابو مسلم رئيسا للدعوة، ووجدت فيه الجماعة الخراسانية انه هو الخراسانى الذى يرضى طموحا ويحقق أحلامها وكان اختياره موفقاً وقد اوصاه الامــام إبراهــيم بطاعــة سليمان بن كثير ولايخالفة او يعصية ولن يرجع اليه، واســتطاع ابــو مســلم الخراسانى بما أوتى من كفايات مهارة وذكاء أن يكون الداعية العباسى فى الشرق كله أو بمعنى أخر هو العمود الفقرى الذى قامت عليه الدولة العباسية فمن هو أبومسلم الخرسانى هذا؟

يكتنف شخصية ابو مسلم الغموض؟ ونسبه مختلف فيه ؟ فيذكر الفخرى انه مولى ولد بأصفهان ونشأ بالكوفة وقيل انه كان حرا اسمه ابراهيم بن عثمان ويكنى ابا اسحاق، وانه ينتسب إلى برز جمهرا. ولما اتصل بابراهيم الامام امره بتغيــير اســمه وقــال له " لايــتم الامــر الا بذلك كما وجدته فى الكتب فسماه عبدالرحمن بن مسلم وكناه ابومسلم وزوجة امرأة من طئ كانت تقيم مع ابيها فى خراسان.

وقيل فى سبب اتصال أبى مسلم بابراهيم الامام ان سليمان بن كثير احد النقــباء وغيره من النقباء تركوا خراسان سنة ١٢٤ متظاهرين بالحج إلى مكة. فلمــا دخلــوا الكوفــه اتــوا إلى عاصم بن يونس العجلى ،وكان قداتهم بالدعوة العباســية . فحبسوه هو وعيسى بن ادريس ابنى معقل العجلى، وكان ابومسلم يقوم بخدمة ابنى العجلى، ولما رأى سليمان بن كثير ومن معه أبى مسلم توسموا فيه ذكاء عقله وحسن تصرفة، وجودة ذهنه وحسن منطقة فاخذوه وقدموه للامام.

وقــد قيل ان ابا مسلم لما قوى امره ادعى انه من ولد سليط بن العباس وكانت لسليط هذا جارية أدعى ابنها من ولد عبدالله ابن العباس ولما مات سليط نازع ورثته فى ميراثه فسر بنو اميه ليتخذوا من ذلك سببا للحط من شان على بــن عــبدالله بن العباس فاسانو د، وقضى له القاصى فى دمشق بالميراث ولما

قويــت شوكه أبى مسلم ادعى انه من واد سليط بن العباس. وكان هذا من مناقم ابوجعفر المنصور عليه فيما بعد وسببا فى قتله على يديه.

وقـــيل ان ابا مسلم كان من الرقيق وان اتصاله ببنى العباس يرجع إلى بكير بن ماهان داعى العباسيين.

علـــى ايـــه حال فإن سنة ١٢٨هـــ كان بداية تسلم ابو مسلم الخراسانى مقالـــيد الامور فى خراسان، وكان من أسباب سقوط دولة بنى اميه ونجاح وقيام الدولـــة العباسية بتأجيج نيران العصبية بين اليمانية والقيسية وقد ظل ابو مسلم فى خراســـان إلـــى أن كتب ابراهيم الامام إلى أبى سلمه الخلال داعية العباسيين فى الكوفة، يعلمه انه أرسل أبى مسلم إلى خراسان وانه امر أهلها بالسمع والطاعة له.

وكتب الامام إلى مسلم كتابا يقول فيه (يا عبدالرحمن انك رجل منا أهل البيــت احفــظ وصــيتى ، انظر إلى هذا الحى من اليمن، فالزمهم ولكن بين اظهـــرهم، فإن الله ليتم هذا الأمر الا بهم وأنهم ربيعة فى أمرهم وأما مضر فـــأنهم العدو القريب الدار فأقتل من شككت فى امره، ومن كان فى امره شبهة ومـــن وقـــع فى نفسك منه شيئ، وان استطعت ان لاتدع بخراسان لساناً عربيا أوأحـــد يتكلم العربية فافعل، فإى غلام بلغ خمسة اشبار تتهمة فأقتله لاتخالف هـــذا الشيخ (يعنى سليمان من كثير) ولا تعصه واذا أشكل عليك أمر فأكتفى به منى).

ويقال ان هذا الكتاب وصل إلى أبى مسلم، ففعل ما قاله الامام ،وظل الامام يراسله بمثل هذا الكتاب حتى وقع احدها فى يد مروان بن محمد ١٢٨ – ١٣٢هـــــ أخـــر خلفاء الدولة الأموية فقبض على إبراهيم الامام فسجنة وحبسة وقـــتلة . وبذلك انكشف أمر الدعوة فأعلنها ابو العباس عبدالله بن الامام إبراهيم ســـرية والتى انتقلت اليه الامامة فى الكوفة واختفى مدة أربعين يوما ثم ظهر مطالبا بالامامة وأعتمد على أبى مسلم اعتمادا كليا.

وقد نجح ابو مسلم فى دعوته فقد (وافاه فى يوم واحد. أهل ستين قرية) بل إجابه جميع أهل خراسان مستغلا العصبية القبلية بين قبائل العرب ورفع ابو مسلم اللواء والراية اللذين بهما الأمام، ويدعى الاول الظل والثانى السحاب، ومعناها " أن خلفاءه العباسيون يظلون الأرض إلى آخر الدهر" وكان يتلو قوله تعالى " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير".

واتخذ ابومسلم السواد شعار له . فعرف جيشه بالمسودة نسبة إلى شعار العباسين الأسود حزناً على الشهداء من بنى هاشم، ونعياً على بنى أمية فى قتلهم ، كذلك أمر بأن توقد النار وتضئ المشاعل الكبيرة على قمم الجبال، فأخذ ينضم اليه اعداد كبيره من الموالى .

انتصار العباسين وقيام دولتهم سنة ١٣٢ هـ/٧٥٠م.

وقد ساعدت الاضطرابات التى انتشرت فى خراسان فى ذلك الحين أبا مسلم الخرسانى على تحقيق سياسته ففى عهد هشام بن عبدالملك اشتعلت نيران العصبية القبلية فى خراسان فى عهد ولايه أسد بن عبدالله القسرى وكان يمانياً والذين اثرهم على غيرهم من العرب واسند أليهم المناصب، ثم تولى نصر بن سيار وكان مضريا فاقصى اليمانيين . وأثار بذلك عوامل الشقاق بين هذين العنصرين فقامت الحروب بين العرب استغلها ابومسلم احسن استغلال لصالحه.

وعرف ابو مسلم بما اوتيه من الحذق والمهارة الحربية. كيف يستفيد من ذلك الانقسام الذى فرق كلمة العرب فى خراسان خاصة فى اثناء الحرب بن نصرين سيارن والكرمانى كما استطاع ان يرابط بجيشة سبعة أشهر فى ظاهر مدينة مرو قاعدة خراسان، استمال خلالها اليمانية وضمهم إلى صفوفة وبذلك تمكن من الاستيلاء على تلك البلاد دون ان يعرض جيشة للهزيمة.

وقد ادرك نصر بن سيار الوالى الاموى مدى خطر الدعوة العباسية فى خراسان فارسل إلى مروان بن محمد أخر خلفاء بنى امية كتابا يكشف له فيه عن

قــوة أبى مسلم وضعف الجند الأموى فى خراسان، ولكن مروان تعلل بإنشغالة فــى حــروب اخــرى، فعندئذ عمت الثورة خراسان والتى أنتهت بزوال الدولة الأموية.

وبدأت الدعوة العباسية فى الانتشار فدخل ابو مسلم مدن خراسان الواحدة تلــو الأخرى وصارت فى يده أرض خراسان كلها وقتل الخوارج الذين اجتمعوا على قتله، فلما رأى نصر بن سيار ما فعلة ابو مسلم خرج هاربا إلى نيسابور ن ثــم إلى الرى بعد أن لحقت به جيوش ابو مسلم بقيادة الداعية قحطبه بن شبيب، حيــث توفى هناك (١٣٠ هــ/ ٧٤٨م، فدانت بذلك سائر خراسان لأبى مسلم، وسك العملة بها اسم (أمين آل محمد) وعين عليها العمال.

بعــد ذلك دخل الداعية قحطبة نيسابور ثم الرى ثم استولى على اصفهان وقــتل عامل مروان بن محمد عليها، ثم حارب فى نهاوند وفارس واخيرا هزم يــزيد بــن هبــيرة عامل الامويين على العراق وسلم عامل الكوفة المدينة إلى العباســيين فى اوائل سنة ١٣٢ هــ، ودخل ابو العباس عبدالله الكوفه الذى بقى مختفيا خارجها اربعين ليلةبعد القاء القبض علي اخيه ابراهيم الامام فى الحمية وقــتله، فأعلــن ابو سلمة الخلال وزير آل محمد الخلافة فى ابو العباس عبدالله وبايع له بها فى ربيع الثانى سنة ١٣٢هــ/٧٥٠من وقد سمى بأسم أمير المؤمنين ، وكان اخوه ابو جعفر يأخذ له البيعة من الجند.

وفــى واخــر سنة ١٣٢ هــ، خفق العلم الأسود شعار العباسيون فوق حصون دمشق ، بعد أن هرب منها مروان من محمد أخر خلفاء بنى اميه، حيث ارســل ابو العباس خلفة عمه عبدالله بن على على رأس جيش بلغ تعداده ثلاثين ألف ، فالتقى مع جيش مروان بن محمد على نهر الزاب الأعلى قرب الموصل فــى معركة رهيبة استمرت يومين هزم فيها مروان بن محمد وغرق الكثير من جنده الذين بلغ عددهم ٣٠٠٠ جندى و ٣٠٠ من نبى اميه.

أبو مسلم الخراساني

اخـتلف المؤرخـون في نسب أبي مسلم الخراساني ، فقيل أنه كان حرا ، وأسـمه إبراهيم بن عثمان بن بشار ، وكنيته أبو إسحاق. ولد في اصبهان ، ونشأ بالكوفة حيث رحل إليها وهو ابن سبع سنوات. فلما اتصل بالإمام إبراهيم بن علي طلـب إلـيه أن يغير أسمه ، لأن أمر الدعوة لن يتم إلا بهذا كما عرفه من الكتب فسمى نفسه عبدالرحمن وتكنى بأبى مسلم وقيل أن الذي سماه بهذا الإسم هو الإمام إبراهـيم وكانـت حـرفة أبي مسلم صناعة السروج ، وكان يبيعها في اصبهان ، والموصل ، والجزيرة ونصيبين وآمد وغيرها.

ويقـال أن أبـا مسلم كان من الرقيق ، وكان يخدم عيسي بن معقل العجلي وأخاه إدريس ، فابتاعه بكير بن ماهان داعي العباسيين منه بأربعمائة درهم وأرسل به الإمام إبراهيم ، الذي أرسله بدوره إلي أبي موسى السراج حيث سمع منه العلم وحفـظ علـيه ، ثـم سار إلى خراسان فأستقر بها ، ومنها كان يتردد علي الإمام إبراهـيم يـتلقى نصائحه وتعليماته ثم يعود. وعندما بلغ أبو مسلم التاسعة عشرة زوجـه الإمـام إبراهيم بابنة عمران بن إسماعيل الطائي المعروف بأبي النجم ، وكانــت بخراسان مع أبيها. ومكث عند الإمام إبراهيم يقوم علي خدمته ، ويرسله مـن حين إلي آخر إلي خراسان ليتصل بمن يثق بهم من عصبيته من الخرسانيين حـتى وثـق الإمام إبراهيم به ، وتأكد من أنه هو الشخصية التي يعتمد عليها في دعوته ، فزوده بتعليماته ونصائحه ووجهه سنة ١٢٨ هـ إلي خراسان للاستقرار بها ، والاستعداد لنشر الدعوة فيها.

وفـي سـنة ١٢٩ هـ / ٧٤٦ م بعث الإمام إبراهيم بكتاب إلي أبي مسلم وبكتاب آخر إلي سليمان بن كثير الخزاعي فوصل الكتابان إلي أبي مسلم وهو في مديـنة قومس أثناء مسيره إلي الإمام إبراهيم. وكان مضمون الكتاب الموجه إلي أبـي مسلم "أني قد بعثت إليك براية النصر ، فارجع من حيث ألقاك كتابي ، وأبعث

إلي قحطبة بما معك من أخبار يوافني بها في الموسم" فعاد أبو مسلم ومن معه من الدعـــاة وتوجهـــوا إلـــي خراسان فوصلوا عاصمتها مرو ليسلم الكتاب الثاني إلي ســليمان بن كثير، فلما قرأه سليمان وجد تعليمات الإمام إبراهيم بأن يظهر الدعوة ولا يتأخر في إظهارها، ففعلوا ما أمروا به ولبسوا السواد شعار العباسيين، ورفعوا الـــرايات، فاجتمعـــت عليهم أهالي قرية سفيذنج التي نزل عليها أبو مسلم، وأهالي القرى المحيطة بها وتم ذلك في الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٢٩ هـــ، ثم ما لبث أن تقاطر عليه الدعاة في جموع هائلة ممن انتظموا في الدعوة العباسية.

مارس أبو مسلم نشاطه كزعيم للخراسانيين وحين قوي أمره وصلب عوده وأصـــبحت لـــه العصـــبية من الخراسانيين استغل حديثا كان قد وجهه إليه الإمام إبراهـــيم حيث قال له : "يا عبد الرحمن : أنك رجل منا أهل البيت" فادعي أنه من ولـــد سليط بن عبدالله بن العباس وشجعه علي ذلك أن سليطا هذا كانت له جارية ادعى أبنها أنه من ولد عبدالله ابن عباس ولما توفي سليط نازع ابن الجارية ورثته فـــي المـــيراث ففرح بنو أمية، واتخذوا من هذا الموضوع وسيلة وسببا للتعريض بعلي ابن عبدالله بن العباس والحط من شأنه، وساعدوا ابن الجارية حتى قضي له قاضـــي دمشق بالميراث. ويبدو لي أن أبا مسلم أراد من انتسابه إلي العباسيين أن يضـــفي علي نفسه أصلا عربيا ويلحق نفسه بالنسب النبوي الشريف، حتي يكسب نفســـه الشـــرعية الواجبة في الحكم والخلافة، التي كان يطمع في الوصول إليها، خاصة بعد أن قوي نفوذه، وازداد سلطانه وأصبحت له الكلمة الأولي والأخيرة في خراســـان فاســـتغل التعبير الذي كان قد قاله الإمام إبراهيم له (أنك رجل منا أهل البيت) وزعم لنفسه هذا النسب.

يري بعض المؤرخون أن هذه الرواية التاريخية موضوعة، لأنه لاشك في أن أبـــا مسلم مولي فارسي الأصل، كانت مهمته العمل علي إسقاط الدولة العربية (الأموية) وأحياء الدولة الفارسية في ظل العباسيين. ويستدلون علي ذلك أن الخليفة

العباسي أبا جعفر المنصور حينما أراد أن يتخلص من أبي مسلم أخذ يعدد عليه أمورا ارتكبها، منها "وزعمت أنك من ولد سليط" وهذا يفسر لنا أن أبا مسلم اصطنع هذا النسب العربي لأغراض سياسية.

وعلي الرغم من وجاهة هذا الرأي، إلا أنني لا أريد مجاراة بعض المؤرخين فيما يقولون من أن هذه الرواية موضوعة، وافترض أنها صحيحة، وقد قالها الإمام إبراهيم لأبي مسلم،ولكن ينبغي النظر بإمعان وتفكر إلي معناها الشائع، والمناسبة التي قيلت فيها فمعناها لا يخرج عن مضمونها المعروف، وهو أن أبا مسلم أصبح ثقة عند الإمام إبراهيم، بعد ما أمضى لديه هذه المدة الطويلة في خدمته ولا يزال هذا التعبير شائعا في الشعوب العربية، يقوله الصديق للصديق تعبيرا عن شدة الألفة التي تربط بين الطرفين، بل يقال في كثير جدا من الأحايين للمربية أو الخادم التي أمضت مدة زمنية طويلة في بيت مخدومها للدلالة علي أنها أصبحت موضع ثقة الأسرة كما لو كانت عضوا فيها.

خطة الإمام إبراهيم في القضاء علي خصومه :

أخذت الدعوى العباسية في الانتشار بخراسان، وأراد الإمام إبراهيم أن يثبت أركانها ويحد من تجمعات المناهضين لها، فأرسل إلي أبي مسلم كتابا يشرح له فيه كيف يتخذ منهجه في القضاء علي منافسي الدعوة العباسية حيث قال : "... انظر إلي هذا الحي من اليمن فالزمهم، واسكن بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، واتهم ربيعة في أمرهم، وأما مضر فأنهم العدو القريب الدار، فاقتل من شككت فيه، وان استطعت ألا تدع لسانا عربيا في خراسان فافعل، وان أشكل عليك أمر فاكتف به مني". والدارس لمحتويات هذا الكتاب يقف بوضوح علي الحالة السياسية السيئة وتأجج نار العصبية بين المضرية واليمنية في خراسان، وسوف يعمد أبو مسلم إلي إشعال هذه النار وتأججها حتى يتم له سقوط دولة الأمويين، ونجاح دعوة العباسيين.

فـــي وســـط هـــذا الجو المشحون بالخلافات والفتن المتأججة بين اليمنية بـــزعامة أسد بن عبدالله القسري، الذي كان واليا علي خراسان من قبل الأمويين، والـــذي مال إلي اليمنية وأسند إليهم كل مناصب الولاية. فلما ولي نصر بن سيار أمـــر خراسان وكان مضريا عزل اليمنية واستعان بعصبته من المضريين. وكان نصـــر بن سيار والكرماني علي حالة من الصفاء والوفاق نظرا لأن الكرماني قد أحسن إلي نصر في ولاية أسد بن عبدالله القسري علي خراسان لأن الكرماني كان أشبه ما يكون برئيس المدينة في خراسان. فلما ولي نصر بن سيار عزل الكرماني عـــن منصـــبه لأخـــبار بلغته عنه، ثم أعاده، ثم عزله ثم أمر بحبسه. ولكن أتباع الكرماني أخرجوه من سجنه عن طريق فتحة نقبوها وفروا به هاربين.

موقف الكرماني من الدعوة للعباسيين :

قوي نفوذ أبي مسلم وازداد خطره وكان موقف الكرماني واتباعه بالنسبة له موقفـــا ســـلبيا فهم لا يكرهون أن يتحقق ما يدعو إليه أبو مسلم من إسقاط الخليفة الأمـــوي مروان بن محمد من الخلافة. فربما عاد عليهم هذا الأمر بأحسن مما هم فـــيه. وفي هذه الأثناء حاول نصر بن سيار أن يضم إليه شيبان الحروري الساعد الأيمن للكرماني، ولكنه أخفق في مسعاه. وكان أبو مسلم قد أرسل النضر بن نعيم الضبي - أحد أعوانه- إلي مدينة هراة، وكان عليها عيسي بن عقيل الليثي عاملا لنصـــر بن سيار، فطرده منها، وخرج عيسي مهزوما وتوجه إلي نصر بن سيار وأخبره.

خشـــي أتباع الكرماني علي أنفسهم أمام قوة أبي مسلم المطردة، فلجئوا إلي مصـــالحة نصـــر بن سيار وتوحدت كلمتهم للوقوف في وجه أبي مسلم. وعلم أبو مسلم بما حدث فعمل علي تفريق كلمة العرب ليسهل عليه ضربهم، والتغلب عليهم ونجـــح فـــي أن يخرج الكرماني وجموعا من أتباعه من الصف العربي، ويحدث فجوة كبيرة في الاتفاق الذي تم بين نصر بن سيار والكرماني وشيبان الحروري،

فقـد أرسل أبو مسلم إلي الكرماني من يذكره بما فعله نصر بن سيار بأبيه حيث قـتله وصـلبه، وقال له : "يقول لك أبو مسلم : أما تأنف أن تصالح نصرا وقتل بـالأمس أبـاك وصلبه، ما كنت أحسبك تجتمع مع نصر في مسجد تصليان فيه" فألهبـت الحفـيظة صدر الكرماني علي نصر، فانسلخ عنه وانضم إلي أبي مسلم الخراساني.

وهكـذا اسـتطاع أبو مسلم بمهارته، ودهائه أن يبث هذا الانقسام ويستغله لصالحه فاستمال اليمنية إليه، لضرب كل فريق بالآخر.

ضـرب أبو مسلم معسكره ظاهر مدينة مرو عاصمة خراسان وظل ثلاثة أشـهر نشـط فـي خلالهـا فجذب ألوف الموالي الخراسانيين حوله، وتمكن من الاستيلاء علي أجزاء من هذه البقاع دون أن يدخل في حرب مع خصومه.

نصر بن سيار يستمد مروان :

أحـس نصر بن سيار والي خراسان بمدي خطورة موقفه، وتغلغل الدعوة العباسـية فـي الـبلد التي يتولى أمرها، وكان نصر آخر الولاة المخلصين للدولة الأموية، فرأي أن يطلب العون من مروان بن محمد، ويشرح له الأمور فكتب إليه قوة أبي مسلم وكثرة جنده : وتخوفه أمام هذه الحشود الهائلة، وختم كتابه بالأبيات الآتية :

أري بين الرماد وميض جمر يوشك أن يكون له ضرام
فان لم يطفئها عقلاء قـوم يكون وقـودها جثث وهام
فان النار بالعودين تذكـي وان الحـرب أولها كـلام
اقول مـن التعجب ليت شعـري أأيقاظ أمية أم نيـام
فان يك قـومنا أضحوا نياما فقل قوموا فقد حان القيام

ولكــن مروان كان مشغولا بحروب الخوراج في العراق، وباخماد بعض الفتــن في الشام، فكتب الي نصر بن سيار يقول له : "ان الحاضر يري ما لا يري الغائب فاحسم أنت هذا الداء ظهر عندك".

وكذلك أرسل نصر بن سيار كتابا إلي يزيد بن عمر بن هبيرة، والي العراق مــن قبل الأمويين، يستمد منه العون والمساعدة ولكن يزيدا كام هو الآخر مشغولا بما لديه من فتن الخوراج. ولما تأكد أبو مسلم من قوته بعد تنظيم جيوشه، وتجهيز عســكره وتحصــين موقعه، أعد عدته وأرسل إلي نصر بن سيار كتابا جرح فيه مشــاعره وهدده بزوال ملك الأمويين في خراسان، وكبر علي نصر أن يتلقي من أبــي مســلم مثل هذا الكتاب : وأراد أن يكون رده عمليا، فأرسل جيشا لمحاربته ولكــن الجــيش أصيب بالهزيمة، ووقع قائده وهو مولي لنصر بن سيار، ويسمي يزيدا، وقع أسيرا بعد أن جرح فعامله أبو مسلم معاملة طيبة، ثم خيره البقاء عنده أو الذهاب إلي نصر، فاختار يزيد العودة إلي نصر، ولكن أبا مسلم أخذ عليه عهدا ألا يقــول عنه إلا ما رآه حقا، وكان أبو مسلم يري أن عودة يزيد فيها فائدة كبيرة لــه ولجــنوده لأنه سيرد عنهم أهل التقي والورع الذين كانوا يظنون أن أبا مسلم وجنوده من المجوس وأن حركتهم ضد الإسلام والمسلمين.

فــي هذه الأثناء أرسل الإمام إبراهيم قحطبة بن شبيب إلي أبي مسلم، وعقد له لواء فلما وصل إلي أبي مسلم جعله علي مقدمة الجيوش كلها، وجعل له العزل والاستعمال وكتب إلي الجنود بالسمع والطاعة له.

هزيمة نصر بن سيار :

لــم يلبــث أبو مسلم أن دفع الألوية السود إلي قواده، وأمرهم بالهجوم علي نصــر بــن سيار وجيشه، وأستعمل أبو مسلم دهاءه في هذه الحرب حتى لا يفقد الكثــير من جنوده فطلب من الكرماني أن يبدأ مع عساكره بالهجوم علي نصر بن ســيار ليبرهــن علــي صدق نواياه وإخلاصه في أنضمامه إلي أبي مسلم : ونفذ

الكرمانـــي مـــا طلب منه، ولما حمي وطيس القتال واشتدت وطأته علي الفريقين دخـــل أبو مسلم بجنوده مدينة مرو، وزحف علي دار الإمارة فدخلها يوم الخميس ١٠ جمادي الأولي سنة ١٣٠ هـ / ديسمبر سنة ٧٤٧م ، وهو يتلو الآية الكريمة **"ودخل المدينة علي حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه"**. ثم أمر كلا من الفريقين بالتوقف عن القتال، ودخول معسكره.

أحـس نصر بن سيار بالهزيمة السياسية والعسكرية بعد أن فشل في توحيد كلمـــة العرب،وضمهم جميعا في صفوفه للوقوف أمام خطر الموالي الجارف، فهو لـــم ينجح في ايقاظ الخليفة مروان بن محمد أمام تحركات أبي مسلم ولم ينجح في تحـــريك ابن هبيرة ليمد له يد العون والمساعدة، وها هو يتلقي مرارة الهزيمة أمام أتـــباع أبـــي مســلم، فكـــار ـه من الفرار، ففر وليس معه إلا ولده وزوجته، وحاجـــبه: والحكـــم بن نميلة ـميري فترك زوجته وولده تميما في قرية يقال لها النصرانية وهرب بنفسه، فوصل إلي قومس فنزلها ومنها اتجه إلي الري فأقام بها أيامـــا،ثم مرض مرضا شديدا فحمل إلي ساوه بالقرب من همذان حيث مات هناك ويقـــال أنه مات في الطريق وهو ذاهب إلي الري وكان في الخامسة والثمانين من عمره.

القضاء علي زعماء اليمنية :

اطمـــأن أبو مسلم إلي حد كبير إلي ما أحرزه من انتصار،فبدأ يتخلص من زعماء اليمنية الذين تحالفوا معه ويساعده ضد المضرية وحاربوا نصر بن سيار، قـــد أرسل عثمان شقيق الكرماني إلى بلخ ليكون عاملا عليها،ثم ما لبث أن أرسل رجلا من اتباعه يقال له أبو داود واسمه خالد بن ابراهيم ليقتل عثمان : وتم لأبي داود قـــتل عثمان وأصحابه جميعا، وكذلك قام أبو مسلم الخرساني بقتل الكرماني بعـــد أن لجـــأ إلي مكيدة ليتخلص بها من كل أعوانه والمقربين إليه حيث تظاهر بالرضـــا والامتـــنان لمساعدتهم الفعالة، وطلب من زعيمهم الكرماني ان يسمي له

خاصته ليوليهم أعمالا ويأمر لهم بجوائز وكساوي فلما سماهم الكرماني له قتلهم أبو مسلم ثم الكرماني معهم.

أخـذ أبـو مسلم يواصل زحفه حتى دانت له خراسان كلها، ثم أرسل إلي الإمام ابراهيم كتابا يخبره فيه نبأ انتصاراته، وما أصبح عليه الوضع في خراسان ولسـوء حـظ الإمـام إبراهيم وقع حامل هذا الخطاب في يد بعض اتباع الخليفة مـروان الذيـن دسهم في الطرقات ليقفوا علي خبر الانسان الذي يدبر هذه الفتن، ولـيعرفوا لصالح من تكون هذه الثورات وأحضر حامل الكتاب أمام مروان وهو مـرتاع، ولكـن مروان هدأ من روعه، ودفع إليه مالا كثيرا، وطلب إليه أن يسلم الكتاب إلي الامام إبراهيم وإلا يخبره بشئ مطلقا وأن يتلقي منه الرد ويأتي به إليه وفعل الرجل ذلك وتأمل مروان جواب إبراهيم إلي أبي مسلم، وكان بخط يده وفيه يأمـر أبـا مسـلم بالاجـتهاد والحيلة علي عدوه : وأن يقتل من يتشكك فيه توا بخراسان......... الخ

فكتـب مـروان مـن الجزيرة إلي عامله علي دمشق الوليد بن معاوية بن عبد الملك أن يكتب إلي عامل البلقاء ليسير إلي الحميمة، ويقبض علي إبراهيم بن محمـد بـن علي، ويشد وثاقه ويبعث به إليه في خيل كثيف، وتم فعلا ما أمر به مـروان في أول عام ١٣٢ هـ، وأودع الإمام إبراهيم السجن في حران، ولبث به حتى مات بالطاعون وقيل أنه مات مقتولا بلبن مسموم.

-شعر الأمام إبراهيم بقرب نهائية علي يد مروان، فعهد إلي أخيه أبي العباس عبدالله بن محمد بمواصلة السير بالدعوة، وعقد له الأمامة من بعده، وأمره بالمسير إلي الكوفة وأمر أهل بيته بالمسير معه ونصحهم بالسمع والطاعة له.

سار أبو العباس وفي صحبته أخوه أبو جعفر المنصور، وأعمامه عبدالله ابن محمـد : وداود بن عيسي، وصالح وإسماعيل وأخوتهما من أبناء علي وغيرهم، فقدمـوا الكوفـة فـي صفر سنة ١٣٢ هـ ، ونزلوا علي أبي سلمة الخلال، وهو

حفـــص بن سليمان السبيعي، القائم بأمر الدعوة لآل البيت في الكوفة، وكان يلقب وزيـــر آل محمـــد فأنزلهم أبو سلمة بدار الوليد بن سعد مولي بني هاشم في مكان يسمي (بني داود) وكتم أمرهم عن الناس والدعاة والقادة نحوا من الأربعين يوما.

في خلال هذه الفترة كانت الانتصارات التي أحرزها أبو مسلم الخراساني قد دفعـــته إلي تسيير جيوشه إلي العراق بقيادة قحطبة بن شبيب الطائي، وتمكنت هذه الجـــيوش من هزيمة يزيد بن عمر بن هبيرة حاكم الكوفة من قبل الأمويين ومعه القـــائد حوثـــرة بن سهيل الباهلي، وكان مروان أمد بن هبيرة به. وتقهقر يزيد بن هبـــيرة إلـــي جلولاء، ومنها إلي مكان في شرقي الفرات علي بعد ثلاثة وعشرين فرســـخا من الكوفة ووفاه حوثرة في جموع من الجند تقدر ما بين خمسة عشر ألفا وعشرين ألفا، وعبر قحطبة وجنوده النهر من مخاضة دلهم عليها إعرابي : ونزل فـــي مكـــان يقـــال له الجـــبارية ووزع الأرزاق علـــي جنوده ليدفعهم إلي القتال والاستبســـال فيه. وفي غسق الليل هاجم قحطبة خصمه ابن هبيرة في ليلة التاسع من المحرم سنة ١٣٢ هـــ، وأصيب ابن هبيرة ومن معه بالهزيمة، و اضطروا إلي الانسحاب فارين إلي واسط بينما لجأ حوثرة وأتباعه إلي قصر ابن هبيرة يحتمون فـــيه بعد أن تركه، وفي الصباح بحث جنود خراسان عن قائدهم قحطبة بن شبيب الطائي، ولكنهم وجدوه قتيلا علي حافة جدول من الماء، فدفنوه، وولوا ابنه الحسن بن قحطبة قائدا عليهم.

حـــاول حوثرة التصدي لجند خراسان، ولكنه فوجئ بجموع من أهل الكوفة بـــزعامة محمـــد بن خالد بن عبدالله القسري تعلن انضمامها إلي العباسيين وترفع الـــرايات السوداء شعارهم، فانهزم حوثرة واضطر إلي الرحيل ليلحق بابن هبيرة في واسط.

دخل الحسن بن قحطبة وجنده إلي الكوفة وأخذ يسأل عن أبي سلمة الخلال حتى دل عليه، فبايعوه بالإمارة علي الكوفة، ولكنه استعمل محمد ابن خالد القسري

علـيها : وهكذا أصبح أبو سلمة الخلال واليا علي الكوفة لمركزه وجهاده وماله الــذي أنفق معظمه علي الدعوة لآل البيت، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الكوفة ملتقي جـيوش الدعـوة العباسية المنتصرة والزاحفة من خراسان، والداعية لآل البيت، ومركزا لآل البيت العباسي أنفسهم الفارين من الحميمة هربا بحياتهم، بعدما عرف الخليفة الأموي مروان سر الدعوة التي كانوا يبثونها سرا تحت ستار الرضا من آل البيت، واتجاهاتهم نحو إقامة دولة جديدة تنسب إليهم.

وصــلت جيوش خراسان إلي الكوفة وهي لا تعلم عن وصول بني العباس إلــيها، وعلــي الرغم من المواقف العديدة لأبي سلمة الخلال في نصرة الهاشميين ونشــر دعوتهم، وتنقلاته الكثيرة إلي خراسان، والاشراف علي سير الدعوة هناك، إلا أنه تصرف مع بني العباس تصرفا غامضا حين أخفاهم عن أعين الناس ومنع الاتصال بهم : ولم يعطهم ما طلبوه من مال قليل (مائة دينار) ليدفعوه أجرا للجمال الــذي نقلهم إلي الكوفة، مما جعل جمهرة من المؤرخين يعتبرون عمله هذا تعثرا وزلة، وإن كان البعض ينظر إلي هذا العمل بأنه خيانة للعباسيين الذين اطمأنوا إليه وأسلموا إليه قيادهم، ويبدوا لي أن الأمر اختلط عليه لأن الدعوة كانت توجه تحت شــعار الرضــا مــن آل بيت النبي، وأن أبا سلمة الخلال أراد أن يكون له فضل اختــيار الخليفة من العلويين لاعتقاده فيما كانوا يقولون بأحقيتهم في الخلافة لأنهم آل بيت النبي صلي الله عليه وسلم.

ونتيجة لهذا الاعتقاد، ولهذا الحماس، ولهذا الحرص علي أن يكون له فضل اختــيار الخلــيفة، كتب إلي ثلاثة من كبار رجال العلويين هم : جعفر الصادق : وعبدالله بن الحسن بن علي، وعمر بن زين العابدين، وكان أبو سلمة الخلال يأمل ان يســتجيب له أحدهم بقبول الخلافة علي يديه ولكنهم رفضوا جميعا تشككا فيه، وكان من الممكن أن يواصل أبو سلمة الخلال كتاباته إلي غيرهم حتي يستجيب له أحــد الراغبين في الخلافة من البيت العلوي، لولا أن الظروف كشفت ما أضمره

حين التقي أحد قادة الجيش الخراساني وهو أبو حميد محمد بن إبراهيم السمرقندي بغــلام اسمه سابق الخوارزمي، كان قد بعث به هدية من هؤلاء القادة إلي الإمام إبراهيم ليقوم علي خدمته، وقص الغلام علي أبي حميد مقتل الإمام إبراهيم علي يد مروان بن محمد، وأنه قد أوصى إلي أخيه أبي العباس واستخلفه من بعده، وأن أبا العــباس قدم الكوفة مع أهل بيته، وأنه جاء معهم، وأراد أبو حميد السمرقندي أن يتأكد من هذه الأخبار، فتوجه مع هذا الغلام إلي حيث يسكن العباسيون فدخل عليهم في غيبة أبي سلمة الخلال : وعزاهم في وفاة الإمام إبراهيم ثم سأل عن عبدالله بن محمــد بــن الحارثية، فأشاروا له علي أبي العباس فسلم عليه بالخلافة، وقبل يده ورجلــه وبايعه، ثم خرج فأعلم زملاءه القواد المعسكرين بظاهر الكوفة، في مكان يسمي حمام أعين، فأجمعوا علي الذهاب إلي أبي العباس ومبايعته، فلما عرف أبو ســلمة الخلال بهذه الأخبار ذهب مسرعا مع بعض أتباعه إلي أبي العباس، ولكن القادة الخراسانيين كانوا قد سبقوه وأعطو بيعتهم إلي أبي العباس بالخلافة، وأحاطوا بــه كحاشية له، وبذلك قوي مركزه، وفي هذه الأثناء وصل أبو سلمة الخلال بمن معــه من الأتباع وأراد الدخول علي أبي العباس فمنع من ذلك : حتى يأذن الخليفة لــه، ولكن أبا العباس لم يسمح له بالدخول عليه إلا منفردا، ولما دخل عنده أسمعه مــا يكره وأنكر بعض أصحابه عليه هذا الصنيع خاصة وأنهم كانوا يدعونه وزير آل محمد صلي الله عليه وسلم وحاول أبو سلمة الاعتذار عما بدر منه، فقبل يد أبي العــباس ورجلــيه وأخذ يكرر الاعتذار، وكان من الطبيعي ألا يخسر أبو العباس رجــلا مثل أبي سلمة كان له مواقفه في خدمة الدعوة بجهده وماله وفكره، وليس مــن المعقــول أن يبدأ حكمه باظهار مثل هذا الاختلاف بينه وبين وزير آل البيت فــتظاهر بقــبول الاعتذار، وقال له : "عذرناك يا أبا سلمة غير مفند، وحقك لدينا معظم، وسابقتك في دولتنا مشكورة وزلتك مغفورة، انصرف إلي معمسكرك حتى لا يدخله خلل".

والحقيقة أن أبا العباس تظاهر بهذا العفو، لأنه كان لا يزال في حاجة إلي مساعدة أبي سلمة الخلال وتأييده، ولكنه سوف ينتهز الفرصة بعد ذلك لكي يتخلص مــنه فبعد ما بايعه الناس بالخلافة، واستقرت له أمورها، أراد أن يتخلص من أبي ســلمة باعتباره خائنا أراد أن يبدد جهد بني العباس وآمالهم في الخلافة ولكن عمه داود بــن علــي راجعه في ذلك وقال له : "إن فعلت ذلك فربما استوحش منك أبو مسلم، والأفضل أن تكتب إليه تعرفه ما كان من أبي سلمة". فكتب أبو العباس لأبي مســلم بما حدث وختم الكتاب بقوله : "انني قد وهبت جرمه لك" فلما قرأ أبو مسلم الكــتاب فطــن إلي غرض أبي العباس، فأرسل بضع نفر من أتباعه علي رأسهم المرار بن أنس الضبي ليقتلوا أبا سلمة الخلال. ويبدو أن أبا العباس أراد أن ينفض يديه من هذه الفعلة فبعث من يعلم الناس في الكوفة أن أمير المؤمنين قد رضي عن أبــى ســلمة الخلال، ثم دعاه قبل مقتله بيوم واحد حيث أكرمه، وسهر معه وخلع علــيه، وعند انصراف أبي سلمة الخلال إلي داره في جوف الليل اعترضه المرار الضــبي ورجالــه فقتلوه، ولم يدر بهم أحد، وأشاعوا أن الخوارج قتلوا أبا سلمة، وقاموا بدفنه في الهاشمية في رجب سنة ١٣٢ هـــ.

الفصل الأول

(خلفـــاء العصـــر العباســـي الأول)

١٣٢ - ٢٣٢ هـ / ٧٥٠ - ٨٤٧ م

١- أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي ١٣٢ -١٣٦ هـ/٧٥٠ - ٧٥٤م

٢- أبو جعفر المنصور ١٣٦ - ١٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م

٣- محمد المهدي ١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م

٤- موسى الهادي بن المهدي ١٦٩ - ١٧٠ هـ / ٧٨٥ - ٧٨٦م

٥- هارون الرشيد ١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م

٦- محمد الأمين ١٩٣ - ١٩٨ هـ / ٨٠٩ - ٨١٣م

٧- عبدالله المأمون ١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م

٨- محمد المعتصم ٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م

٩- هارون الواثق بالله ٢٢٧ - ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ - ٨٤٧م

قيـام الـدولـة العبـاسيـة

أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس

(١٣٢ - ١٣٦ هـ / ٧٥٠ - ٧٥٥م)

أول خلفاء بني العباس ولد بالحميمة في ربيع الآخر سنة ١٠٤ هـ/٧٢١ م علي أرجح الآراء، بويع بالخلافة في صباح يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ بمسجد الكوفة. وهناك تشابه في الأسماء بينه وبين عمه عبدالله بن علي مما جعل بعض المؤرخين يطلقون عليه اسم عبدالله الأصغر، وعلي عمه عبدالله الأكبر.

بعدما تلقي البيعة من جموع أهل الكوفة ألقي خطبته المشهورة التي بين فيها أهداف الدولة العباسية، وأحقية بني العباس في الخلافة، وعرض ببني أمية تعريضا جارحا، ثم أشاد بأهل الكوفة وقال : "يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح". يميل كثير من المؤرخين إلي تلقيب أبي العباس باسم (السفاح) نظرا للجملة التي ختم بها خطبته، ولقد ثار جدل علمي لطيف بين المرحومين الأستاذ أحمد أمين، والأستاذ عبد المجيد العبادي حول لقب (السفاح) هل ينسب إلي أبي العباس، أم ينسب إلي عمه عبدالله بن علي، وكان من رأي استاذنا العبادي أن أبا العباس برئ من هذا الاتهام. وأن عمه عبدالله هو صاحب هذا اللقب واستند في رأيه علي أدلة متعددة نذكر منها :

١- لم يرد بالنصوص التريخية الموثوق بها والتي يستعمل أصحابها طريقة الاسناد مثل الطبري، واليعقوبي، والبلاذري اسم أبى العباس مقرونا بلقب السفاح، وقد نجد هذا اللقب أحيانا في فهارس هذه الكتب أو في بعض العناوين ولكن هذا من صنع الناشرين والناسخين بدون شك.

٢- يذكر ابن قتيبه الدينوري صراحة في كتابه "الإمامة والسياسة" أن السفاح هو عبدالله بن علي والمعروف أن ابن قتيبة من مؤرخي القرن الثالث الهجري الثقات.

٣- كتاب أخبار مجموعة في فتح الأندلس "مؤلفه مجهول" من الكتب القيمة، ويعتمد عليه المؤرخون المحدثون في تاريخ الفترة الأولي من حكم المسلمين في الأندلس، هذا الكتاب يشير بوضوح إلي أن السفاح هو عبدالله بن علي وليس الخليفة "أبو العباس"، يقول صاحب الكتاب : "وقتل مروان في مصر، فسير برأسه إلي السفاح في الشام، ثم سير برأسه إلي أبي العباس" ... ثم يقول : "وأخذ السفاح يمثل بأهالي الشام فقتل النساء والصبيان".

٤- الكتب التي نسبت لقب السفاح إلي أبي العباس مثل : كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وكتاب مروج الذهب للمسعودي وغيرهما هي كتب يقصد بها جمع الأخبار والروايات الطريفة التي يستمتع القارئ بقراءتها دون النظر إلي التحقيق العلمي الصحيح. وربما نسب بعض المؤرخين لقب السفاح إلي الخليفة أبي العباس لأنه هو المسئول عما يقع في عهده من أحداث، أو ربما يكون التباسا حدث من جراء تشابه الأسماء.

٥- الأخبار التي ذكرتها المراجع التاريخية عن أبي العباس تدل علي أنه كان شخصية متصفة بكثير من صفات الخير، مثل اللين والوداعة والتؤدة والعفة، أراد خالد بن صفوان أن يزوجه علي امرأته أم سلمة، وكانت

عجوزا، فأبى وتعفف، ولم يتخذ عليها جارية يتسرى بها مثلما كان شائعا فـــي ذلـــك الوقت، وهذا وفاء نادر في تلك الفترة. ثم أن أبا العباس اختير للخلافة لا لأنه سفاح مستبد، وإنما لحسن شمائله التي تجذب حوله القلوب، ولهذا قدم إلي الخلافة علي أخيه أبي جعفر المنصور وكان المنصور أكبر منه سناً ولكنه كان موصوفا بالشدة والبطش.

علـــي أن بعـــض الآراء ترجع إلي المعني اللغوي للفظ (السفاح) حيث يدل علـــي كـــثرة الهبات والعطايا والمنح، فقد أورد الأستاذ Bevan ترجمة هذا اللفظ (الســفاح) بمعنـــي كثـــير العطـــاء وعنه نقل الأستاذ Nicholson ومع ذلك فقد شـــاع اســـتعمال هـــذا اللفظ في الكتابات الأوربية بمعني سفك الدماء، ولكن قليلا مـــن المستشـــرقين المعتدلين لا يزالون يشكون في هذا المعني الأخير، نذكر منهم De Goje الـــذي يمـــيل إلي هذا الرأي ويترجمه بمعني Munificent أي كثير العطايـــا والمنح ويقال أن سلمة بن خالد الذي قاد بني تغلب في موقعة بني كلاب الأولـــي سمي السفاح، لأنه أفرغ زاد جيشه قبيل الموقعة. والحقيقة أن أبا العباس بعيد عن هذا الوصف السئ الذي شاع خطأ عنه، وكل ما يؤخذ عليه أنه وافق علي قـــتل أبي سلمة الخلال نقيب دعاة العباسيين في الكوفة، أو حرض عليه، وأن كان البعض يلتمس له العذر في ذلك بينما البعض الآخر يقول أن هذه كانت رغبة أبي مسلم الخراساني.

ومهمـــا يكـــون مـــن احتلاف الآراء حول أبي العباس فقد أعلن قيام الدولة العباسية وأصبح هو أول خلفائها وكان عليه أن يواجه قوتين لهما خطرهما الأول تتمـــثل في مروان بن محمد أخر خلفاء بني أمية وكان موجودا بالجزيرة، والثانية تتمثل في يزيد بن هبيرة الذي اتخذ من مدينة واسط مقرا له بعد نزوحه من الكوفة. وكان من الطبيعي أن يتجه العباسيون أولا إلي القضاء علي الدولة الأموية، وإزاحة

مروان حتي تتدعم أركان دولتهم الجديدة وتستقر لهم الأمور بإعلان زوال الخلافة الأموية.

القضاء علي الدولة الأموية :

أرسـل الخليفة أبو العباس جيشا كبيرا بقيادة عمه عبدالله بن علي، للقضاء علي مروان بن محمد، وكان مروان قد جهز جيشه الذي بلغ تعداده مائة وعشرين ألـف جندي، وفي صبيحة اليوم الثالث من جمادي الآخر سنة ١٣٢ هـ سأل قائد جـيش العباسيين عبدالله بن علي عن مخاضه في نهر الزاب الأعلي، فدله البعض علـيها، ومـنها عبرت النهر جيوش بني العباس يدفعها النصر الذي أحرزته في خراسـان والعـراق من قبل، وتسيطر روح معنوية عالية علي الجنود، بينما علي النقـيض مـن ذلك كانت حال الجيش الأموي الذي انهارت روحه المعنوية، وفقد جـنوده السـيطرة علي أنفسهم أمام الهزائم المتوالية التي أصيبوا بها، لدرجة أن ضـعف أيمـان مدنهـم بالصمود والتمسك بما في أيديهم من مدن وأصقاع، رغم الأعداد الهائلة والعدة الوفيرة في السلاح.

وفـي صـباح يوم السبت ١٢ جمادي الآخر ألتقي الجيشان، ودارت رحى الحـرب بيـن الجنود، وسرعان ما أصابت الهزيمة جيش مروان بعد أن تبعثرت جـنوده، وتخلخلـت صفوفه، ولم يقو علي الثبات أمام الجيش العباسي، وأصبحت موقعة نهر الزاب موقعة فاصلة في تاريخ الدولة الأموية حيث فتحت أبواب الشام بعدهـا أمام الدولة العباسية الناشئة، وأخذت المدن الشامية موئل بني أمية ومركز تجمعهـم تسقط الواحدة بعد الأخرى في أيدي العباسيين. فقد أنسحب مروان بفلول جيشه إلي الموصل، وتتبعه عبدالله بن علي بجيش العباسيين، ولم يجد مروان أهل البصـرة تعضـيدا أو ترحيبا، فاضطر إلي مواصلة انسحابه أو فراره إلي حران، ولحق عبدالله بن علي وجيشه بالأمويين ودخل حران فاستسلم عاملها أبان بن يزيد ابن محمد بن مروان – ابن اخي الخليفة وزوج ابنته – ودخل في طاعة العباسيين

ولـــيس شعارهم، فأمنه عبدالله علي حياته وحياة أهل حران وأهل الجزيرة. سار مـــروان إلي حمص فأعانه أهلها في أول الأمر، ومكث بها ثلاثة أيام، ولكن رأوه مـــنهزما ثاروا عليه، ووقفوا في وجهه ولكن مروان تمكن من إخضاعهم، ثم اتجه بعد ذلك إلي دمشق وكان عليها الوليد بن معاوية بن مروان، وهو زوج ابنته كذلك فأبقاه، وأمره أن يقاتل العباسيين وأن يجمع عليه أهل الشام. وتقدم الجيش العباسي المنتصر وحاصر دمشق حتى سقطت في يده، ودخلها جنود العباسيين عنوة يوم ٦ رمضـــان ١٣٢ هـــ وقتلوا أعدادا كثيرة من أهلها، وكان عاملها الوليد بن معاوية مـــن ضـــمن القتلي، وأمر عبدالله بن علي بهدم سور المدينة حتى لا يتحصن أهل الشام بداخلها.

واصـــل الخليفة الأموي مروان بن محمد تقهقره إلي الجنود حتى نزل نهر أبي فطرس بفلسطين، واستجار بعبدالله بن يزيد الخزاعي فأجاره، وفي هذه الأثناء وصـــلت أوامر الخليفة العباسي أبي العباس إلي عمه عبدالله ملاحقة مروان وعدم تـــركه يستقر في مكان خشية أن يقوي ويستعيد تنظيم صفوفه ويعاود الهجوم علي جـــيش العباسيين. وفي سبيل تحقيق ذلك أمده بجموع من الجند علي رأسهم عمه الثاني صالح بن علي، الذي تركت له قيادة الجيش للقيام بهذه المهمة، ومعني ذلك أن عبدالله بن علي سوف يبقي في دمشق يدبر شئونها واليا عليها من جانب الدولة العباسية.

ســـار القائد الجديد صالح بن علي بالجيش حتى وصل إلي فلسطين، ومنها انحـــدر نحو العريش التي كان مروان بن محمد قد وصل إليها من قبل، فلما أحس بملاحقة العباسيين له، واصل السير هربا حتى وصل إلي جنوب مصر، ونزل في قـــرية بوصـــير وعـــندها أدركـــه الجيش العباسي وفي ظلام الليل هجمت جنود العباســـيين علي مروان والقلة القليلة التي معه فأفنوهم وقتلوهم عن آخرهم، وكان ذلـــك فـــي اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجة سنة ١٣٢ هـــ. ثم قطعت رأسه

وحملهـا يـزيد بـن هانئ إلي عبدالله بن علي في دمشق فبعث بها إلي الخليفة العباسـي أبـي العباسي بالكوفة، فلما وضعت أمامه سجد لله ثم رفع رأسه وقال : "الحمـدلله الـذي أظهرني عليك، وأظفرني بك، ولم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك أعـداء الديـن". وبذلك يكون أبو العباس قد نجح في إسقاط الدولة الأموية وقضي عليها، وتخلص من العقبة الكبري التي كانت تعترض استقرار دولته ولم يبق أمامه سوي العقبة الثانية متمثلة في ابن هبيرة.

القضاء علي يزيد ابن هبيرة في واسط :

كـان يـزيد بن عمر بن هبيرة قائدا مغوارا، وبطلا محاربا لا يستهان به، اتصـف بالشـجاعة والإقدام، وصلابة الرأي والتمسك به متي ظن أنه علي حق، جمـع الكوفـة والبصـرة تحت حكمه، وحينما دخلت جنود أبي مسلم الخراساني العراق، واضطر يزيد إلي الانسحاب نصحه مستشاروه والمقربون إليه من أتباعه بألا يدخل مدينة واسط حتى لا يصبح محاصرا من جيش العباسيين وقالوا له : "... وإيـاك وواسط، فتصير في حصار، وليس بعد الحصار إلا القتل". وأشاروا عليه بأن يضرب معسكره علي الفرات حتى يأتي إليه مروان بن محمد وجنوده، وتتجمع قـوي الأمويـين لمواجهـة العباسيين ولكنه أصر علي رأيه خشية علي نفسه من مـروان، الـذي كـان يبعث إليه بالأوامر والتعليمات فكان يزيد لا يعمل بها ولا ينفذها. ولهذا اضطر يزيد إلي دخول واسط والتحصن بها : وحدث ما كان متوقعا فقـد ضـرب الجيش العباسي عليه وعلي أتباعه الحصار داخل واسط أحد عشر شهرا، لم ينشب خلالها بين الجانبين إلا مناوشات حربية، وقد عبر ابن الأثير عن هـذا الوضع بقوله : "... ورجع أهل الشام - يقصد الأمويين - فكر عليهم الحسن بـن قحطبة بن شبيب الطائي - قائد جند العباسيين - واضطرهم إلي دجلة فغرق مـنهم نـاس كثير، فقتلوهم بالسفن وتحاجزوا، فمكثوا سبعة أيام ثم خرجوا إليهم

فاقتـــتلوا وانهـــزم أهـــل الشام هزيمة قبيحة، فدخلوا المدينة فمكثوا ما شاء الله لا يقاتلون إلا رميا".

ويبدو أن غيلان بن عبدالله الخزاعي أحد قواد الجنود العباسيين، كان واجدا علي قائده للحسن بن قحطبة، فطلب من الخليفة العباسي أبي العباس أن يرسل إليهم رجلا من أهل بيته، فأجابه أبو العباس : أو ليس عليكم رجل من أهل بيتي، الحسن ابن قحطبة ! قال غيلان : يا أمير المؤمنين ! من علينا برجل من أهل بيتك ننظر إلـــي وجهـــه، وتقر أعيننا به : فقال أبو العباس : نعم يا غيلان. فأرسل أخاه أبا جعفـــر المنصـــور ليتولى أمارة الجيش العباسي، الذي كان تحت قيادة الحسن بن قحطبة، ويشارك في قتال ابن هبيرة في واسط وكتب إلي الحسن بن قحطبة : "أن العسكر عسكرك والقواد قوادك ولكن أحببت أن يكون أخي حاضرا فاسمع له وأطع وأحســـن مؤازرتـــه" وكتب إلي مالك بن الهيثم بمثل ذلك وكان مالك قد أتي علي رأس جـــيش من سجستان مؤازرة للحسن بن قحطبة، فلما قدم أبو جعفر المنصور إلي واسط أنزله الحسن بن قحطبة في خيمته، ويظل هو المدبر لشئون هذا الجيش - ولكنه كان يتلقى أوامره من أبي جعفر المنصور.

طالـــت مـــدة الحصار ويئس يزيد بن عمر بن هبيرة من إحراز نصر علي العباســـيين الذين تزايدت قوتهم، خاصة وأن إسماعيل بن عبدالله القسري حمل إلي ابن هبيرة خبر مقتل الخليفة الأموي مروان، وزوال الدولة الأموية، وقال لمن في واســـط : "علام تقتلون أنفسكم وقد قتل مروان" فبدأ أصحاب ابن هبيرة يختلفون معـــه، وتفرقت كلمتهم. فاليمانية لا تريد الحرب خاصة بعد الذي أصابها علي يد مـــروان بن محمد قبل مقتله. والنزارية لا تريد الحرب إلا إذا قاتلت اليمنية معها. وأنـــتهز الخليفة العباسي أبو العباس فرصة هذا الخلاف وتمكن من ضم اليمانية، وهـــم أصـــحاب ابن هبيرة وأتباعه إلي جانبه، فأعطاهم عهده ووعدهم وأطعمهم. ومـــن ناحـــية أخري أدرك أبو جعفر المنصور مدي الاضطراب الذي أصاب ابن

هبـــيرة، ولكنه كان يعرف جيدا أن ابن هبيرة لديه من قوةُ الإرادة وصلابة الرأي ما يمكنه من الصمود وإطالة مدة الحصار فلجأ إلي المساومة الدبلوماسية، وجرت بينه وبين ابن هبيرة – عن طريق سفراء له – محادثات للصلح، وكتب المنصور لابــن هبــيرة كــتاب أمان،ولكــنه كان متشككا، فأخذ يشاور فيه العلماء والفقهاء والمقربين إليه أربعين يوما حتى رضيه وأرسل بموافقته علي هذا الأمان إلي أبي جعفــر المنصـــور، فأرسله أبو جعفر إلي أخيه أبي العباس فأمر بتوقيعه وختمه، وهذه فقرات من نص هذا الأمان.

"بســم الله الرحمن الرحيم ... هذا كتاب من عبدالله بن محمد بن علي، ولي أمر المسلمين، ليزيد بن هبيرة ومن معه من أهل الشام والعراق وغيرهم في مدينة واســط وأراضيها من المسلمين والمعاهدين، أني أمنتكم بأمان الله الذي لا إله إلا هو، الذي يعلم سرائر العباد، ويعلم ما تخفي الصدور، وإليه الأمر كله أمانا صادقا لا يشوبه غش ولا يخالطه باطل علي أنفسكم وذريتكم وأموالكم وأعطيت يزيد بن هبيرة ومن أمنته في أعلي كتابي هذا الوفاء بما جعلت لهم من عهد الله وميثاقه ... عهــدا خالصًا مؤكدا ... وأعطيتك ما جعلت لك من هذه العهود والمواثيق، ولمن معــك من المسلمين وأهل الذمة، بعد استئماري فيما جعلت لك منه أمير المؤمنين، أعــو الله نصـــره، فأمر بانفاذه لكم، فاطمئن إلي ما جعلت لك من الأمان والعهود والمواثــيق، وثق بالله وبأمير المؤمنين فيما سلم منه ورضي به، وجعلته لك ولمن معك علي نفسي، ولك علي الوفاء بهذه العهود والمواثيق ... وجعلت لك الا تري منـــي انقباضـــا، ولا مجانـــية ولا أزورارا، ولا شيئا تكرهه في دخولك علي إلي مفارقتك إياي ولا ينال أحد معك أمرا يكرهه، وأذنت لك ولهم في المسير والمقام، وجعلت لهم أمانا صحيحا ...".

وضـــعت الحـــرب أوزارهـــا بين الفريقين، والتزم أبو جعفر المنصور بما أعطـــاه لابـــن هبيرة من مواثيق، وخرج الأخير إلي أبي جعفر المنصور في ألف

وثلاثمائـــة مـــن اتباعه وكان راكبا دابته، فقابله سلام بن سليم حاجب أبي جعفر، مرحـــبا بـــه، وأمـــره بالنزول في لطف، وسمح له بالدخول وحده، فجلس عند أبي جعفـــر ساعة ثم أنصرف، وأخذ يتردد عليه يوما بعد يوم، وكان يأتيه في خمسمائة فـــارس وثلاثمائـــة راجـــل، فقـــال يزيد بن حاتم لأبي جعفر : أن ابن هبيرة ليأتي فيتضعضـــع له العســـكر، وما نقص من سلطانه شئ، فأمره أبو جعفر إلا يأتي في حاشيته، فكان يأتي في ثلاثين ثم أصبح يأتي في ثلاثة أو أربعة.

دامت الأحوال بين الطرفين علي هذا المنوال مدة من الزمن، حتى وثق كل مـــنهما بالآخر لدرجة أن أبا جعفر المنصور أمر برفع الستر بينه وبين ابن هبيرة واطمـــأن إليه وكان يقول لاصحابه : "عجبا لمن يأمرني بقتل مثل هذا". والواقع أن أبا جعفر كان راغبا في الالتزام بعهده ومواثيقه التي أعطاها لأبن هبيرة لولا تدخل أبـــي مســـلم الخراســـاني. فمن المعروف أن أبا العباس كان لا يتخذ قرارا إلا بعد الـــرجوع إلـــي أبي مسلم، وكان قد كتب إليه يخبره بأمر ابن هبيرة والأمان الذي أعطـــاه له، فكتب أبو مسلم إلي أبي العباس يقول "إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجـــارة فسد لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة". فكتب أبو العباس إلي أخيه أبي جعفر يأمره فيه بقتل ابن هبيرة، فأبى أبو جعفر أن يقدم علي هذا الأمر وكتب لأخـــيه يقـــول : لا أفعل وله في عنقي بيعة وإيمان. فكتب إليه أبو العباس يقول : "والله لتقتلـــنه أو لأبعثن إليه من يخرجه من حجرتك ثم يتولي قتله". وعندئذ اضطر المنصـــور إلـــي تنفيذ أوامر أبي العباس وتلمس لابن هبيرة خطأ بسيطا أوقعه فيه ســـوء حظه حينما كان يتحدث إليه، حيث قال للمنصور : يا هذا، وكانت ذلة لسان تعـــود عليها في أحاديثه مع أتباعه ومرءوسيه في الكوفة، وتدارك ابن هبيرة الأمر لتوه،وأســـرع يعتذر للمنصور عن هفوة اللسان، ولكنه اتخذها حجة وذريعة، ودبر لابن هبيرة مؤامرة ليتخلص منه.

بعث ابو جعفر المنصور رجلين من خاصته هما الهيثم بن شعبة بن ظهير، وخـازم بـن خزيمة، وأمرهما بختم بيوت الأموال في واسط (أي مصادرتها) : ثم بعـث إلي كبار أتباع ابن هبيرة من القيسية والمضرية فأحضرهم، فأقبل محمد بن نـباته، وحوثـرة بـن سـهيل في اثنين وعشرين رجلا، فخرج حاجب أبي جعفر المنصـور (سلام بن سليم) واستدعى ابن نباته، وحوثرة، فأدخلا حجرة دون حجرة أبي جعفر بها بعض خواصه ومائة من رجاله فلما دخل ابن نباته وحوثرة، نزعت سيوفهما منهما ثم كتفا. وظل الحاجب يستدعي رجلين رجلين يفعل بهما ذلك : فقال بعضـهم : أعطيـتمونا عهـد الله ثم غدرتم بنا، أنا لنرجوا أن يدرككم الله ثم قتل الجميع غدرا.

بعث أبو جعفر المنصور هؤلاء الرجال، الذين نفذوا أوامره وقتلوا ابن نباتة وحوثـرة ومـن معهما، بعثهم إلي يزيد بن هبيرة ليحملوا ما عنده من أموال، فقال ابـن هبـيرة لحاجبه : دلهم علي الخزائن ! وبدلا من أن يتجه الرجال مع الحاجب إلـي خزائـن بيت المال، أخذوا يتلفتون ذات اليمين وذات الشمال ليتأكدوا من عدم وجـود مـن يدافع عن ابن هبيرة، وعرف المسكين نية الغدر التي بينها له القوم، وكـان معه ابنه داود، وبعض من مواليه، وابن صغير له يجلس في حجره، واتجه هـؤلاء الـرجال بشراستهم نحوه، فتصدي حاجبه لهم، فضربوه بضربة واحدة ثم قـتلوا ابـنه داود وأقـبلوا نحوه، فقال لهم : دونكم هذا الصبي ونحاه جانبا ثم خر سـاجدا فقـتلوه فـي سـجوده، ثم قطعت رؤوسهم جميعا، وحملت إلي أبي جعفر المنصـور وبذلـك تمكـن العباسيون من إزاحة العقبة الثانية والأخيرة من طريق استقرار دولتهم بعد قيامها.

موقف أبي العباس من بقية الأمويين :

رأي أبـو العـباس أنه لا يقر لدولته قرار إلا إذا أتى علي من بقى من بني أمـية ومن ناصرهم وتشيع لهم،فسار علي سياسة الانتقام والأخذ بالثأر دون هوادة

أو مال،وفــي سـبيل ذلك لجأ الخليفة أبو العباس إلي الحيلة والخديعة فأعلن عفوا عامــا عــن الأمويين،ونادي لهم بالأمان،وخدع الأمويين بهذا الأمان، وظهروا من أماكنهم التي أختبئوا فيها وتواروا عن الأنظار. ولكن أبا العباس لم يلبث أن أنقض علــيهم ونكل بهم وقتلهم في كل مكان وجدوا به، فقد تعدت حوادث القتل هذه مدن الشـــام والعــراق إلي مكة المكرمة والمدينة المنورة. وانتهز كثير من الشعراء هذه الفرصـــة واغتــنموها للتكسب الرخيص: فحرضوا الخليفة أبا العباس علي القسوة والعــنف ضد بني أمية، لينالوا رضاه ويكون لهم حظوة عنده، فكثرت قتلاهم بشكل واضـــح، لدرجـــة أن بعــض المورخين أفردوا فصولا في مؤلفاتهم بأسماء هؤلاء القتلـــي وكيفـــية قتلهم. يروي ابن الأثير أن مولي أبي العباس (خذيفا الشاعر) دخل علــيه وكان في حضرته سليمان بن هشام بن عبد الملك الأموي وقد أكرمه فأنشد يقول :

لا يغرنك ما تري من رجاح ان تحت الضلـــوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى لا تري فوق ظهرها أمويا

فقـــال ســـليمان : قتلتني أيها الشيخ وفعلا أمر أبو العباس بقتله فقتل. ودخل شاعر أخر هو شبل بن عبدالله مولي بني هاشم عند عبدالله بن علي فوجد نحوا من تســـعين رجلا من بني أمية قد جلسوا إلي الطعام، فقال شبل أبياتا من الشعر ختمها بقوله :

واذكروا مصرع الحسين وزيدا وقتيلا بجانب المهراس

والقتيل الذي بحران أضحى ثاويا بين غـــربة وتناس

فغلـــي الدم في عروق عبدالله، وهاجت مشاعر الغضب والحقد في صدره، فأمـــر بضـــربهم حـــتى قـــتلوا جميعا، فبسط عليهم الفرش، وأخذ يأكل وهو يسمع حشرجة الموت في صدور بعضهم حتى خمدت أنفاسهم جميعا.

ولـم يكـتف الخليفة أبو العباس بقتل الأحياء من الأمويين والتنكيل بهم بل أمر بنبش قبور موتاهم في دمشق، فنبش قبر معاوية بن أبي سفيان، وقبر يزيد ابنه وقـبر عـبد الملك بن مروان، وقبر هشام ابنه، ومثل برفات بعضها، ولم يسلم من هذه القبور سوى قبر عمر بن عبد العزيز لحسن سيرته، وشيوع عدله.

كان من الطبيعي وقد زالت العقبتان الأساسيتان من طريق دولة بني العباس أن توضـع مقالـيد الحكـم في الإمارات والأقاليم في أيدي أفراد من بني العباس أنفسـهم، حتى يضمن الخليفة أبو العباس عدم قيام جبهة معارضة ضده، وقد نجح أبـو العـباس في هذا الجانب نجاحا كبيرا، فأسند ولاية البصرة وأعمالها إلي عمه سـليمان بن علي، بالإضافة إلي البحرين وعمان، وجعل ولاية مكة والمدينة لعمه داود بـن علي، وكانت بمثابة مكافأة له لقضائه علي بقايا الأمويين الموجودين بهما وكـان قد أعفاه من ولايته علي الكوفة وسوادها، وأسندها إلي ابن عمه عيسي بن موسى. ولم تدم ولاية داود بن علي علي مكة والمدينة سوى ثلاثة أشهر، فقد توفى في ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ، وكان قبيل وفاته استخلف ابنه موسى بن داود، فلما بلغت أخباره إلي الخليفة أبي العباس أرسل خاله زياد بن عبدالله الحارثي واليا علي مكـة والمديـنة والطـائف واليمامة. ومن المدينة بعث زياد رجلا من أتباعه هو إبراهـيم بـن حسـان السلمي المعروف بأبي حماد الأبرص إلي اليمامة حيث قتل المثنـي بـن يـزيد بن عمر بن هبيرة وقتل معه بعض أصحابه. كذلك أرسل أبو العـباس عمـه إسماعيل بن علي واليا علي الأهواز وفارس، وأقر عمه عبدالله بن علي وأخاه صالح بن علي في ولاية دمشق وحمص وقنسرين والأردن، وكتب إلي أبـي عون عبد الملك بن يزيد وأقره علي ولاية مصر، وجعل خالد بن برمك علي ديوان الخراج.

الثورات ضد أبي العباس :

أولا : الـثورات فـي الشام والعراق : علي الرغم من الشدة والقسوة التي لجأ إليها الخليفة أبو العباس في القضاء علي خصومه لتثبيت أركان دولته، ولإرهاب من يفكـر في التصدي للدولة العباسية الناشئة، فقد قامت بعض الثورات، وكان من أخطـرها تلك الثورة التي اندلعت في الشام بزعامة أبي الورد مجزأة بن الكوثر الكلابـي، الـذي كان من أصحاب مروان وقواده، فقد خلع الثوار السواد شعار العباسـيين ولبسوا البياض ولذلك عرفوا باسم المبيضة. وقد انتشرت هذه الثورة في حمص وقنسرين ولكنها انتهت بمقتل أبي الورد وهو يقاتل في خمسمائة من أصحابه في أواخر ذي الحجة سنة ١٣٣ هـ.

وفـي نفـس العام هبت في الجزيرة ثورات مماثلة لبس الثوار البياض فيها وأعلـن الثوار خلع الخليفة أبي العباس، وكان علي رأس الثائرين أسحق بن مسلم العقيلـي الأرمني، ودار قتال شديد بين الثوار وأتباع الدولة العباسية، وانتهي الأمر بالصـلح بين الفريقين وإعطاء أسحق العقيلي أمانا مؤكدا من أبي جعفر المنصور ويـبدو أن سياسة الملاينة التي أتبعها المنصور في هذه المناطق لعبت دورها، فقد اسـتقام أهـل الجزيرة وأهل الشام، وكان أبو جعفر المنصور علي ولاية الجزيرة وأرمينية وأذربيجان، وبقي عليها حتى أستخلف.

ولـم تكـد تنتهـي ثورة الجزيرة حتى اندلعت ثورة أخرى في الموصل، فأرسـل الخلـيفة أبو العباس أخاه يحيي ومعه ١٢ ألف مقاتل لإخمادها فلما وصل يحيـي ومن معه نزل قصر الامارة جوار المسجد الجامع وأمر فنودي : "من دخل المسـجد فهـو آمن" فهرع الناس إلي المسجد فغدر بهم وقتل منهم حوالي ١١ ألفا ولمـا اسـتغاثت نساء القتلى أمر بقتلهن مع أطفالهن، ولم يرع في ذلك الحرمات. لهـذه الأسـباب يلقب بعض المؤرخين أبا العباس بلفظ السفاح، ويتهمونه بأنه أقام

دولـــة العباســـيين علـــي الدمـــاء والتنكيل بالأبرياء، والغدر بالأنصار (أبو سلمة الخلال) وعدم احترام العهود والمواثيق (ابن هبيرة)، وقد سار علي هذا المنوال أبو جعفـــر المنصـــور وبعض من خلفاء بني العباس وربما كانت مجريات الأحداث، والظروف التي أحاطت بالخليفة أبي العباس ومن جاء بعده هي التي أجبرتهم علي أتـــباع أســـلوب الشدة في مواجهة خصومهم، ودفعتهم إلي الحرب لإقامة دولتهم، وربمـــا لجـــئوا إلـــي ذلك من قبيل بث الرعب والخوف في قلوب من يفكرون في إزاحة الدولة العباسية في مهدها ممن يتطلعون إلي الزعامة أو الإمامة. ومهما تكن الأســـباب فإنه من المؤسف حقا أننا نجد في مصادر التاريخ نصوصا تشير إلي أن بعضـــا من حكام المسلمين كانوا يلجئوا إلي سياسه الانتقام والقضاء علي الخصوم متعلليـــن بأوهـــام، ومنتحلين أضعف الأسباب، ظنا منهم أن القضاء علي الخصوم حـــتى ولـــو كانوا مثلهم مسلمين سيمكن لهم في الحكم، ويطيل أعمار دولتهم التي أقاموهـــا علـــي الغـــدر والحيلة والخديعة والدماء، واتباع أساليب بعيدة عن الدين والشرف والكرامة ونسي هؤلاء الحكام أو تناسوا أن أحداث التاريخ لا تنسى، وأن عجلـــة الزمـــن تدور مهما طال هذا الزمن وأن دوام الحال من المحال، وأنهم كما فعلـــوا بخصـــومهم سيفعل بهم. ولو أنهم لجئوا إلي تحكيم كتاب الله وسنة رسوله، واتخـــذوا مـــن العقل والعفو عند المقدرة وسيلة لتجميع القلوب حولهم، لتغير وضع العـــالم الإســـلامي، ولكانـــت كثـــير من دوله في وضع أحسن وأقوي وأقدر من أوضاعها، التي وصلت إليها نتيجة لما ورثته من خلافات وصراعات غذتها ونمتها عصبيات تقليدية، أو انتماءات مذهبية، أو أفكار سياسية غير ناضجة.

مـــن هـــذه الدراسة الموجزة لتلك الثورات نجد أنها انتقلت من فلسطين إلي الشام ثم إلي الجزيرة، فكأنها زحفت تدريجيا إلي مركز الخلافة، غير أنه يلاحظ أن هـــذه الـــثورات كانـــت تقوم منفردة، وكان ينقصها عنصر التضامن والوحدة بين المشـــتركين فـــيها والمترعميـــن لها، مما يجعلنا نقرر أنها كانت رد فعل لحوادث

محلية نتجت من اعتداءات الجنود الخراسانيين علي أهالي تلك المدن، ودليلنا علي ذلـــك مـــا ذكـــرته المراجع المعاصرة لهذه الحقبة من وصف عن فظاظة وغلظة ووحشية هؤلاء الجنود وما ارتكبوه من أعمال في المدن التي دخلوها.

هذه الاضطرابات كان لها أثرها علي الدولة العباسية الناشئة، حيث صرفتها عـــن تأميـــن حدودهـــا، وبذلك تشجيع الروم علي مهاجمة منطقة الثغور الشمالية، وتخريـــب بعض حصونها وقتل أهلها، فجهز الخليفة أبو العباس حملة أسند قيادتها إلـــي عمـــه عبدالله لإعادة الأمن في هذه المنطقة سنة ١٣٦ هـــ، غير أن القدر لم يمهلـــه، مما دعا عبدالله أن يستخدم هذا الجيش في تحقيق أطماعه في الخلافة ولم يستتب الأمن في منطقة الثغور إلا في عهد المنصور.

ثانيا : الثورات في المشرق الإسلامي :

علـــي الرغم من أن المشرق الإسلامي كان في يد أبي مسلم الخراساني فقد ارتفعـــت فيه بعض الأصوات، وثارت بعض الجماعات ففي سنة ١٣٣ هـــ خرج شـــريك بـــن شيخ المهري عن طاعة أبي مسلم ببخاري بسبب ما أرتكبه من إراقة دمـــاء، وأعتـــبر هذا العمل خروجا علي أصل الدعوة لاكتساب الرضا من آل بيت النبـــي، وتبعه علي رأيه أكثر من ثلاثين ألفا، فوجه أبو مسلم إليه جيشا كثيفا بقيادة زياد بن صالح الخزاعي فقاتله قتالا شديدا حتى قتله وقضى علي ثورته.

وفـــي سنة ١٣٤ هـــ أنشق بسام بن إبراهيم بن بسام، وكان من فرسان أهل خراسان، ومعه جماعة حيث خرجوا جميعا من عسكر الخليفة أبي العباس سرا في غســـق الليل، وتوجهوا إلي المدائن فلما علم أبو العباس بأمرهم وجه إليهم خازم بن خـــزيمة فقـــاتلهم بعنف، وقتل منهم جموعا كثيرة، فانهزموا وفروا إلي مدينة ماه، فأخذ خازم يتعقبهم ويقتل كل من لحق به منهم، حتى قضى علي هذه الثورة تماما. وفـــي طريق عودته مر بقرية كان يسكنها أخوال الخليفة أبي العباس، وهم من بني الحـــارث، فبلغه عنهم أنهم سمحوا لرجل من الفارين من أتباع بسام بالنزول عندهم

أثـــناء فـــراره، فلما سألهم قالوا له : مر بنا رجل غريب لا نعرفه فأقام في قريتنا لـــيلة ثـــم خرج عنها. فأخذ خازم يعنفهم ويتهمهم بأنهم يأوون عدو أمير المؤمنين فـــأغلظوا له فـــي القول، فأمر بقتلهم جميعا، وهدم بيوتهم، ونهب أموالهم. فلما بلغ خـــبره إلي الخليفة أبي العباس حنق عليه وأراد أن يقتله، ولكن البعض نصحه بعدم الإقدام علي ذلك خشية أحداث شرخ في كيان الدولة، خاصة وأن خازما مطاع في قومـــه، ولـــه ســـابقة فـــي خدمة الدعوة العباسية، وأشاروا عليه بأن يبعث به إلي الخـــوارج الموجوديـــن بجزيـــرة ابـــن كـــاووان، وزعيمهم شيبان بن عبد العزيز اليشـــكري، وكـــانوا صفرية، والي الخوارج الموجودين بعمان، وزعيمهم الجلندي، وكـــانوا أباضـــية، فإن انتصر كان انتصاره نصرا لك ولدولتك، وإن انهزم وقتل، بلغت الذي أردت. فأمر الخليفة أبو العباس بتوجيهه مع ٧٠٠ رجل وكتب إلي عمه سليمان بن علي في البصرة لكي يوفر لهم السفن لنقلهم إلي هذين المكانين.

سار خازم وقد انضم إليه جموع من أهل بيته وبني عمومته ومواليه ورجال مـــن مـــرو، كما انضم إليه في البصرة جموع بني تميم، ووصلوا إلي جزيرة ابن كـــاووان فأرسل مجموعة من جنوده تبلغ الخمسمائة بقيادة فضلة بن نعيم النهشلي لمحاربـــة شـــيبان ومن معه من الخوارج وانهزم شيبان وأصحابه بعد قتال مرير، وانســـحبوا فـــي السفن فارين إلي عمان، فتصدي لهم الجلندي بجنوده وقاتلهم حتى قـــتل شـــيبان ومن معه. وهكذا وفر الجلندي علي خازم مؤونة ومشقة القتال ضد شـــيبان، ولو أن الجلندي سمح لشيبان ومن معه بالانضمام إليه لمواجهة خازم ومن معه لتغير الموقف، ولتمكن الخوارج من إنزال هزيمة مرة به.

وصـــل خازم ومن معه ونزلوا علي ساحل عمان، فلقيهم الجلندي، ودار بين الفريقيـــن قتال علي درجة كبيرة من العنف والضراوة، وسقط كثير من أتباع خازم قـــتلى، ولكنهم تمكنوا في اليوم التالي من إحراز نصر كبير علي الجلندي وأتباعه، فقـــتلوا منهم تسعمائة وأحرقوا تسعين آخرين. وفي اليوم السابع للقتال أشار رجال

خـــازم أن يأمر أتباعه بوضع المشاقة علي أسنة الرماح وأن يشعلوها وأن يحرقوا بهــا بــيوت أصـــحاب الجلندي، وكانت من الخشب، فلما اشتعلت بها النيران شغل أصحابها بإطفائها، وعندئذ انقض عليهم خازم وأتباعه فأفنوهم عن آخرهم، وقطعت رءوسهم وأرسلت إلي البصرة، ومنها أرسلت إلي الخليفة أبي العباس وقد بلغ عدد هؤلاء القتلي عشرة آلاف قتيل.

وفـــي ســـنة ١٣٥ هـــ ،خرج زياد بن صالح وهو في بلخ علي طاعة أبي مســلم الخراســـاني فسار إليه أبو مسلم في جموع من جنوده من مرو، فوصل إلي آمـــل وكان في صحبته سباع بن أبي النعمان الأزدي، الذي كان قد أوعز إلي زياد بـــن صالح أن يثب علي أبي مسلم ويقتله، فلما بلغت أخباره لأبي مسلم أمر بحبسه فـــي آمـــل، وواصل سيره إلي بخاري فلما وصلها أتاه حشد من أهلها فأعلنوا خلع زياد بن صالح عن ولاية بلخ، وأخبروا أبا مسلم بأن سباع بن أبي النعمان هو الذي أفسده فكتب أبو مسلم إلي عامله علي آمل وهو الحسن بن الجنيد أن يضرب سباعا مائة جلدة، ثم يضرب عنقه ففعل ذلك.

ومـــع تحـــرك هذه الانتفاضات، ونشوب هذه الثورات، فقد تمكن أبو مسلم الخراســـاني مـــن مهاجمة بلاد ما وراء النهر سنة ١٣٤ هـــ، كما أرسل فرقا من جـــنوده لغـــزو بعض المناطق في أطراف هذه البلاد، فحملوا إليه غنائم كثيرة من متاع الصين مثل الحرير والديباج والخزف المزخرف والمطعم بالذهب، والسروج الصـــينية وطـــرف الصين التي لم ير مثلها، ويعتبر هذا أول ذكر عن المغانم من الصـــين في المراجع العربية والإسلامية، كما أن صلات العرب ببلاد الصين بدأت الصين منذ تلك الفترة.

وعلـــي الرغم مما كان لأبي مسلم من منزلة عند الخليفة أبي العباس - كما أســـلفنا - إلا أن أبا جعفر المنصور كان يحرضه علي قتله ويقول له : "لا سلطان لك ما دام هناك أبو مسلم، أطعني واقتل أبا مسلم، فو الله إن فى رأسه لغدرة. وكان

مـــن الطبيعـــي أن يـــتأثر الخلـــيفة أبـــو العباس بكلام أخيه أبي جعفر فبدأ يحقد عليه، ولكنه كان يفكر في المتاعب التي قد تنجم له وللدولة العباسية أن هو قتله أو تعـــرض له بسوء، ومن ناحية أخري فإن الدولة العباسية الناشئة مازالت في حاجة ماسة إلي جهود أبي مسلم وجنوده من الخراسانيين. علي أن تغير أبي العباس علي أبي مسلم ظهر عندما أراد أبو مسلم أن يحج، وكان معه عشرة آلاف من خاصته، وكـــان يفكـــر في أن تكون له إمارة الحج وأراد أن يقدم علي أبي العباس في هذه الضـــجة البشـــرية، ولكن أبا العباس كتب إليه أن يصحب معه ألف جندي فقط من أتـــباعه، لأن طريق الحج لا يحتمل هذا العدد الكبير من الجنود، وفي نفس الوقت كتـــب إلـــي أخيه أبي جعفر المنصور أن يحج هذا العام ١٣٦ هـــ، لتكون له أمارة الحـــج بدلا من أبي مسلم الذي رغب فيها. خاف أبو مسلم من تعليمات الخليفة أبي العـــباس فاحـــتاط للأمر، ولجأ إلي الحيلة، وفرق ثمانية آلاف من جنوده فيما بين نيســـابور والـــري ليكونوا علي مقربة منه، وجمع الأموال وحفظها بالري، ومنها خرج في ألف جندي من خاصته كما أمره أبو العباس، فلما وصل إلي مقر الخلافة استقبله أبو العباس، وأكرم نزله، وطيب خاطره وقال له : "لولا أن أبا جعفر سبقك وطلب أن يكون أميرا للحج هذا العام لجعلت الإمارة إليك هذا العام".

وكان من الطبيعي أن يتبرم أبو مسلم من هذا الصنيع فعبر عن تبرمه بقوله : "أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا!!!".

أمـــا عن المغرب العربي فقد خرجت عن طاعة العباسيين، حيث تمكن عبد الرحمـــن الأموي من الدخول إلي الأندلس، وتكوين دولة أموية مستقلة عن الخلافة العباسية وتسمي باسم عبد الرحمن الداخل، وتصدي لمحاولات أبي جعفر المنصور فـــي إسقاط الدولة الأموية بالأندلس، وقضى عليها لدرجة أن أبا جعفر لقبه بصقر قريش.

اســتمرت خلافـــة أبي العباس أربع سنوات وتسعة أشهر، أعلن في بدايتها عن قيام الدولة العباسية، وقضى علي العقبتين الكبيرتين اللتين كانتا حجر عثرة في قــيام هذه الدولة، واعتمد علي أبي مسلم الخراساني وأبي سلمة الخلال وأخيه أبي جعفــر المنصــور، وشاركه في هذه الأعمال كلها وفي القضاء علي الثورات التي انتشرت هنا وهناك أعمامه عبدالله بن علي، وأخواه داود وصالح، وعندما استقرت لــه الأمــور تخلص من أبي سلمة الخلال، وترك أمر أبي مسلم لأخيه أبي جعفر المنصــور، كمــا أنه نقل العاصمة إلي الأنبار حيث تقع علي الضفة اليسري لنهر الفــرات، في الشمال شرقي العراق. وظلت الأنبار عاصمة الدولة العباسية حتى تم بــناء بغداد في عهد أبي جعفر المنصور. يعتبر أبو العباس أول من أوجد منصب الوزيــر فــي الدولــة الإسلامية حيث خلع هذا اللقب علي أبي سلمة الخلال ولقبه بوزير آل محمد، ثم جاء بعده الجهم بن عطية. وعندما أحس أبو العباس بدنو أجله عقــد الخلافة من بعده لأخيه أبي جعفر المنصور، وجعله ولي عهد المسلمين، علي أن تكــون الخلافة بعد أبي جعفر لعيسي بن موسى بن محمد ابن علي، وكتب أبو العــباس عهده بذلك، وختمه بخاتمه، وأشهد عليه أهل بيته، ثم دفعه إلي عيسي بن موســى. وكانــت وفاة أبي العباس في الثاني عشرة من ذي الحجة سنة ١٣٦ هــ، وأخــتلف المؤرخون في تقدير عمره يوم وفاته فكانت ما بين ٢٨ ، ٣٦ سنة، كما اخــتلفوا في المكان الذي دفن فيه، وإن كانت الأغلبية منهم تؤكد أنه دفن في مدينة الأنــبار، ولكنهم لا يعرفون مكان المقبرة التي دفن فيها، ويبدو أن العباسيين كانوا يخــافون من نفس المعاملة التي أتبعوها مع خصومهم بني أمية، فأخفوا قبورهم في أول الأمــر وظلــوا كذلك حتى عصر الخليفة المستنصر الذي يعتبر أول من شيد لنفسه قبرا معروفا في بني العباس.

صفات أبي العباس وأخلاقه :

أجمعـــت المراجع التاريخية علي أن أبا العباس كان من أجمل الناس وجها، أبـــيض البشرة ذا شعر أجعد، ولحية، أقني الأنف، طويل القامة وكان كريما حليما وقـــورا، عـــاقلا كـــاملا، كثـــير الحـــياء، حسن الأخلاق. سخي اليد، كثير العطاء والهبات، والدليل علي ذلك قصته مع أبي دلامة حين كان واقفا بين يديه، فقال له : ســـلني حاجـــتك يـــا أبا دلامة ! فقال : كلب أتصيد به، قال : أعطوه أياه فقال أبو دلامـــة: ودابـــة أتصيد عليها، فوافق أبو العباس : فقال : وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمـــنا منه فأنعم أبو العباس عليه بجارية. فقال هؤلاء عبيدك يا أمير المؤمنين، فلابد لهم من دار يسكنونها، فأمر بإعطائه دارا. فقال : فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟ قال : أعطيتك مائة جريب عامرة ومائة غامرة. فقال وما المغامرة يا أمـــير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافي بني أسد فضحك الخليفة أبو العباس وقال : اجعلوها كلها عامرة فقبل أبو دلامة يده.

أبو جعفر المنصور

١٣٦ - ١٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م

عـندما توفـى أبـو العباس كان أبو جعفر المنصور على أمارة الحج فقام عيسـى بن موسى يأخذ البيعة له، وكتب اليه بذلك فوصلته هذه الأخبار وهو راجع من الحج في ضواحي مكة، فأسرع بالعودة إلى الأنبار حاضرة دولة العباسيين.

يعتبر أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، لأنه قضى على ثـورات المنافسـين لحكمة أعطى الدولة عاصمة ممتازة هي مدينة بغداد، ونظم الدواويـن، وتمركـزت الإدارة فـي بغـداد، آلتي أصبحت حاضرة الإمبراطورية الإسلامية.

تولـى أبـو جعفـر المنصور الخلافة وكانت الأخطار لا تزال تحيط بدولة العباسيين الناشئة، هذه الأخطار تتمثل في ثلاث جبهات هي :

أولا: كانت الجبهة الأولى من هذه الأخطار تتمثل في عمه عبد الله بن على ويعـرف بعـبدالله الأكـبر، فقد رأى عبد الله هذا أنه أحق بالخلافة من أبى جعفر المنصـور، فـأخذ ينافسه وينازعه عليها، وزعم أن أبا العباس حينما أرسله لقتال مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وعده بالخلافة من بعده:

وشـهد له جماعه بذلك والواقع أن الذي شجع عبدالله الأكبر على هذا التمرد وجـود قـوة حربـية كبيرة من عرب الشام والجزيرة وجند خراسان أنصار بني العـباس تحت يده. فأعلن الخروج عن طاعة المنصور، وأعلن خلعه من الخلافة، وبـايع لنفسـه فـي الشـام، واستقر بجيوشه في حران واستعد لمواجهة المنصور بالحرب إذا لزم الأمر ذلك.

أسرع الخليفة أبو جعفر المنصور فأرسل جيشا من الخراسانيين بقيادة أبي مسـلم، وضم إليه جموعا من أتباع العباسيين، لمواجهة عمه عبدالله بن علي ويقال أن أبـا مسلم خرج لهذا القتال وهو كاره : ربما حرصا منه علي أرواح بني جلدته مـن أهـل خراسان الذين كانوا في جيش عبدال،له وخشيته أن يتعرضوا للقتل بيد أخوانهـم فـي جيش أبي مسلم، أو بيد قائدهم عبدالله بن علي نفسه إذا أحس منهم عـنهم الرغبة في محاربة إخوانهم القادمين في جيش أبي مسلم. وقد حدث فعلا أن عـبدالله حيـنما بلغته أخبار تحريك جيش خراسان بقيادة أبي مسلم ضده خشي من الخراسـانيين الذيـن في جيشه أن يخرجوا عليه أثناء القتال أو يتآمروا عليه بحكم ولائهـم لزعـيم الخراسانية أبي مسلم فأمر جياش بن حبيب – صاحب الشرطة – بقتلهم منهم أعدادا كثيرة بالغ بعض المؤرخين في تقديرهم وقدرهم سبعة عشر ألفا.

دار القتال بين أبي مسلم وعبدالله بن علي واستمر حوالي ستة أشهر وأنتهي بعـد معـركة عنيفة في شمال الشام بهزيمة عبدالله بن علي وأتباعه في ٧ جمادي الآخـر سـنة ١٣٧ هـــ / نوفمبر ٧٥٤ م. وقد أعلن أهل الشام في بادئ الأمر اسـتعدادهم لمساعدة عبدالله بن علي نكاية في أبي جعفر المنصور، ولكنهم أخلفوا وعدهـم له لكراهيـتهم له ولبنـي العباس عموما، فأدي هذا إلي هزيمته وهزيمة أتباعه. وفي رأينا أن أسباب الهزيمة ترجع إلي حذق ومهارة أبي مسلم الخراساني نفسه : لأنه تظاهر عند خروجه من العراق بأنه يريد الشام، وأرسل إلي عبدالله بن علي يطمئنه ويقول له : "أن الخليفة قد ولاني الشام ولم أؤمر بقتلك". ولم تطل هذه الخدعـة علـي عـبدالله بـن علي الذي كان متحصنا في مدينة نصيبين في شمال الجزيـرة، وهي مدينة استراتيجية هامة، ولكنه اضطر لتركها لأن الجنود الشاميين فـي جيشه طلبوا منه السير إلي الشام لحماية أهليهم من بطش أبي مسلم. واضطر عـبدالله بـن علي إلي استجابة مطلبهم ولكنه لم يكد يترك نصيبين حتى تحول أبو مسـلم بجيشه إليها مسرعا واستولى عليها. عندئذ رأي عبدالله بن علي أنه لا مفر

مـــن الاصـــطدام بأبي مسلم وجيشه ، إلا أنه كان يخشى تمرد وعصيان الجنود الخراسانية في جيشه، فأمر بقتلهم ليتخلص منهم كما أشرت إلي ذلك.

فـــر عـــبدالله بن علي في قلة من خاصته إلي أخيه سليمان وكان واليا علي البصـــرة وبقـــي مختفيا عنده، إلي أن حصل سليمان له علي الأمان من أبي جعفر المنصـــور فـــي ســـنة ١٣٩ هـــ / ٧٥٦ م، فأرسله إليه مع بعض قواده وخاصة أصـــحابه، ولكن أبا جعفر المنصور غدر به وسجنه ومن معه، فظل بسجنه إلي أن مـــات فـــيه سنة ١٤٧ هـــ / ٧٦٤ م، وإن كانت بعض الروايات التاريخية تلصق تهمة قتله بأبي جعفر المنصور نفسه.

لـــم يكتف أبو جعفر المنصور بقتل عمه عبدالله بن علي : بل خاف من عم آخـــر له هو صالح بن علي، الذي واصل مطاردة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمـــية إلـــي مصر وقتله فيها، فكافأة آنذاك أبو العباس (السفاح) بأن جمع له ولاية أفريقـــية ومصـــر وفلسطين، والأردن، فلجأ أبو جعفر المنصور إلي وضعه تحت مراقبـــته، وأخذ يعزله من ولاية هذه البلاد الواحدة بعد الأخرى، ويوليه بلادا قريبة مـــن العـــراق حـــتى أتـــى به إلي الجزيرة نفسها. وبذلك تخلص مع منافسة عمه عبدالله وأمن علي نفسه من منافسة العم الآخر، وأصبح قادرا علي مواجهة جبهة أخرى يكمن فيها الخطر، ولم تكن هذه الجبهة سوي أبي مسلم الخراساني نفسه.

ثانـــيا : كـــان أبو مسلم الخراساني قائد ثورة العباسيين ضد الحكم الأموي، وإليه يرجع الفضل في قيام دولتهم : لأنه أول من رفع راية العباسيين، و أشعل نار الثورة ضد بني أمية في خراسان، حتى هدم ملكهم. ولكن العداء كان مستحكما بين أبـــي مسلم وبين أبي جعفر المنصور منذ تولي أبو العباس (السفاح) الخلافة، فأخذ أبـــو جعفر يوغر صدر أخيه (السفاح) عليه، ويحثه علي قتله، ويخوفه من خروجه علـــيه ويقـــول له : "أطعنـــي وأقتل أبا مسلم، فوالله إن في رأسه لغدرة". ولكن أبا العـــباس (الســـفاح) كان يحفظ لأبي مسلم الخراساني ما قام به من جهود في سبيل

الدولــة العباســية وكــان يضــع في حسبانه ما يتمتع به من نفوذ واسع عند أهل خراســان، فلما تقلد أبو جعفر المنصور الخلافة صمم علي التخلص منه، لأنه كان يــري فيه منافسا خطرا له في حكم الدولة نظرا لهيمنته الكاملة وسلطانه ونفوذه في خراسان : والطاعة العمياء من الجنود الخراسانيين له.

ازدادت خطــورة أبي مسلم علي وجه الخصوص بعد انتصاره علي عبدالله بــن علي فتمادى في زهوه وظهر تحديه للخليفة أبي جعفر المنصور عندما أرسل إلــيه مــولاه أبا الخصيب ليحصى عليه المغانم التي أحرزها بعد هزيمة عبدالله بن علي فتعرض أبو مسلم للمنصور بلسانه وشتمه ثم قال : أمين علي الدماء خائن في الأمــوال؟ وأراد قــتل الرســول لولا أن تدخل بعض خاصته فخلى سبيله فعاد أبو الخصيب وأبلغ المنصور بما حدث.

أســرف أبــو مســلم الخراساني في قتل الأبرياء والتخلص من بعض كبار الدولة، لتصبح السيطرة مركزة في يده وحده، فقتل سليمان بن كثير الخزاعي، أول النقــباء الاثنى عشر، دون أن يأخذ رأي الخليفة في ذلك، كما تعهد بقتل أبي سلمة الخلال الملقب بوزير آل محمد.

يــري بعــض المؤرخيــن أن مقتل أبي مسلم الخراساني يرجع إلي عداوة شخصية بينه وبين الخليفة المنصور، لأن أبا مسلم كان يستخف به وهو ولي للعهد ويكتــب له "من أبي مسلم إلي أبي جعفر" دون أن يقرن أسمه بولاية العهد، وعندما تأتــيه كتب أبي جعفر المنصور : ينظر فيها ثم يلقي بها إلي مالك بن الهيثم فيقرأها ثم يضحكان استهزاء.

ومن ظواهر استخفاف أبي مسلم بالمنصور أنه عندما خرج أميرا علي الحج وأبــو مســلم وأتــباعه في معيته، لم يعط أبو مسلم للمنصور بالا أو التفاتا، وكان يتصــرف كمــا لــو كان هو الأمير، فكان يأمر بإصلاح الطرق، وكان يسارع في تقديــم الهــبات والأعطيات حتى أصبح ذكر أبي مسلم علي كل لسان، كما أنه تقدم

بموكبه علي موكب المنصور أثناء طريقهم للحج، وعند العودة أسرع بالرجوع ولم ينتظر المنصور وكان ذلك سببا في تلقيه نبأ وفاة الخليفة أبي العباس السفاح قبل أن يعرفه أبو جعفر المنصور. وعندما أرسل إليه يعزيه كانت رسالته جافة ولم يهنئ فيها المنصور بالخلافة كما جرت عادة الرسائل في مثل هذه المناسبات، ثم أنه أسرع بالعودة إلي موطنه، مما أظهره بصورة الطامع في تولي الخلافة.

ازداد خوف المنصور من أبي مسلم عندما لجأ الأخير إلي تقديم أسمه علي اسم الخليفة المنصور نفسه في الرسائل التي كان يبعث بها إليه، وكان خوف المنصور مبنيا علي ما كان قد أدعاه أبو مسلم من قبل من أنه من ولد سليط بن عبدالله بن العباس : ومعني هذا أنه ينتسب إلي بني هاشم، وأنه علي قدم المساواة مع المنصور وغيره من العباسيين، ولذلك لجأ المنصور إلي الحيلة والمكر والتدبير ليبعده عن مركز قوته، وحصنه المنيع خراسان، حيث الآلاف العديدة التي تلتف حوله ثم يضرب ضربته الكبري ويتخلص منه بعد ذلك.

انتهز أبو جعفر المنصور وجود أبي مسلم في شمال الشام بعد نجاحه في القضاء علي ثورة عمه عبدالله بن علي، وأراد أن يمنعه من العودة إلي خراسان، حتى لا يفسد عليه أهل البلاد فيها، فعينه واليا علي الشام ومصر، وأرسل إليه يستقدمه، واستشعر أبو مسلم الخراساني ما يدبر له ، فأجاب : يوليني الشام وخراسان لي، وأعلن تمنعه وكتب إلي المنصور يقول : "أنه لم يبق لأمير المؤمنين – أكرمه الله – عدو إلا أمكنه الله منه. وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان : أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء. فنحن نافرون من قربك، حريصون علي الوفاء بعهدك ما وفيت، أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك، وإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد، حيث تقارنها السلامة. فإن نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسي" ومعني ذلك أن أبا مسلم عارض الخليفة المنصور وأحرجه وأوحي إليه بأنه يستشعر ما يدبره له في

الخفاء. فكتب إليه المنصور ينكر عليه شكوكه ويهدئ من روعه فقال : "قد فهمت كـتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغشة ملوكهم، الذين يتمنون اضطراب حـبل الدولة لكثرة جرائمهم، فلم سويت نفسك بهم ؟ وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر علي ما أنت عليه، وليس مع الشريطة التـي اشترطتها سماع منك ولا طاعة، وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسـالة لتسـكن إليها أن أصغيت إليها. وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك فإنه لم يجد بابا يفسد نيتك أوكده عنده من الباب الذي فتحه عليك". ولم يكتف المنصـور بهـذه الرسـالة فطلب من شيوخ بني هاشم أن يكتبوا إليه يحذرونه من المعصية ويحرضونه علي الطاعة للمنصور والتمسك بها. فكتبوا إليه بذلك، ودعوه للحضـور عـند الخليفة أبي جعفر، وتقديم فروض الولاء والطاعة وإبداء الإعتذار لـه، ولكـن أبا مسلم لم يكن بالرجل اللين القناة، أو القائد السهل المنال، ويبدو أنه ازداد حـذرا وتحـرزا. وهـنا كان حنق المنصور وغضبه علي أبي مسلم قد بلغ مبلغه، فبعث أبا حميد المروروذي إليه وقال له : "كلمة بألين ما تكلم به أحدا، ومنه أعلمـه أنـي رافعه وصانع به ما لم يصنعه أحد أن هو صلح ورجع إلي ما أحب. فـإن أبى أن يرجع ويئست منه فقل له : يقول لك أمير المؤمنين : لست للعباس أن مضـيت مشـاقا ولـم تأتني : وإن وكلت أمرك إلي أحد سواي، وإن لم آل طلبك وقـتالك بنفسي، ولو خضت البحر لخضته، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أمـوت قبل ذلك، فذهب أبو حميد في نفر من أصحابه ممن يثق بهم، فقدم علي أبـي مسلم بحلوان، فكلمه بأحسن الكلام وإلينه، وأخذ يعظم مكانته عند أبي جعفر ويطعمـه ويمنيه ويغريه. ومع هذا لم تلن قناة أبي مسلم الخراساني، خاصة بعد أن نصحه أتباعه بعدم الذهاب إلي الخليفة يخوفوه هذا الأمر. فقال لأبي حميد : أرجع إلي صاحبك، فليس من رأيي أن آتيه، عندئذ أبلغه أبو حميد رسالة التهديد والوعيد التـي تلقاهـا علـي لسان أبي جعفر المنصور فلما سمعها أبو مسلم ،وجم طويلا،

وانهـزم رعـبا. وواصـل أبـو جعفر المنصور تضييق الخناق علي أبي مسلم الخراسـاني فاسـتمال إليه نائب أبي مسلم في خراسان وأوعز إليه بالخروج علي أبـي مسـلم : ومـناه بالولايـة مكانـه، فأخذ هذا النائب يدفع أبا مسلم ويحرضه علـي الذهاب إلي أبي جعفر المنصور، وتقديم الاعتذار له، وهو يعلم ماذا ينتظره في بلاط المنصور.

توجـه أبو مسلم – علي كره منه – إلي لقاء أبي جعفر المنصور الذي أنتقل إلي المدائن – علي نهر دجلة – ليكون قريبا منه أثناء وصوله. وأرسل إليه وزيره أبـا أيوب المورياني ليستقبله، وأمره أن يرسل إليه من يخبره أن أمير المؤمنين قد عـزم علي أن يوليه ما وراء بابه، ويريح نفسه ويتورع، وأن يبلغه هذا لا علي أنه رسـالة وإنما علي أنه شئ عرفه، فسارع من نفسه ليبلغه. فأرسل أبو أيوب رجلا يـثق بـه هـو سـلمة بـن سعيد بن جابر ووعده شيئا كثيرا، ونفذ الرجل المهمة المرسـومة له كأحسن ما يكون فلانت أسارير أبي مسلم وهو مقبل علي المنصور. وزيـادة فـي الـتمويه علي أبي مسلم أمر أبو جعفر المنصور الناس بالترحيب به وحسـن اسـتقباله حـتى تزول عنه مخاوفه ويطمئن. ولما وصل إليه ودخل عنده أكـرمه وقـربه من مجلسه، وسمح له بالاستراحة في خيمة خاصة أعدها له : كما سـمح له بدخول الحمام ليزيد في إكرامه، ثم أمره أن يعود إليه في اليوم التالي بعد أن يستريح من عناء السفر.

دبر أبو جعفر المنصور الطريقة التي يتخلص بها من أبي مسلم فأمر رئيس حرسـه الخـاص عـثمان بن نهيك ومعه أربعة من رجاله الأشداء بالتخفي وراء السـتائر فـي مجلسه، فإذا ضرب بيده علي الأخري (صفق) خرجوا وضربوا أبا مسـلم بسـيوفهم حـتى يقـتلوه. فلما حضر أبو مسلم إلي مجلس المنصور، وكان متوحشـا بسيفه، استدرجه المنصور وجرده من سلاحه بحجة رغبته في رؤية هذا السيف الذي غنمه أبو مسلم من عمه عبدالله بن علي، وأخذ المنصور يقلب السيف

بيـن يديه ثم وضعه تحت وسادته، وبذلك أصبح أبو مسلم تحت رحمة أبي جعفر لأنـه أعـزل لا يملـك سـلاحا يدافع به عن نفسه، ثم أخذ المنصور في محاكمته وتوجـيه التهم إليه وكان يقرن كل تهمة من هذه التهم بالتأنيب والتقريع لأبي مسلم، ومن ضمن ما عدده المنصور عليه : قتله سليمان بن كثير داعي دعاة بني العباس وادعـاؤه أنـه ولـد سليط، وكتابه إلي أبي العباس (السفاح) ينهاه فيه عن الموات، وطمعـه في جارية عمه عبدالله بن علي، والأموال التي جمعها في حران، وكان أبـو مسـلم يعـتذر عن كل تهمة ويبرر الأسباب التي دفعته إلي هذا العمل ولكنه لـم يحـتمل، وضـاق بهـذه التهم الصغيرة التي تتضاءل أمام كفاحه وجهوده في إقامـة الدولة فقال : يا أمير المؤمنين ! مثلي لا يقال له هذا ولا يعدد عليه مثل هذه الذنوب بعد بلائي وما كان مني؟

فأجابـه المنصـور : "يـا ابن الخبيثة والله لو كانت أمة مكانك لأغنت إنما عملـت في دولتنا وبريحنا، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا". فكبر ذلك علي أبي مسـلم وأنفجـر قـائلا : دع هذا فإني أصبحت لا أخاف إلا الله. فشتمه المنصور وصـفق بـيده فخـرج الحراس من خلف الستر وانقضوا علي أبي مسلم وضربوه بسـيوفهم فقـتلوه، ولفوه في بساط وألقوه في نهر دجلة، وكان ذلك يوم ٢٥ شعبان سنة ١٣٧ هـ / فبراير ٧٥٥م. وخرج الوزير أبو أيوب فصرف حاشية أبي مسلم وأتباعه الذين قدموا معه وزعم لهم أن أبا مسلم في قيلولة عند أمير المؤمنين وأمر لهم بالجوائز فانصرفوا.

وبذلك تخلص المنصور من أبي مسلم الذي رأي فيه خطرا كبيرا علي دولة بنـي العباس بصفة عامة، وعلي حكمه شخصيا بصفة خاصة ودليلنا علي ذلك ما قالـه المنصور لعيسي بن موسى ولي العهد حينما أظهر عدم ارتياحه للطريقة التي قتل بها أبو مسلم فقال له : "يا أنوك، والله ما أعلم في الأرض عدوا أعدي لك منه، وهـل كـان لكـم ملك أو سلطان أو أمر أو نهى في حياته". وكذلك ما قاله حينما

استغاث أبو مسلم به وقال : "يا أمير المؤمنين أبقيني لعدوك" فأجابه : "وهل لي من هو أعدي منك؟".

وقد عبر بعض المقربين من أبي جعفر المنصور عن أن خلافته الحقيقية تبدأ من يوم مقتل أبي مسلم الخراساني، فعندما علم أبو جعفر بن حنظلة بمقتل أبي مسلم قال للمنصور : "يا أمير المؤمنين عد من هذا اليوم لخلافتك" وفي رأي جمهرة المؤرخين أن أبا مسلم الخراساني كان يستحق القتل فعلا، لأنه قتل نحو من ستمائة ألف في حروبه، ولكن بيد غير يد الخليفة العباسي، فاشتراك المنصور في قتله دفع كثيرا من الفرس إلي أن يخرجوا علي الخلافة العباسية، لأن أبا مسلم كان في نظرهم أميز شخصية فارسية منذ مقتل يزدجرد، آخر ملوك الدولة الساسانية، وأنه باعث للقومية الفارسية التي أخمدها الفتح العربي الإسلامي.

أوضح أبو جعفر المنصور للناس أن أبا مسلم خرج علي طاعته، وأنه نفذ فيه حكم من يخرج علي الإمام، كما كان أبو مسلم نفسه يحكم علي من يخرج عليه. ثم اشتري خضوع قواد أبي مسلم وخاصته بالأموال والهبات الكثيرة حتى رضوا وسكتوا ورجعوا إلي موطنهم وهم يقولون : "بعنا مولانا بالدراهم". هكذا أثبت أبو جعفر المنصور أنه علي جانب كبير من الدهاء والتدبير والحزم يفوق كثيرا ما كان يوصف به أبو مسلم الخراساني.

والحقيقة أن نهاية أبي مسلم الخراساني لا تعتبر شيئا شاذا عما ألفناه في دراسة التاريخ، فكثير من القواد العظام الذين لعبوا دورا خطيرا في تأسيس الدولة وقيامها قديما وحديثا – انتهت حياتهم بمثل ما انتهت به حياة أبي مسلم. ذلك لأن هؤلاء القواد تكون لهم الكلمة الأولي المسموعة، والسلطان والنفوذ الواسع بين جنودهم بحكم اتصالهم بهم، ومعاشرتهم لهم، فإذا ما لعب الحظ دوره مع هؤلاء القواد وتمت الانتصارات علي أيديهم وقامت الدولة بجهودهم، وجهدهم طغي سلطانهم واتسع نفوذهم في مجالات الدولة، ولا يقفون عند حد معقول في تنفيذ

رغــباتهم، لأنهــم يرون أنفسهم أصحاب هذا النصر، وهذا المجد، وأن الأمر تم لصــاحبهم (رئيس الدولة) بفضل جهودهم، فهم يشاركونه كل شئ، بل يفعلون كل شئ دون الرجوع إليه، وصفحات التاريخ الصادقة سجل لمثل ذلك.

فإذا كان صاحب الدولة بعيد الهمة، وله تطلعات للتغيير الإصلاح، لم يحتمل كــل الذي يصدر عن قواده، وإذا اضطرته الظروف احتمله علي مضض، منتهزا أول فرصة ليتخلص من هؤلاء القادة الذين أصبحوا عبء ثقيلا علي صدره وعلي دولــته. فهو يريد أن يجني ثمرة هذه الأعمال كلها بمفرده، وينسبها إلي نفسه، بينما هؤلاء يرون أن هذا كله من آثارهم، ومن حقهم أن يجنوا الثمرة مثل رئيسهم. وقد عــبر صــاحب الفخري عن هذا الوضع بقوله : "وكأن المخترع للدولة يكون عنده من الدالة والتبسط ما تأنف منه نفوس الملوك فكلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا به".

والحقيقة أن ما ذكرناه ينطبق علي أبي مسلم الخراساني، فهو بدون شك من نوابــغ الــرجال، وكبار القواد الذين أسسوا الدول العظام، ولولا ما يؤخذ عليه من كــثرة مــا قتل عند تأسيس الدولة العباسية لاعتبرناها من أكبر السياسيين، ولذلك ينزع بعض المؤرخين عنه صفة السياسي، ويحرمونه من لقب الداهية الذي يتوشح بــه أعظــم الساسة والقواد، ويقتصرون في القول علي أنه كان من أصحاب القوة والعزيمة والثبات، ومع ذلك فهم يتهمونه بالجهل لقدومه علي المنصور بعدما أحتج بــه ســليمان بن كثير كبير دعاة العباسيين، حينما قال له : "أتذكر قول الإمام لي : مــن اتهمته فاقتله؟". فإذا كانت هذه هي القاعدة التي كان يعمل بها وبمقتضاها أفلا يكــون فيما صنعه مع أبي جعفر المنصور ما يدعو إلي الشك والريبة فيه فيستحق به القتل؟ فهو إذا كان قادما علي القتل بمقتضى القاعدة التي كان يحكم بها، وكثيرا مــا نفذها، فلا يكون قتله إذا محلا للدهشة والاستغراب، فالحكمة تقول : أصنع ما شئت كما تدين تدان، وقد نبهنا القرآن الكريم إلي ذلك في مواضع متعددة : "وكذلك

نولـــي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون". "وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون".

ظهور حركات الموالي :

كـــان مـــن نـــتائج قتل أبي مسلم الخراساني أن اضطربت أحوال خراسان وأغـــرب الفرس عن سخطهم على بني العباس، وظهرت حركات ينادي أصحابها بالثأر له منها :

١- حركة سنباذ المجوسي

ظهـــرت هذه الحركة في نفس العام (١٣٧ هــ / ٧٥٥ م)، وكان سنباذ من إحـــدى قرى نيسابور وكان من أصحاب أبي مسلم وصنائعه. وعندما علم بقتل أبي مسلم ثـــار، ودخـــل في طاعته أكثر أهل خراسان وخاصة أهل الجبال، فلما كثر أتباعه خضعت له نيسابور وقومس والري : وتسمي فيروز اصبهبذ وزاد من نفوذه وقوتـــه أنـــه اســـتولى علـــي خزائن أبي مسلم التي كانت بالري. ولكن أبا جعفر المنصـــور أرسل إليه عشرة آلاف فارس بقيادة جهور بن مرار العجلي فأنزلوا به الهزيمة وقتلوا من أتباعه من ستين ألف رجل كما قتل سنباذ نفسه.

٢- حركة الراوندية

ظهـــرت في سنة ١٤١هـ/٧٥٨م بقرية راوند إحدى قرى أصفهان، وتعتبر هـــذه القرية مهد حركة الراوندية، ولذلك نسبوا إليها، وقد لجأ أصحاب هذه الحركة إلـــى التســـتر وراء الجانـــب الدينـــي بطريقة ماكرة، وكان غرضهم إثارة نفوس المســـلمين علـــى الخلـــيفة المنصور، وبس روح الكراهية ضده حتى يسهل عليهم الانقضاض عليه في ثورة عارمة : وكانت خطتهم ترمى إلى تأليه المنصور، ومن ثـــم أظهـــروا له الإجـــلال في أول الأمر، ثم أخذوا يقدسونه ويجعلونه في مصاف الذات الالهية، وكانت تلك طقوسهم التي كانوا عليها قبل الإسلام فلما قتل أبو مسلم

عــادوا إليها، وزعموا أن روح المسيح عليه السلام حلت في علي بن أبي طالب رضـــي الله عنه ثم في الائمة من بعده حتى انتقلت إليها أبي مسلم، فلما قتل انتقلت إلـــى أبي جعفر المنصور، فهو في زعمهم (اله) وعبادته واجبة، وخرج زعيمهم – وكـــان رجلا أبرص يقال له الأبلق – في جموع حاشدة منهم وأقبلوا إلي قصر أبي جعفر المنصور وهم يطوفون به ويصيحون أنت أنت (أي أنت الله). ومن الطبيعي ألا يتقــبل المنصــور منهم هذا الهراء، فقبض علي رؤسائهم وسجن منهم حوالي مائتين وصمم علي محاربتهم والقضاء عليهم لخروجهم علي الدين الحنيف.

فثار أتــباع الــراوندية علي المنصور وتجمعوا ضده، وكانوا حوالي ٦٠٠ رجـــل، واقتحموا السجون، وأخرجوا بعض رؤسائهم، ثم قصدوا المنصور، فخرج إلـــيهم وفي ظنه أن أيديهم لن تمتد إليه بالأذى لتقديسهم له، ولكنهم ثاروا عليه في مكـــان يســـمي الهاشـــمية وحاطوا به، وكادوا يقتلونه لولا أن أغاثه رجل ملثم أخذ يدافـــع عنه ويقاتل بضراوة ليحميه وبقي علي قتاله للراوندية حتى قتل منهم الكثير فانهـــزموا هـــزيمة ساحقة، فلما سكنت ساحة القتال، طلب المنصور منه أن يكشف عن نفسه، فأجابه : أنا معن بن زائدة يا أمير المؤمنين وكان المنصور أمر بالقبض علـــيه لأنـــه أشـــترك في محاربة العباسيين مع القائد الأموي يزيد بن هبيرة والي العـــراق في معركة واسط ولكن معنا اختبأ ولم يخرج من مخبئه إلا وقت محاصرة الراوندية للمنصور وأحاطتهم به، حيث أبلى ذلك البلاء الحسن، فعفا عنه المنصور وأمـــنه علـــي نفسه وماله وأهله وقال له : مثلك يصطنع، وأحسن إليه، ولقبه بأسد الرجال، وكافأه بولاية اليمن.

يروي المسعودي أن معن بن زائدة دخل علي أبي جعفر المنصور ذات يوم ففجأة المنصور بقوله : هيه يا معن ! تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم من أجل قوله :

معن زائدة الذي زيدت به شرفا علي شرف بنو شيبان

ان عدا أيام الفعل فإنما يوماه يوم ندى ويوم طعان

فرد عليه معن بقوله :

كلا يا أمير المؤمنين، انما أعطيته لقوله :

ما زالت يوم الهاشمية زائدا بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه مـــن وقع كل مهند وسنان

فتلطف المنصور ومن معه واستحسن منه العطاء علي هذا المدح.

٣- وفـــي سنة ١٥٠ / ٧٦٧ م ظهرت في سجستان حركة مماثلة يتزعمها رجـــل يقـــال له اســـتاذ سيس : وطالب بالثأر لمقتل أبي مسلم، وأنضم إليه حوالي ثلاثمائـــة ألف من الفرس، واستولوا علي كثير من مدن خراسان، فأرسل المنصور إلـــيه جيشا تعداده عشرون ألف مقاتل بقيادة ولده المهدي، ومعه خازم بن خزيمة، ووقـــع استاذ سيس في قبضة خازم مع أسرته، وضرب أعناق الآلاف من أتباعه، وقضـــي علي هذه الحركة المناوئة للدولة العباسية الناشئة سنة ١٥١ هـــ / ٧٦٨م. وبذلك أصبح المنصور قادرا علي مواجهة الجبهة الثالثة وهي (العلويون الشيعة).

ولـــيس معني هذا أن حركات الموالي – أو ما يطلق عليه البعض، حركات الهرطقة الدينية – قد انتهت تماما فالمنادون بثأر أبي مسلم الخراساني كثيرون، فقد ظهـــرت جماعة تسمت باسم (المسلمية أو بأبي مسلمية)، وكانوا يرون أن أبا مسلم حـــي لم يمت وأنه سيعود ويملأ الأرض عدلا. علي أن جماعة أخرى قالت بموته، وبانـــتقال الإمامة إلي ابنته فاطمة : وسموا أنفسهم الفاطمية أنتسابا لها، وقد عرفت هـــذه الجماعة باسم الخرمية كذلك. وقد استمر تمرد هذه الجماعة إلي عهد الخليفة المعتصـــم (٢١٨- ٢٢٧ هـــــ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م) أي إلي آواخر العصر العباسي الأول.

ثالثاً : ثورات العلويين :

أدرك العلويـــون أن العباســـيين أبناء عمومتهم قد غرروا بهم حينما أستغلوا نشـــر الدعـــوة العباســـية تحت ستار (الرضا من آل بيت النبي) ثم استحوذوا علي الخلافة دونهم، مع أنهم أحق منهم، لأنهم – من وجهة نظرهم – أبناء الخليفة علي بـــن أبي طالب وورثته السياسيون وأبناء فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم، ولهم أحقية دينية لهذا النسب. ولذلك أخذوا ينابذونهم العداء، وينظرون إلـــيهم كمـــا كانوا ينظرون إلي مغتصبي حقوقهم من بني أمية، فشرعوا يناضلون بغـــية الوصـــول إلي حقهم في الخلافة، ووقف العباسيون منهم – في أول الأمر – موقفـــا ليـــنا وحـــاولوا بكـــل الوسائل استرضائهم، فألانوا لهم القول، وأجزلوا لهم العطـــاء، ولكـــن العلوييـــن ركبوا رؤوسهم : وتمسكوا بوجهة نظرهم في أحقيتهم بالخلافـــة. وجـــادلهم العباســـيون في مراسلات كثيرة وأبانوا لهم عن أحقيتهم في الخلافـــة وأيـــدوا رأيهم بما وقع فيه العلويين أنفسهم من أخطاء، وتركهم الأمويين وتنازلهم عن الخلافة لهم، وكان أبو جعفر المنصور أول من بعث بهذه المراسلات التي نوجز معانيها فيما يلي :

١– فضـــل العـــباس في الجاهلية والإسلام، إذ كانت له سقاية الحجيج وولاية زمـــزم، وأحقيته وتقدمه علي العلويين لأنه عم النبي صلي الله عليه وسلم والعصب مقدم في الشريعة الإسلامية علي (الماعون) أي السلالة من جهة الأمهـــات والبـــنات، ووجـــدوا من الشعراء من يؤيدهم في ذلك مثل قول أحدهم :

أني تكونوا وليس ذلك بكائن   لبني البنات وراثة الأعمام

٢– تـــنازل أبـــناء علـــي بن أبي طالب عن الخلافة للأمويين، ومساندتهم لهم ورضـــاهم بالحـــياة الرغـــيدة الهانئة في الحجاز بعيدا عن مراكز النضال

السياسي يسقط دعواهم في الخلافة وهم يشيرون بذلك إلي تنازل الحسن بن علي عن الخلافة في عام الجماعة، وقبوله الأموال التي قدمها إليه معاوية.

٣- نظرية الوصاية التي يتمسك بها العلويون ودعواهم أن النبي صلي الله عليه وسلم أوصى لعلي من بعده، ولتكون الخلافة في بيته أنكرتها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ثم أن مبايعة علي للشيخين علي التوالي تسقط هذه الدعوى : لأنه من غير المعقول أن يوصي النبي صلي الله عليه وسلم لعلي، ويتقدم عليه أبو بكر ثم عمر بن الخطاب.

٤- بعض أئمة العلويين وهو جعفر الصادق من نسل الحسين ابن علي وأمه أم فروة أخت أبي بكر الصديق، كان يري أحقية العباسيين بالخلافة. ولكن العلويين وعلي رأسهم محمد بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية ومعه أخوه إبراهيم لم يقبلوا أو يقتنعوا بالحجج والأدلة التي ساقها العباسيون، وتطلع محمد النفس الزكية هذا إلي الخلافة، فلم يبايع عبدالله أبا العباس السفاح، ولا أخاه أبا جعفر المنصور، فخشي المنصور علي نفسه وعلي دولته أن هو ترك النفس الزكية وأخاه إبراهيم، فعمل علي التخلص منهما، كما تخلص من عمه وأبي مسلم الخراساني من قبل خاصة وأن بعض العباسيين زاد في خوفه بقوله : "والله ما آمن وثوبه عليك فإنه ليس الذي ينام عنك، فر رأيك".

لجأ المنصور إلي الحيلة كعادته ليظفر بمحمد وأخيه إبراهيم، فاشترى رقيقا من رقيق الأعراب، وأعطي الرجل منهم بعيرا وبعيرين، وزودهم، ثم فرقهم في طلبهما، فأخذ هؤلاء الرجال يتجسسون ويتحسسون عنهما في كل مكان بظاهر المدينة.

كـــان المنصـــور قـــد طلب من زياد بن عبدالله عامله علي المدينة أن يجد كذلــك فــي طلــبهما، ووعده زياد بذلك، ولكنه ما لبث أن تراخي، ثم اتصل سرا بمحمد النفس الزكية وساعده علي الهرب إلي اليمن ومنها سافر إلي السند، ثم دخل الكوفــة ومنها عاد إلي المدينة، فلما علم المنصور بما فعل زياد اشتد عليه وعزله، وصــادر أموالـــه، وحبســـه وولي مكانه محمد بن خالد القسري، ولكنه ما لبث أن عزلـه لأنـــه استبطأه في القبض عليهما، وولي مكانه رياح بن عثمان بن حيان بن عــم مسلمة بن عقبة المري، قائد موقعة الحرة في عهد يزيد بن معاوية، فقدم رياح المديـــنة ســـنة ١٤٤ هـــ / ٧٦١ م وأعتلى المنبر وألقي خطبة كلها تهديد ووعيد، شـــبيهة بخطبة الحجاج ابن يوسف حين دخل العراق. ولكن أهل المدينة تصدوا له وأسمعوه ما يكره فكتب إلي المنصور وصور له سوء طاعة أهلها، فبعث المنصور إليهم كتابا يهددهم فيه، ومما جاء في هذا الكتاب : "... وأمير المؤمنين يقسم بالله " لئـــن لـــم تنزعوا – عن المعصية – ليبدلنكم بعد أمنكم خوفا، وليقطعن البر والبحر عـــنكم، وليبعثـــن عليكم رجالا غلاظ الأكباد بعاد الأرحام" ومع كل هذا ازداد أهل المديـــنة انكارا لعامل المنصور وأهانوه في المسجد حتى أضطر إلي الهرب داخل المقصـــورة وأحكامهـــا علـــيه، ولكـــنه صمم علي تنفيذ سياسة المنصور والتنكيل بالعلويين.

زج هـــذا العـــامل بوالـــد محمد النفس الزكية، وكان شيخا طاعنا في السن، وبأخوتـــه وبقـــية عائلته في السجن، وأخذ يسب محمدا النفس الزكية وأخاه إبراهيم علـــي المنابر وفي كل المجالس وظلوا في حبسهم حتى قدم المنصور لتأدية فريضة الحـــج، فعرضوا عليه بالأوصفاد وهو بالربذة، فسألهم عن محمد وأخيه إبراهيم فلم يظفـــر بجواب فأمر بالتنكيل بهم، وأرسالهم إلي الكوفة، حيث سجن بعضهم، وقتل البعض الآخر بطريقة بشعة.

أخذ محمد النفس الزكية يدعو إلي نفسه سرا وهو يعيش متخفيا في المدينة فازدادت شيعته، ونشروا دعوته بين العلويين والهاشميين في المدينة وغيرها، واعترف الناس بإمامته في مكة والمدينة، وتلقب بأمير المؤمنين وساعده علي ذلك ما تحلى به من صفات خلقية كريمة، وحبه للعفو والعدل والزهد والنسك وبعده عن الظلم وسفك الدماء حتى سمي بالنفس الزكية وبالمهدي.

أرسل محمد أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته، وبسرعة أحرز بعض النجاح هناك، بدليل ما ذكره المؤرخون من أن الناس أجمعوا علي نصرته، واستشهادا بما ذكره نفسه في خطبته التي ألقاها عند ظهوره حيث جاء في آخرها :

"... والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبدالله فيه إلا قد أخذ لي فيه البيعة".

ظهور النفس الزكية في المدينة والقضاء عليه :

في أواخر جمادي الآخرة سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م ظهر محمد النفس الزكية وكان مضطرا لأن يظهر نفسه بعد أن تحمل أهله مالا يطيقون من تعذيب وتقتيل، ويبدو أن بعض أهل المدينة ضاقوا ذرعا بما لقوه من ولاة المنصور فقالوا له : "وما نجد في هذه الأمة أحدا أشأم عليها منك، ما الذي يمنعك من أن تخرج وحدك" فاضطر إلي الخروج ومعه مائتان وخمسون رجلا فقبض علي رياح بن عثمان والي المدينة، وتوجه إلي السجن وأخرج من فيه، وأستولي علي المدينة المنورة دون أن يريق دما، وانضمت إليه بيوتات قريش إلا نفرا قليلا، وساعد هؤلاء في الانضمام إليه فتوى الإمام مالك في جواز نقض البيعة التي أعطيت لأبي جعفر المنصور، لأن الناس أعطوها وهم مكرهون، وليس علي مكره يمين. ويقال أن الإمام مالك لم يكن راضيا عن حكم العباسيين، وكان يتمنى أن يعود للمسلمين حكام مثل عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز، وكان يري أن محمد النفس الزكية من هذا الطراز العظيم من الحكام. وربما كانت هذه الفتوى من العوامل التي جعلت أهل مكة يميلون إلي النفس الزكية ويسلموا أنصاره (مدينة مكة)، ولم

يلبث إبراهيم أن أستولي علي البصرة وبايعه كثير من أهلها، ثم وصلته بيعة أهالي خراسان ومصر والشام، وأن بقي ولاة العباسيين بهذه الأقطار يتولون أمرها.

استشار المنصور أبا مسلم المعقيلي،وكان شيخا ذا رأي وتجربة وحكمة، فقال له : أرم محمدا برجل مثله، فإن قال أنا من ولد رسول الله قال هذا : وأنا ابن عم رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال المنصور لأبن عمه وولى عهده عيسى بن موسى أما أن تخرج إليه وأقيم أنا أمدك بالجيوش وأما أن تكفيني ما أخلف ورائي – يقصد عائلته – وأخرج أنا إليه". فخرج عيسى بن موسى قاصدا المدينة في أربعة آلاف فارس وألفي راجل، وتبعه حميد بن قحطبة في جيش كثيف، ويقال أن المنصور أرسل إلي النفس الزكية يطلب منه الطاعة، وأن يتراجع عن خروجه ووعده بأن يطلق سراح جميع من في سجنه من العلويين، ويدفع إليه مليون درهم. ولكن النفس الزكية رد عليه بقسوة واتهمه بأنه لا عهد ولا أمان له،ومن ضمن ما قاله له : أي أمان تعطني، أمان ابن هبيرة الذي قتلته أم أمن عمك عبدالله، أم أمان أبي مسلم؟؟

وصلت القوة التي أرسلها المنصور مع عيسى بن موسى وحاصرت المدينة من كل جانب، ثم أرسل عيسى جموعا من جنده عسكروا في طريق مكة ليعترضوا النفس الزكية أن فر إليها، ويبدو أن الخوف علي محمد النفس الزكية تسرب إلي قلوب بعض خاصته فنصحوه بالذهاب إلي مصر، التي بايعت له عن طريق أبنه علي، واتخاذها قاعدة للقتال، لأنها غنية بالرجال والمال، أو ينسحب إلي مكة، أو يلجأ من جديد إلي البادية، ولكن حنين بن عبدالله صاح مستعيذا أن لا يخرج النفس الزكية من المدينة، وحدثه أن النبي صلي الله عليه وسلم قال : "رأيتني في درع حصينة فأولتها المدينة" فحفر محمد الخندق الذي كان الرسول

صـلي الله علـيه وسـلم حفره مع أصحابه، ودارت مبارزات بين الفريقين تمكن محمد النفس الزكية من مبارزة سبعين رجلا من العباسيين وقتلهم.

صـمد عيسـى وساعدته كثرة رجاله وفرسانه بالنسبة للعدد القليل الذي بقى مع النفس الزكية – أكثر قليلا من ثلاثمائة – بعد أن انصرفوا عنه وكانوا أكثر من مائـة ألـف رجل في أول الأمر – ووضعوا المعابر فوق الخندق، ودخلوا المدينة، وقتلوا كل من كان معه، ورغب فرسان عيسى عن قتله لحرمته وقرابته من الحسن بـن علـي، ولكن ابن قحطبة تجرأ عليه فقتله، وحز رأسه وأرسلها إلي عيسى بن موسى،وكان ذلك يوم الإثنين ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ وكان ابن خمس وأربعين سنة.

القضاء علي إبراهيم في العراق :

وجـه أبو جعفر المنصور قائده المنتصر عيسى بن موسى لمحاربة إبراهيم فـي العراق بعد أن أكتسب خبرة في مقاتلة محمد النفس الزكية في الحجاز وقصد عيسـى بمـن معـه العراق حيث ألتقى بإبراهيم وأتباعه العلويين في باخمري بين الكوفـة وواسط، وكان إبراهيم قد عسكر في هذا المكان لقربه من المكان الذي قتل فـيه الحسـين رضي الله عنه، ولقربه من الكوفة التي اتخذها المنصور مركزا له، ويـبدو أن إبراهـيم اندفع إلي هذا المكان بسبب ما جاءه من معلومات ورسائل من أهـل الكوفة مركز العلويين منذ عهد علي بن أبي طالب، فقد قالوا له : "ان بالكوفة رجالا لو رأوك لقاموا معك".

"ان بالكوفـة مائة ألف سيف كامنة بإزاء عسكر العباسيين، ينتظرون صيحة واحـدة". وصدق إبراهيم مثل هذا القول، ولم يتخذ الحيطة، ولم يعتبر بمواقف أهل الكوفـة المترددة وضعف عزمهم وقولهم ما لا يفعلون، وانفضاضهم من حول علي ومن بعده الحسين، فدارت الدائرة عليه كما سنري.

التحم الفريقان في القتال، علي طريقة المبارزة صفا بعد صف، وأحرز إبراهيم بعض الانتصارات علي جيش عيسى، وقتل بعضا من جنوده، ولكن عيسى صمد في موقعه ولم يتحول عنه حتى يقتل، أو ينال النصر، وتختلف الروايات التاريخية حيث تنسب هذا الصمود تارة إلي حميد بن قحطبة، وتارة أخري إلي عيسى بن موسى وكيفما كان الأمر استمر القتال بين الفريقين، ولم يلبث أهل العراق أن تسللوا من الميدان وانسحبوا من المعركة، وتركوا إبراهيم في قلة من أتباعه، وكان لابد أن تحيق بهم الهزيمة، ولعب ابن قحطبة نفس الدور الدنيء حيث اندفع إلي إبراهيم فأصابه في عنقه، ثم حز رأسه وبعث بها علي رمح عيسى بن موسى، الذي سجد لله شكرا. وانتهت الموقعة في اليوم الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ / سنة ٧٦٢ م، أي بعد مقتل أخيه محمد النفس الزكية بحوالي ، تمكن المنصور من القضاء علي العلويين وكانوا العقبة الثالثة والأخيرة من العقبات الخطيرة التي قابلته في أول عهده بالخلافة.

العوامل التي أدت إلي هزيمة العلويين :

وقع العلويون في أخطاء لعبت دورا كبيرا في هزيمتهم، بل وساعدت إلي حد كبير في القضاء عليهم، من هذه الأخطاء :

١- عامل البيئة، فقد اختار محمد النفس الزكية المدينة لتكون مركزه الحربي الذي يوجه منه الضربات ضد خصومه العباسيين، وليست المدينة بالتي تصلح لهذا الغرض، لأنها - كما يصفها المسعودي في ذلك الوقت وغيره من الجغرافيين والمؤرخين : "بلد ليس به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة" فلو حوصرت، فلن تصل إليها الميرة والإمدادات. ومعني هذا هلاك أهلها وما بها من مقاتلين جوعا وعطشا، ثم طريقة القتال التي أتبعها أنصار العلويين، تدل بوضوح علي عدم القدرة علي التخطيط الحربي والعسكري، إذا أتبع محمد النفس الزكية النظام العربي الذي عفى عليه

الزمـــن منذ أن دخـــل العـــرب الفـــاتحون في معارك دامية مع الفرس والـــروماني، فقــد لفظ خالد بن الوليد تلك الطريقة العربية ولجأ إلي تقسيم جيشـــه وتنظـــيمه ودفـــع بالجـــيش كله كتلة متراصة واحدة فأحرز بذلك الانتصـــارات الـــباهرة، ولكـــن النفس الزكية كان يقدم للحرب (صفا بعد الآخر) وكلما انهزم صف (أو مجموعة) قدم غيرها فسهل علي عيسى ابن موسى هزيمتهم، لأن جيش العباسيين دخل القتال كتلة واحدة متمثلين بقول الله عـــز وجـــل : "إن الله يحـــب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصـــوص". إلي جانب ذلك فقد جهز المنصور جيشه بالأسلحة والمؤن، وواصـــل الإمـــدادات والأعطيات لهم، بينما ترك النفس الزكية هذه الأمور لأنصـــاره كـــل يجهـــز سلاحه ومؤونته بنفسه، وكان معتمدا في ذلك علي العاطفـــة الدينية التي أظهرها الناس للوقوف بجانبه ومناصرته في دعوته. وكـــان للامامين مالك وأبي حنيفة دور كبير في تأجج هذه العاطفة الدينية، فقد أفتى مالك رضي الله عنه بجواز نقض بيعة المنصور، وأيده الإمام أبو حنيفة في ذلك.

٢- انفضـــاض أنصـــار محمد وأخيه إبراهيم عنهما سواء كانوا في الحجاز أو العـــراق، ويرجع السبب في ذلك إلي ما أنزله ولاة المنصور بأهل الحجاز من تعذيب وتنكيل حتى ضاقوا ذرعا بالعلويين وتمنوا خروجهم من المدينة بـــأي شـــكل وعلي أي صورة، وقد قدمنا كيف أن أحد الرجال قال للنفس الزكـــية : "مـــا نجـــد فـــي هذه الأمة أحدا أشأم عليها منك ...". أما في العراق، فقد وصل عددهم مع إبراهيم إلي مائة ألف أو نحوا من هذا العدد، فهذه طبيعة أهل العراق، تذبذب في الرأي وعدم استقرار علي أمر، ونقض لما أعطوه من عهود بالأمس، وكأن الحجاج بن يوسف الثقفي كان قد سبر أغوار نفوسهم حينما وصفهم في خطبته المشهورة بما وصفهم به.

٣- دهـــاء المنصـــور ونكاؤه،بل مكره وخداعه، فقد لجأ إلي نوع من الحرب النفســية ضد أهل خراسان، الذين انحازوا للعلويين انتقاما لمقتل أبي مسلم، حتى يزعزع نفوسهم ويثبط هممهم فأرسل إليهم رأس محمد ابن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان وأوهمهم، إنها رأس محمد النفس الزكية، وبذلك خمــدت الاضــطرابات والفتــن ومـــا كـــان متوقعا من الخراسانيين ضد العباسيين، لأنه لو فرض وعمت الثورات في البلدان التي كان فيها أنصار كثيرون للعلويين في وقت واحد، ولو أن محمدا النفس الزكية أخر ظهوره حتى يتمكن أخوه إبراهيم من تدبير أموره في العراق وظهرا معا في وقت واحــد، لارتــبك المنصــور، ولم تكن لجيوشه القدرة علي مجابهة جهات متعددة في وقت واحد ولتغير وجه التاريخ.

بناء ميناء بغداد :

اطمــأن أبــو جعفــر المنصــور بعد القضاء علي معارضيه وإخماد الفتن والــثورات واســتقرت له الأمور في الدولة العباسية، فكان لزاما عليه أن يتجه إلي العمران الداخلي، وفكر في إقامة حاضرة جديدة لخلفاء بني العباس.

والحقــيقة فكرة إقامة حاضرة للدولة العباسية كانت موجودة عند خلفاء بني العباس منذ اللحظات الأولي لقيام دولتهم، ولكن الظروف السياسية التي أحاطت بهم لــم تمكــنهم من ذلك، ومع هذا فقد بني أبو العباس السفاح (الهاشمية) التي عرفت باســم هاشمية الأنبار، علي الضفة الشرقية لنهر الفرات، في مكان لا يبعد أكثر من عشــرة فراسخ (حوالي ٥٦ كم) عن الموضع الذي أختاره المنصور لإقامة (بغداد) علــيه. وكــان السبب في بناء الهاشمية أن السفاح كره المقام في قصر ابن هبيرة ومدينته لأن الناس كانوا يرددون اسم منشئها وهو من الأمويين أعداء بني العباس.

ولمــا تولــي أبو جعفر المنصور الخلافة بني هاشمية ثانية شمالي الكوفة. وأصبح هناك هاشميتان وظل المنصور مقيما بهاشميته حتى قامت حركة الراوندية

فكــرة الإقامة فيها، وبدأ يفكر في تنفيذ الفكرة القديمة وهي إنشاء حاضرة جديدة للدولة العباسية.

وقد اختلف المؤرخين في تحديد العوامل التي دفعت أبا جعفر في بناء بغداد، ويمكن لنا القول أن هذه العوامل تنحصر في ثلاثة عوامل هي :

أولا : رغــبة أبــي جعفر في إقامة عاصمة جديدة تليق بدولة بني العباس، تنفــيذا لسياسة شيوخ الدعوة العباسية وأسرة البيت العباسي نفسه في المقدمة هذه العاصــمة الجديــدة، لــتكون رمزا لمجدهم، وإشارة إلي أعمالهم، وتمشيا مع من سبقوهم من حكام في إقامة مدن عربية إسلامية مثل الكوفة والبصرة وغيرها. فهم لم يتخذوا دمشق لأنها عاصمة الأمويين، ومركز العصبية العربية في الشام التي لم يســتند إلــيها العباسيون في تشييد دولتهم، ويرى بعض المؤرخون أن الضرورة السياســية وليست الحاجة لأن المنصور بعد مضى قرابة عشر سنوات من حكمه شعر بأن كيانه الشخصي وكيان العباسيين غير مرتكنين إلي أساس قويم يتمثل في مديــنة حصينة تحميهم، خاصة وأن العباسيين لم يطمئنوا إلي الاستقرار في مدن العراق المعروفة وهي الحيرة والأنبار، ثم أن البصرة في مكان بعيد غير متوسط ثــم أن العباســيين لم يشعروا بالأمن والاطمئنان، وهم بين أكثر رعاياهم إخلاصا لهم.

ثانــيا : كانت الكوفة مركز الشيعة العلويين وحصنهم، وكان موقف أهلها واضــحا فــي اختيار علي بن أبي طالب للخلافة بعد مقتل عثمان رضى الله عنه لدرجــة أن عليا جعلها مقره للخلافة، ويري بعض المؤرخين أن سبب تشيع أهل العــراق عامة، وأهل الكوفة خاصة راجع إلي زواج الحسين بن علي بإحدى بنات يزدجــرد آخر ملوك الإمبراطورية الساسانية، فنظروا إليه باعتباره وريثا شرعيا لهذه الإمبراطورية التي ظنوا أن في دورهم احياءها عن طريق هذا التشيع لأبناء علــي بــن أبي طالب رضى الله عنه. ولما قامت دعوة بني العباس أيدها هؤلاء

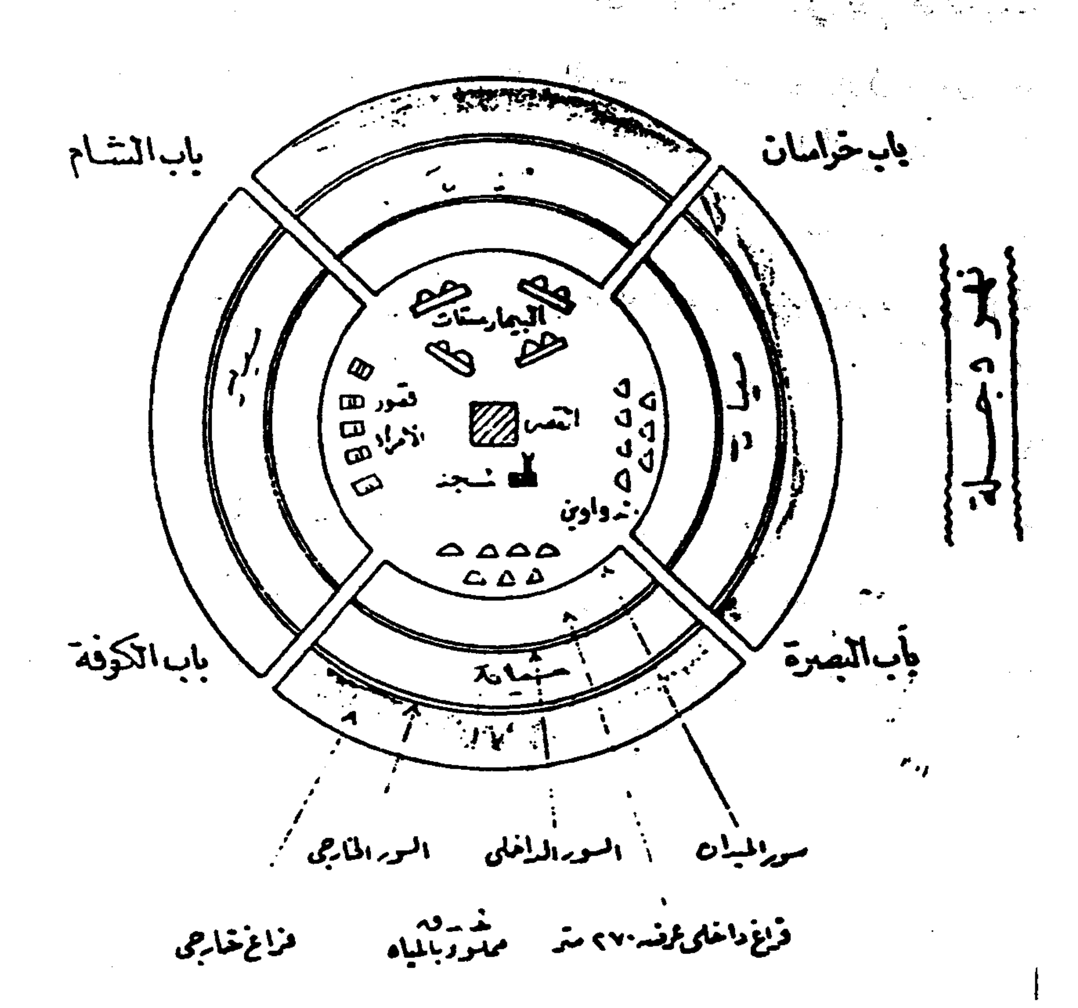
العلويــون ظـــنا منهم أنها للعلويين، فلما أنفرد العباسيون بها، أخذ أهالي الكوفة يحقـــدون عليهم ويكيدون لهم في الخفاء، وأصبحت الكوفة معسكر القبائل العربية النازحة إليها والتي لم تفتر عن إثارة الفتن والقلاقل، حتى أصبح المنصور لا يأمن علـــي نفســـه لمجاورته أهل هذه المدينة، الذين لعبوا دورا كبيرا في إفساد جنوده عليه.

ثالثا : يحاول بعض المؤرخين المحدثين إرجاع سبب بناء بغداد إلي خوف المنصـــور مـــن أتـــباع أبـــي مســـلم الخراساني بعد أن قتله، فلجأ إلي بناء بغداد وتحصينها لتكون حماية له وللعباسيين أمام هجماتهم أو ثوراتهم المحتملة الوقوع، ونحـــن لا ننفـــي هـــذا الاستنتاج، ولن كنا نضيف إليه خوف المنصور من أهالي الكوفـــة نفسها وحركة الراوندية التي أحاطت به في هاشميته وكادت تفتك به مما سبب له عدم الاطمئنان علي حياته وحياة أسرته، إلي جانب ذلك عدم ملاءمة مناخ الكوفـــة للحـــياة، وانتشار مرض الطاعون بها وأخيرا أتباع السياسة التقليدية لولاة المســـلمين مـــن تأســـيس قاعدة لملكهم تشتمل علي قصورهم ودواوين حكومتهم، وثكنات جيوشهم حتى يكون الوالي أو الخليفة بمعزل عن طبقة العامة.

ويصـــف لـــنا الطبري وغيره من المؤرخين أن المنصور خرج بنفسه في حاشـــية يـــرتاد موضـــعا يتخذه مسكنا لو ولجنده، ويبتني فيه مدينة، فانحدر إلي جرجـــرايا، ثم توجه إلي موضع بغداد ثم إلي الموصل ثم عاد إلي موضع بغداد، لأنه استطاب هواءه، ووجد أن المؤن تجلب إليه في البر والبحر (النهر)، وقال أن هذا موضع عسكر صالح بعد أن أقام فيه يوما وليلة، ثم أمر بتخطيط المدينة، بعد أن استشـــار دهقـــان قـــرية مجاورة، وصاحب دير، وبطريق وغيرهم، فبينوا له حصانة الموقع وأهميته الاستراتيجية، حيث قال بعضهم: وتجيئك الميرة من الروم وآمـــد والجزيـــرة والموصل في نهر دجلة، وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك وأنت بين دجلة والفرات لا يجيئك أحد من الشرق والغرب إلا احتاج للعبور، وأنت

متوســط للبصرة، وواسط والكوفة والموصل والسودا كله، وأنت قريب من البر والبحر والجبل.

أشاد المستشرقون بالمنصور لتوفيقه في اختيار المكان الذي بني فوقه بغداد، لأنــه كان موقعا إستراتيجيا حصينا، ومركزا اقتصاديا وتجاريا بارزا. إلي جانب كونــه مكانـــا بتوسط مراكز الحضارات القديمة مثل البابلية والأشورية واليونانية والفارســية ولأن العمـــران سرعان ما انتشر في المناطق التي تحيط بالمدينة التي بـناها المنصور (بغداد) ويعطينا علماء الآثار وصفا دقيقا لمدينة بغداد التي أرادها المنصور دائرية الشكل، حتى لا تكون علي شكل المدن الإسلامية التي بنيت قبلها، لأن هـــذه المدن كانت علي شكل المستطيل أو المربع،وكان قصره والجامع مركزا لهـــذه الدائـــرة التـــي بلـــغ قطرها ٢٢٠٠ ذراعا ويحيط بالمدينة سوران، أحدهما خارجـــي، والآخـــر داخلـــي، وأن تكـــون الأبراج ومراكز الحراسة علي السور الخارجي وأن يكون بينهما خندق مملوء بالمياه، وأن للمدينة أربعة أبواب باب في اتجـــاه خراسان، وباب في اتجاه البصرة، وباب في اتجاه الكوفة، وباب في اتجاه الشام (راجع الرسم التخطيطي).



تخطيط مدينة بغداد

وهــذا التخطيط يوحي بأن أبا جعفر المنصور كانت له دراية جيد بهندسة المعمــار، ويــرى البعض أن هذا التخطيط متأثر بالعمارة الساسانية ولكن العرب أضفوا عليه شيئا من طابعهم.

وفــيما يخــتص بمعني لفظ (بغداد) فله عدة تأويلات، فقيل أنه لفظ فارسي مركــب مــن (داد) بمعنــي رجل، و (باغ) بمعني بستان، فيكون المعني (بستان رجل)، وقيل أن (باغ) اسم إله قديم، و (داد) بمعني (هبة أو عطية) فيكون المعني (هــبة الإله)، وقد سميت بعدة مسميات منها (مدينة المنصور)، والمدينة المدورة، والــزوراء، لأن قــبله مســجدها كانــت منحرفة قليلا نحو الغرب، وقيل سميت بالزوراء، لانحراف نهر دجلة عند مروره بهاء كما سمى الجانب الشرقي من هذا الــنهر بالــروحاء لانبساط مجرى النهر عنده، وكذلك سميت مدينة السلام أو دار الســلام تشبيها لها بالجنة، ومع كل هذه المسميات فقد ظل اسم بغداد هو الأشهر، وهو المتداول وغلب علي الأسماء الأخرى النسيان.

أســتغرق بناء المدينة أربعة أعوام تقريبا من سنة ١٤٥ إلي سنة ١٤٩ هــ (ســنة ٧٦٣ - ٧٦٧م) بعد أن أحضر الخليفة المنصور جمعا من المهندسين ومن لهم خبرة في مجال تشييد المدن وتقسيم الأراضي، كما كتب إلي ولاته في البلدان ليبعثوا إليه البنائين وأهل الحرف المختلفة لتشييد المدينة، فتجمع عنده أعداد وفيرة جدا، ويروي لنا المسعودي أنه كان يعمل في بنائها كل يوم ألف عامل، وأن نفقاتها بلغــت ثمانــية عشــر ملــيونا مــن الديــنارات. ويأخذ بعض المؤرخين العرب والمستشــرقين بهــذا الرأي ويرجحونه، بينما يرى البعض الآخر أن هذه المبالغ ضخمة ومبالغ فيها ويستندون علي رخص الأسعار والرخاء الاقتصادي الذي كان سائدا في هذه الفترة الزمنية.

فكــر المنصــور في استعمال انقاض قصر كسرى الأبيض بمدينة المدائن، فاستشــار خالد بن برمك في ذلك، فنصحه بالعدول عن هذا التفكير، لأن بقاء هذا

القصر يدل علي عظمة المسلمين، الذين فتحوا هذه المدن بفعل الحماس الديني ولم يــأخذ المنصور بنصيحته ظنا منه أن ابن برمك مازال علي تعصبه للفرس فأمر باستعمال أنقاض القصر في بناء بغداد، ولكن تكاليف نقل هذه الأنقاض كان مكلفا فتوقف المنصور عن استعمالها.

ويــبدو أن عادة بعض ولاة المسلمين وحكامهم كانوا يأنسون إلي استشارة منجمــيهم وقراءة الطالع عند بناء المدن، فقد استشار المنصور ثلاثا من المنجمين عــن طالع هذا البناء، فقالوا له ما سره ومن ضمن ما قالوا له : "... أنه لا يموت بها الخليفة أبدا حتف أنفه" فتبسم وقال : الحمدلله علي ذلك، هذا فضل الله يؤتيه من يشــاء، والله ذو الفضل العظيم. وقد صادف الحظ هذا المنجم حيث صدقت نبوءته فلم يمت أحد الخلفاء العباسيين داخل مدينة بغداد.

المــراجع التاريخية تعطينا وصفا شيقا لمدينة بغداد بعد تمام بنائها، فقد بني المنصــور قنوات للمياه تحت المدينة، كما غرس بها الأشجار والبساتين لتجميلها، وزيــن قصره الذي عرف بالقصر الذهبي، وجعل له قبة خضراء، وبأعلاها أقيم تمــثال فارس متحرك، بيده رمح تحركه الرياح فيعرف اتجاهها، وهناك أسطورة تقــول : أن هــذا الفارس كان يتحرك ليبين اتجاه المكان القادم منه العدو في حالة مهاجمــته لبغداد، وقد سمي القصر كذلك باسم القصر الأخضر نسبة إلي هذه القبة ثم بني المنصور قصرا آخر جعله خارج باب خراسان وسماه قصر الخلد. وكانت أســواق المدينة في بادئ الأمر مقامة علي جوانب الطرق الأربعة المتصلة بأبواب المديــنة، ولكن رسل الروم عابوا علي هذا الوضع، لاختلاط الناس بالقادمين من الأمصــار، فأمــر المنصــور بنقل هذه الأسواق إلي جنوب المدينة، في الموضع المعــروف حاليا باسم الكرخ وجعل كل حرفة مكانا مخصصا لها كما أقام في هذا الحــي الجديــد مســجدا حــتى لا يدخل أهلها الي داخل بغداد، وبعض الروايات التاريخــية تذكــر أن بغــداد كانت مدينة خاصة للخليفة العباسي وأهله وحاشيته

وخو صـــه وجـــنوده، ويستدلون علي ذلك بعدم السماح لأحد بالدخول إليها وهو راكب دابته، فالناس يترجلون عند أبوابها ولكن بمرور الوقت أصبحت مدينة عامة فنمـــت وازداد عدد سكانها بالتدريج، حتى وصل في عصر الرشيد حوالي مليون نسمة وهو عدد ضخم جدا بالنسبة لتعداد السكان في هذه الحقبة الزمنية.

كذلــك أمــر المنصور ببناء رصافة بغداد (أو بغداد الشرقية) لتكون ثكنات للجـــنود، وأحاطهـــا بســـور، وحفــر حولهـــا خـــندقا، وجعل فيها ميدانا فسيحا ومســـجدا وبستانا وأجرى الماء فيها، ولكنها لم تتم إلا في عهد خلافة ابنه المهدي سنة ١٥٩ هـــ وسرعان ما انتشر فيها العمران وأخذت في النمو والاتساع، ويذكر اليعقوبـــي أن عـــدد دروبهـــا وسككها بلغ أربعة آلاف، وخمسة عشر ألف مسجد وخمسة آلاف حمام ويبدو لي أن المبالغة واضحة في هذه الأعداد.

أصـــبحت بغـــداد مدينة عالمية ليست قاصرة علي العرب والمسلمين، فقد كـــثرت فـــيها طوائف أهل الذمة من نصارى ويهود، وقد اشتغل هؤلاء بالأعمال المالية (الصرافة) ومحلات بيع المشروبات، كما ظهر منصب المحتسب في بغداد ســـنة ١٥٧ هــــــ - ٧٧٤ م، وكانـــت مهمته الإشراف علي الأسواق وما بها من تجارات وصناعات.

من الأعمال الهامة للمنصور كذلك أنه وسع المسجد الحرام سنة ١٣٩ هـــ / ٧٥٦ م، ويعتبر أول من فرش أرض بئر زمزم بالرخام، وأقام عليه الشباك. كذلك أحـــاط كـــلا مـــن مدينتي الكوفة والبصرة بسور سنة ١٥٥ هـــ / ٧٧٢ م، ربما ليجعلها علي نمط بغداد، وقد بلغت هاتان المدينتان درجة عظيمة من النمو والتقدم في عهد الخلفاء العباسيين. كما رمم بعض المباني والقصور الفارسية مثل القصر الأبيض.

ومن المؤسف حقا أن التاريخ لم يحفظ لنا شيئا من المنشآت المعمارية التي شيدها المنصور وخلفاؤه من العباسيين، علي عكس المنشآت المعمارية التي بناها

خلفـــاء بنـــي أمية فقد حفظها التاريخ لنا لتكون شاهدا علي عظمة الدولة العربية الإســـلامية فـــي عهدهم. ويرجع بعض المؤرخين وعلماء الآثار سبب اندثار آثار العباســـيين إلي أنها بنيت من (اللبن) وتعرضت للذوبان بسبب ما أصابها من مياه الفيضـــانات في دجلة والفرات، كما شاركت بعض الزلازل التي حدثت في العراق فـــي تدمير هذه المنشآت، كما كان للفتن والثورات التي اجتاحت بغداد في العصر العباسي الأول أثرها في اندثار هذه الآثار العظيمة.

موقف المنصور من الدولة الأموية في الأندلس :

حقـــيقة أن أبـــا جعفر المنصور قضى علي كل خصوم الدولة العباسية في المشـــرق الإســـلامي، ولكن كان هناك خصم خطير وعنيد يتمثل في وجود دولة أموية بالأندلس قامت سنة ١٣٨ هـــ، علي أيدي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، المعروف باسم عبد الرحمن الداخل.

كانـــت دولة الأمويين في الأندلس مستقلة عن الدولة العباسية سياسيا فقط، لأنها كانت تابعة للخلافة العباسية من الناحية الروحية، فقد ظل خلفاء الأمويين في الأندلس في تبعيتهم للخلافة العباسية في بغداد يدعون لهم علي المنابر، ويستمدون نفوذهـــم الدينـــي منهم منذ عهد الأمير عبد الرحمن الداخل حتى عهد عبد الرحمن الثالث الذي أعلن نفسه خليفة سنة ٣١٦ هـــ / سنة ٩٢٨ م وتلقب بالخليفة الناصر، فأصـــبح الدعاء يوجه له علي جميع المنابر بالأندلس وبذلك استقلت الدولة الأموية في الأندلس وسياسيا وروحيا عن الخلافة العباسية.

وإذا تســـاءلنا كـــيف ينتســـب الأمويين في الأندلس إلي العباسيين وهم ألد أعدائهـــم؟ فجوابـــنا علـــي ذلـــك يرجع إلي أصل نظرية الخلافة عند أهل السنة، فالخلافـــة ينبغـــي أن تكون واحدة، والخروج عليها عصيان ديني، والخليفة حامي الحرمين الشريفين، لهذه الأسباب كان علي الدولة الأموية بالأندلس أن تكون تابعة

للخلافـــة العباســـية من الجوانب الروحية رغم ما بينهما من عداوة شديدة، ثم أن الأمويين ينتمون إلي مذهب أهل السنة.

الظـــروف السياسية في العالم الإسلامي حتمت الخروج علي أصل نظرية الخلافـــة، فعندما قامت في شمال أفريقية خلافة شيعية هي (الخلافة الفاطمية) التي أصبحت تهدد كيان الدولة الأموية في الأندلس، أقدم عبد الرحمن الثالث علي اقامة خلافة أموية في الأندلس لكي يقاوم نفوذ الخلافة الفاطمية القريبة منه وبذلك أصبح العالم الإسلامي يضم خلافة عباسية، وخلافة فاطمية، وخلافة أموية.

كـــان من الطبيعي الا يقبل المنصور بوجود دولة أموية فعزم علي القضاء علـــي عبد الرحمن الداخل ودولته في الأندلس، ففي سنة ١٤٦ هـــ / سنة ٧٦٣ م أرســـل المنصور إلي الأندلس زعيما عربيا اسمه العلاء بن مغيث الجذامي وطلب منه القيام بثورة والقضاء علي عبد الرحمن ووعده إمارة الأندلس أن هو نجح في ثورته.

دخل العلاء الأندلس وأخذ يدعو سرا لأبي جعفر المنصور وتبعه عدد كبير خاصـــة مـــن اليمنية التي كانت تكره عبد الرحمن بن معاوية لميله إلي المضربة، وقام العلاء بثورة في مدينة باجه (في جنوب البرتغال الحالية) واستطاع أن يحرز نصرا ظاهرا في أول الأمر ولكن شجاعة عبد الرحمن وعبقريته الحربية مكنته من إنـــزال هزيمة مرة بالثوار في مدينة قرمونه وقطع رأس العلاء وحنطها وأرسلها سرا مع أحد أتباعه المخلصين، حيث وضعها أمام قصر المنصور، فلما حملت إلي المنصور انزعج بشدة وقال "الحمدلله الذي جعل بيننا وبين عبد الرحمن بحرا" وآثر مهادنـــته وعـــدم تحـــريك أي ثورة ضده. وكان المنصور علي رغم عدائه لعبد الرحمن الداخل. يشيد بشجاعته، ويعترف بقدرته القيادية، ولذلك أطلق عليه صقر قريش.

فتن الخوارج والقضاء عليها :

مــن العقــبات التي اعترضت الدولة العباسية في أول عهدها ظهور بعض الخــوارج في جنوب شرقي الجزيرة العربية فقد عاد شيبان بن عبد العزيز وكنيته أبو الدلفاء إلي الظهور في عمان، وآثار المتاعب للخليفة المنصور فبعث إليه خازم ابــن خزيمة بجنود من أهل خراسان فقضى علي حركته، كذلك أخضع المنصور منطقة البحرين التي كانت تعج بالخوارج، وجعل البصرة مركزا أماميا لمحاربتهم.

كمــا ظهــرت مجموعة أخري من الخوارج في بلاد الجزيرة العربية سنة ١٣٨ هـــ بقيادة ملبد بن حرملة الشيباني، فأرسل المنصور إليه حميد بن قحطبة، ولكن ابن قحطبة، لم يتمكن من هزيمته لشدة بأسه وعناده وقوته، فعرض عليه ابن قحطبة مائة ألف درهم ليكف عن القتال، فأرسل المنصور خازم بن خزيمة، فتمكن من هزيمة هذا الخارجي وقتله مع كثير من أتباعه.

وفــي ســنة ١٤٨ هــ ظهر رجل من الخوارج اسمه حسان في الموصل، وأراد المنصور أن يفتك بأهل الموصل جميعا، ولكن الامام أبا حنيفة النعمان رده عن رأيه، فتخلى المنصور عن فكرته.

ولــم يقتصــر ظهور الخوارج علي المناطق التي ذكرناها في العراق وفي عمــان بل تعداه إلي بلاد المغرب العربي، إلي جانب بعض الولاة الذين دخلوا في طاعــة العباسيين ثم خرجوا عليهم لسبب أو لآخر. ففي سنة ١٣٧ هــ خرج عبد الرحمــن بــن حبيــب الفهري عن طاعة المنصور، لأنه تلقى اهانات مكتوبة من المنصور بسبب امتناعه عن إرسال رقيق من البربر فحرض المنصور عليه أخاه إلياس بن حبيب فقتله.

وفـــي ســـنة ١٤٢ هـــ / سنة ٧٥٩ م أرسل المنصور حملة قومية بقيادة محمـــد بـــن الأشعث الخزاعي - عامله علي مصر - ضد الخوراج الأباضية في المغرب، وانتهت هذه الحملة بهزيمة الخوارج في طرابلس الغرب سنة ١٤٤ هـــ / ٧٦١ م.

وفـــي ســـنة ١٥٤ هـــــ / ٧٧١ م عاودت الخوارج الأباضية للظهور في القـــيروان، فذهب المنصور بنفسه إلي الشام وجند خمسين ألفا من المرتزقة، ودفع ٦٣ مليون درهم في تجهيزهم، وضمهم إلي جيش مصر بقيادة يزيد بن حاتم الذي أبـــاد الأباضية في القيروان، وضمهما إلي حكمه في ربيع الأول سنة ١٥٥ هـــ / ٧٧٢م.

حروب المنصور مع الإمبراطورية البيزنطية :

انـــتهزت الدولة البيزنطية فرصة اضطراب الأوضاع في المشرق وخاصة فـــي خراســـان، بسبب مقتل ابى مسلم الخراساني، وهاجم الإمبراطور قسطنطين الخـــامس مدينة ملطية في الشام ودخلها عنوة ١٣٨ هـــ / ٧٥٥ م، وكانت في يد المســـلمين منذ أن فتحها معاوية علي عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وكانت ملطية من أحسن ثغور المسلمين في هذه النواحي مما مكن الإمبراطور قسطنطين من الاستيلاء علي عدة ثغور أخري.

أرســـل المنصـــور أخـــاه العـــباس بـــن محمد، ومعه عمه صالح بن علي ومجموعـــة من القواد في أربعين ألف مقاتل وتمكن العباس من استعادة ملطية في العـــام التالي سنة ١٣٩ هـــ / ٧٥٦ م فأمر المنصور بتحصينها وإعادة ترميمها، كما حصن الثغور القريبة منها.

فكر المنصور في غزو الروم في عقر دارهم، ولكنه قبل أن يقدم علي هذا العمل جدد نشاط الأربطة (جمع رباط) فشجع الخراسانيين علي الجهاد والانضمام

إلـــي إخوانهـــم فـــي هـــذه الأربطـــة وخصص لهم الأرزاق، وبني لهم البيوت والأصـــطبلات ووفـــر لهم الأسلحة وأقطعهم المزارع، كما شجع الجنود المرتزقة علـــي الانضمام لجيوشه، واستنفذ أسرى المسلمين من الروم فأحيا ما كان معروفا في عهد الراشدين وعمر بن عبد العزيز باسم (الفداء) ، فلما تمت له هذه الأعمال كلهـــا أرســـل الصـــوائف والشـــواتي لغزو القسطنطينية نفسها، ومن أشهر قواد الصـــوائف مالك بن عبد الله الخثعمي الذي لقب بملك الصوائف، وصالح بن علي وأخوه عيسى وهما عما المنصور ...

وهكذا تمكن المنصور في عصر خلافته الذي أمتد اثنتين وعشرين سنة من القضاء علي كل الخارجين عليه، وعلي الدولة العباسية، فأرسى أركان ملكه ومكن للخلفاء العباسيين من بعده، ولهذا أعتبره المؤرخون أعظم خلفائهم علي الإطلاق.

خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد :

اســـتقرت أمور الدولة كلها بين يدي الخليفة المنصور بعد أن أستعمل ولي عهده عيسى بن موسى في القضاء علي العلويين في الحجاز والعراق، وفي إقناع أبي مسلم الخراساني بالحضور إلي الخليفة ليقدم اعتذاره، ويعلن والولاء والطاعة لـــه، فقـــتله المنصور وربما بدأت الجفوة بين عيسى والمنصور بسبب مقتل أبي مســـلم، وشـــعور عيســـى بأن الخليفة المنصور خدعه وأستخدمه طعما لإحضار خصـــمه عنده، فتدخل عند المنصور لكي يبقي علي حياة أبي مسلم، ولكنه رفض ذلك وأخذ المنصور يمهد الأمور ليجعل ولده محمدا وليا لعهده بدلا من عيسى بن موسى فعمد إلي إظهار ولده أمام الناس ولقبه بالمهدي كما أسند إليه بعض الأمور الهامة في الدولة ليكسبه الخبرة، ويجمع قلوب الناس حوله فتكون له شعبية تسانده فبعث به إلي خراسان، مركز نجاح الدعوة العباسية، وأهم الولايات بها ليخفف من ثورتهم النفسية بسبب مقتل أبي مسلم، فأخذ ينقل منهم جنودا كثيرة، ويسكنهم مدينة الرصـــافة (رصـــافة بغـــداد) ليألفوا حياة رغدة أعدها لهم المنصور فيتألفهم بذلك

ويصبحون جنودا لولده محمد المهدي، وينجح المنصور في سياسته إلي حد كبير، وأخذت قلوب الناس وأنظارهم تتجه إلي ولده محمد المهدي ليكون ولي عهده.

طلب المنصور من عيسى بن موسى أن يتنازل لابنه محمد عن ولاية العهد فرفض عيسى ذلك وقال : "يا أمير المؤمنين، كيف أصنع بالإيمان التي في رقبتي، وفـــي رقاب الناس بالعتاق والطلاق والحج والصدقة؟ ليس إلي الخلع سبيل" فتغير المنصور عليه، وأصبح يقدم عليه في مجالسة ابنه محمد المهدي، ويتعمد الحط من شأنه فيجلسه في أماكن بعيدة منه ويوعز لبعض خدمه المخلصين يذر التراب فوق رأسه، وهو مقبل إلي المنصور فيدخل عليه مقربا فإذا سأله المنصور عن مصدر الـــتراب فـــوق رأســـه يلـــوذ بالصـــمت ولا يشكو، ثم ضيق عليه الخناق بشكل أكـــثر فعزله عن الكوفة بعدما وليها أكثر من ثلاث عشرة سنة، كما دبر له مكيدة حيـــث دفـــع إلـــيه عمه عبدالله وأمره بقتله، وكان غرض المنصور أن يقتص من عيســـى بالقتل بعد ذلك، فتنبه عيسى لما دبره له، فلم ينفذ ما أمره به، وأخيرا لجأ إلي الطريقة المألوفة عند الأمويين فسقاه ما يتلف صحته (شرابا مسموما). وهدده بقتل ولده أن لم يخلع نفسه.

صـــمد عيســـى أمام كل هذه الإهانات وتمسك ببيعته وبيعة الناس له، فدفع المنصور الجند الخراسانية الذين أحضرهم المهدي وأغراهم بشتم عيسى وإهانته. فلمـــا اشـــتكى عيســـى للمنصور قال له: أني والله أخافهم عليك وعلي نفسي، فقد أشـــربت قلوبهـــم حب ذلك الفتي، يعني المهدي، فلو قدمته بين يديك ! عندئذ خلع عيســـى نفســـه وبـــايع المهـــدي، ويذكر الطبري (أن قواد الجند أجبروه علي هذا التـــنازل، فأرســـل المنصور إليه خالد بن برمك (كاتبه الخاص) ومعه ثلاثون من شيوخ بني العباس، وأخذوا توقيعه علي تنازله). ثم حضر عيسى مجلس المنصور، وفـــيه وجوه الإشراف والقادة فشهد علي نفسه بالخلع وقدم محمد المهدي، وبايعه، وفـــي مقابل ذلك أعطاه المنصور مبلغا كبيرا من المال كتعويض له، قدره البعض

بعشـــرة ملايــــن درهم واختصره البعض الآخر إلي عشرين ألف درهم، ونحن نرجح القول الأخير لما شهر عن المنصور بالحرص الشديد في المسائل المالية.

صفات المنصور وأخلاقه :

كان المنصور أسمر اللون، نحيفا طويلا خفيف العارضين أعظم خلفاء بني العباس شدة وبأسا ويقظة، وحزما وصلاحا واهتماما بمصالح رعيته، ولا غرو أن أعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، شأنه في ذلك شأن عبد الملك بن مروان الأموي، وكان أعظم بني العباس هيبة وشجاعة ورأيا، وكان يميل إلي الجــد، تاركــا اللهو، جيد المشاركة في العلم والأدب متفقها ولكنه كان محبا لجمع المـــال، حـــريص الـــنفقة منه، ولذلك سمي الداونيقي، كما كان محبا للنظام، فكان يجلـــس صدر النهار للنظر في أمور الدولة ويجلس مع أهله بعد صلاة العصر ثم ينظر فيما يرد عليه من كتب بعد صلاة العشاء، وكان يشاور وزيره وأهل خاصته في بعض الأمور، فإذا مضي ثلث الليل الأول انصرف الحاضرون عنه وآوي إلي فراشـــه ليـــنام ثلـــث الليل، ثم يقوم الثلث الأخير يتعبد في محرابه ويصلي بالناس الفجر.

سمع المنصور ذات ليلة جلبة في داره، فذهب ليرى مصدرها، فوجد خادما يجلس بين الجواري ويضرب لهن بالطنبور، وهن يضحكن، فمشى علي مهل حتى أشرف عليهن، فلما رأينه تفرقن فأمر المنصور خادمه الخاص (حماد) بأن يضرب رأس الخادم بالطنبور، ففعل حتى أنكسر الطنبور، فأمر المنصور بطرد الخادم من قصره.

بلغـــه أن عاملـــه علي همذان ظلم رجلا من رعيته، وحبسه، واستولى منه علي ضيعة بثمن بخس، فأرسل من أحضر هذا المظلوم، واستمع إلي شكايته، ورد عليه أرضه وعاقب عامله فعزله وولاها لهذا الرجل، ولكنه أعتذر لكبر سنه.

يـروي المؤرخـون الكثير عن حرص المنصور علي المال لدرجة غير معهـودة، مـن ذلـك مفاصلته لبناء عمل له طاقا في قصره فأصاب أجره خمسة دراهـم، فاسـتكثرها المنصـور وساومه حتى أنقصه منها درهما، وتفاوض مع صـاحب مطـبخه علـي أن يأخذ رؤوس الذبائح والأكارع والجلود في مقابل أن يحضـر بدلهـا الحطـب والتوابل. كما كان يلبس الخشن من الثياب، وربما رقع قميصـه، فلما قيل ذلك لجعفر بن محمد الصادق قال : "الحمد لله الذي ابتلاه بفقر نفسـه فـي ملكه" ومهما بلغت درجة الحرص علي المال عند المنصور فهذا أمر شخصـي يرجع إليه، ولكن ما يؤخذ عليه حقا ميله لسفك الدماء، إن لم يكن قد بلغ في ذلك ما بلغه أخوه أبو العباس السفاح من قبله، وغدره بمن أعطاهم الأمان (ابن هبيرة عمه عبدالله وأبي مسلم) – وعدم تقيده بما تعهد به، ومما يؤخذ عليه في هذا الجانـب أنه كان قد تعهد لزوجته بعدم الزواج عليها، فلما ولي الخلافة واستقر بها مدة طويلة، أخذ يستفتي الفقهاء لفسخ تعهده، ولكن الحظ ساعده بأن زوجته توفيت ومن الطبيعي أن مثل هذا العمل يعرض فقهاءه وقضاته للهرج ومخالفة ضمائرهم وعدم رعاية ذممهم.

توفـي المنصور في اليوم السادس من ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ / أكتوبر سـنة ٧٧٥م، بالقـرب مـن مكـة أثناء ذهابه لتأدية فريضة الحج وقيل أنه مات (بالبطـن) بسـبب كثرة طعامه، وكثرة الجوارشنات (مادة هاضمة للطعام كثرتها تسـبب قرحة شديدة) التي كان يتناولها، وقد اختلف المؤرخون في سنة يوم وفاته وذكروها ما بين الثالثة والستين والخامسة والستين عاما.

محمد المهدي

١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٧ - ٧٨٥ م

أخذت له البيعة بمكة يوم وفاة أبيه المنصور، لأن الناس سبق لهم أن بايعوه بولاية العهد، وكان الشاعر أبو دلامة اول من هنأه بالخلافة وعزاه في وفاة أبيه في قصيدة رائعة منها :

عيناي واحدة ترى مسرورة بأميرها جذلي، وأخرى تذرف

تبكي وتضحك تارة ويسوءها ما أنكرت ويسرها ما تعرف

فيسوءها موت الخليفة محرما ويسرها أن قام هـذا الأراف

وبعـد أن تمت البيعة له، ألقي المهدي خطبة في الناس عبر فيها عن حزنه الكبير لوفاة أبيه وعن عظيم المسئولية التي ألقيت علي كاهله ومن ضمن ما قاله :

"... لقد فارقت عظيما، وقلدت جسيما، وعندالله احتسبت أمير المؤمنين، وبه عز وجل لمستعين علي خلافة المسلمين" ثم غلبه البكاء ولم يتمكن من الحديث.

تمـيز حكم المهدي الذي استمر أكثر من عشر سنوات بالاستقرار السياسي والاجتماعي، لأن أباه المنصور كان قد قضى علي الفتن والثورات، وأورثه الملك ثابت الدعائم، شامخ البنيان، مملوء الخزائن بالوفير من الأموال؛ فاتجه المهدي إلي الحياة العمرانية فعكف علي الفنون المعمارية وأكمل أبنية الرصافة، وشيد سورها، وأقـام مسجدها، وزاد في مساحة المسجد النبوي الشريف وجمله بالفسيفساء وزاد مـن أعمدته، كما كسا الكعبة المشرفة بالقباطي والخرز والديباج، ودهن جدرانها بالعنـبر والمسك، ولكنه طمس اسم الوليد بن عبد الملك من حائط المسجد الحرام ووضع اسمه مكانه. وأمن طريق الحج فعين به الحراس وبني الأسبلة علي طريق

بغـداد ومكة والمدينة واليمن، كما أقامه بين بغداد وجرجان عند بحر قزوين ولم يكن موجودا بها من قبل، فسهلت الاتصالات.

وانتعشـت الحـياة الاقتصـادية، وأصبحت بغداد في عهده مركزا للتجارة العالمـية، كمـا أمـر بتوسـعة المسـجد الجامع بالموصل سنة ١٦٣ هـ ونزع المقصورات في صلاة الجماعة، واختصر في عدد درجات المنابر وجعلها علي ما كانت عليه في عهد رسول الله صلي الله عليه وسلم.

ومن أعماله الداخلية أيضا أنه زاد في الدواوين التي أنشأها أبوه المنصور، مـثل ديـوان الأزمة وجعل له فروعا في أنحاء دولته، وكانت مهمة هذا الديوان مراجعة الحسابات المالية (أشبه ما يكون بديوان المحاسبة في مصر). وشيد الدور (أشـبه بالملاجـئ أو المستشـفيات) للمرضى، وخاصة مرضى الجذام الذي كان منتشـرا فـي ذلـك العصر. ونظر في المظالم وجعله من مراسم الدولة ونظمها القضـائية الثابـتة، فأعاد ما كان أبوه المنصور صادره من أموال إلي أصحابها، وأخرج المسجونين السياسيين، وعفا عنهم ورد عليهم حريتهم وكرامتهم، وخاصة العلوييـن الذيـن انتهزوا هذه الفرصة فعادت الشيعة الزيدية إلي الظهور وأخذت تناصر العلويين للظهور بعد أن كانوا مضطهدين.

كان المهدي مولعا بالموسيقي والغناء، فكان بلاطه مزدوحما بالمغنيين وذي المواهب الفنية، فكان إبراهيم الموصلي وسياط وغيرهم من الزوار الدائمين لقصر المهـدي. ويعتـبر إبراهـيم الموصـلي صاحب أحسن صوت في الغناء في ذلك العصر، مما جعله رائدا للفن الموسيقي في بغداد وفارس. وربما كان ميل المهدي للموسـيقي والشـعر والغناء هو السبب في اختلاف آراء المؤرخين فيه، فوصفه الـبعض بأنـه محـب لحياة اللهو والترف والمجون التي ملأت قصر الخلافة في عصـره، ولـم يعرفها المنصور ولا السفاح من قبله، بينما أعتبره البعض الآخر متمما لسياسة أبيه الإصلاحية، لأن هذه المسائل لم تؤثر علي هذه السياسة.

يـــري بعض المؤرخين أن الخليفة المهدي كان يميل بشكل كبير إلي أهل خراســـان (الموالـــي) ، لدرجة أنه أصبح واقعا تحت نفوذهم، ويرجع ذلك إلي أن الدولـــة العباسية قامت علي أكتافهم، وأنهم شغلوا أهم المناصب فيها، وأصبح لهم نفوذ يؤثر علي سياسة الدولة، فقد شغلوا مناصب الوزارة، وقيادة الجيش، وأحاطوا بالخليفة المهدي حتى لا يجد فرصة يخلو فيها بالعرب. وقد بلغت درجة نفوذهم أن فـــوض المهـــدي تدبـــير شئون الدولة لأبي عبيد الله معاوية في سنة ١٥٨ هـــ / سنة ٧٧٥ م، ومن بعده ليعقوب بن داود بن طهمان في سنة ١٦٣ هــ/سنة ٧٧٩م، وكلاهما من الموالي فاستبد كل منهما بشئون الحكم، وسيطر الموالي علي الدواوين فـــي شـــرق البلاد وغربها، وقد عبر الشاعر بشار بن برد عن هذه السيطرة من جانب الموالي بقوله :

بني أمية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود

تعـــدت هـــذه السيطرة الدواوين إلي القصر الخليفي نفسه، فقد تدخل رجال الحاشـــية في شئون الحكم، فثارت الأطماع، وظهرت المؤامرات، ومن أهم الذين بـــرزوا في هذا التدخل الربيع بن يونس وأصله غير معلوم، فقد تدخل في كل شئ بالدولـــة، وكـــان لنساء القصر دورهن الخطير في هذا التدخل، فالخيزران كانت جارية من المغرب أعتقت وتزوجها المهدي سنة ١٥٩ هـــ / ٧٧٦ م، وأنجبت منه موســـى الهـــادي وهرون الرشيد، سيطرت الخيزران علي شئون الدولة، وأصبح الأمر والنهي لها، فازدحم قصرها بالعظماء والوزراء وأصحاب الحوائج.

نتيجة لازدياد نفوذ الموالي في عهد المهدي تسربت بعض أفكارهم العقائدية الســـابقة علـــي الإســـلام، مما أدي إلي ظهور الزندقة التي ارتبطت بمذهب ماني (٢١٥ – ٢٧٦ م) الذي ظهر في أواخر عهد سابور ملك الفرس (٢٤١ – ٢٧٢ م) وكـــان مذهـــب مانـــي يقول بالخير ومعبوده (النور) وبالشر ومعبودة (الظلمة) ، وتناســـخ الأرواح. كذلك ارتبطت الزندقة بمذهب فردك الذي ظهر في عهد الملك

قـباذ الأول سنة (٤٤٨ – ٥٣١ م) حوالي قرنين من الزمان بعد ماني، وقد تابع فــردك مانـــي فـــي مذهبه، وقد ألتف الكثير جدا حول فردك واعتقدوا أنه نبي، وانتشرت الزندقة، وكثر الملحدون.

موقف المهدي من الزنادقة :

لـــم يكن للمهدي أن يتراخى علي أمر يمس الدين من قريب، وبالتالي يمس دولـــته، فقد استباح الزنادقة أمورا حرمها الإسلام أبسطها شرب الخمر، إلي جانب المجون الذي أنتشر في أوساط متعددة في الدولة العباسية، ويكتفي أن نضرب مثلا ببشـــار بـــن برد الذي كان يؤيد أبليس في عدم سجوده لآدم عليه السلام بحجة أن الـــنار أفضـــل مـــن التراب، فأمر المهدي بضربه سبعين سوطا فمات فيها. كذلك انتشـــرت مـــبادئ الـــراوندية التي كان يدعو إليها هاشم بن حكيم ويعرف بالمقنع الخراساني، وكان أنصاره يلبسون البياض فسموا المبيضة، وكانوا يعتقدون بتناسخ الأرواح، وجعلـــوا لأبي مسلم الخراساني أفضلية علي نبي الهدي ورسول الإسلام صـــلي الله علـــيه وســـلم في زعمهم. كما أسقطوا التكاليف الشرعية مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج، وأباحوا شيوع المال والنساء.

جرد المهدي حملة للقضاء علي الزندقة، وأوقع بالزنادقة والملحدين وأوكل بهم صاحب الزنادقة، وخصص لهم سجنا حتى لا يفسدون عقيدة من يختلطون بهم فـــي الســـجن، خاصـــة وأن والـــده المنصور كان حذره منهم، وطلب إليه قمعهم والقضـــاء علـــيهم، ونجح المهدي إلي حد كبير في إخماد فتنتهم، وإطفاء جذوتهم، وأصبحت محاربتهم تقليدا سار عليه من جاءوا بعد المهدي في الدولة العباسية، إلا أن المهـــدي استغل محاربته محاربته للزنادقة، للتخلص من أعدائه، فلكي يتخلص من كتابة صالح بن أبي عبيد الله دعاه عنده وأمتحنه في تلاوة القرآن فلم يتمكن من الـــتلاوة، فطلـــب من أبيه – وكان وزيرا للمهدي – أن يضرب عنقه ثم عزله بعد ذلك.

موقف المهدي من الدولة البيزنطية :

ســاءت العلاقــات بيــن الخلافــة العباســية في عهد المهدي وبين الدولة البيزنطــية، بســبب اســتمرار اغارات الصوائف والشواتي علي عاصمة بيزنطة وسواحلها مما ألحق أضرارا جسيمة بممتلكاتها، فمنذ سنة ١٥٩ هـــ / سنة ٧٧٥ م وحمــلات المهــدي مستمرة علي بيزنطة وقد أراد حاكم أزمير ميخائيل لا خانود راكــون. Michael le-Khanod Racon أن يرد علي هذه الإغارات العباسية، فخــرج فــي ٨٠ ألــف مــن جنوده سنة ١٦١ هـــ / ٧٧٨ م ووصل إلي حصن (الحــدث) وكان المسلمون اتخذه قاعدة لهم في منطقة الثغور، (جبال طورس) منذ أيام معاوية، ومنه اتجه إلي حصن مرعش في الجنوب، فأحرقوه وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين سنة ١٦٢ هـــ / ٧٧٩ م.

أرســل المهــدي حملــة قوية من المتطوعين والمرتزقة بقيادة الحسن بن قحطــبة، فتمكــن مــن استعادة هذه الأماكن ورممها وبناها من جديد، وتوغل في أغارتــه حــتى وصل إلي قرب القسطنطينية عاصمة البيزنطيين، فدمر كثيرا من المبانــي، وأحــرق كثيرا من المنشآت لأنه لم يلتق بجيش بيزنطي يدخل معه في معركة.

خــرج المهــدي بنفســه ومعه ابنه هرون الرشيد علي رأس حملة لم تشهد الدولــة الإســلامية مثلها، وضرب وعسكره في البردان سنة ١٦٣ هـــ / ٧٨٠ م المؤديــة إلــي طرسوس ومكث بها شهرين فانضمت إليه حشود عظيمة من أهل خراســان، ومــن هــناك أرسل أبنه هارون ومعه نخبة من القواد مثل الحسن بن قحطــبة، وخــالد بــن رماد، وولده يحيى، والربيع الحاجب، وتوغلت الحملة في أراضــي الدولة البيزنطية، وفتحوا بعض الحصون التي اندثرت بعد ذلك. ثم عاود المهــدي إرسال ولده هارون بعد عامين سنة ١٦٥ هـــ / ٧٨٢ م علي رأس حملة بلــغ عدد جنودها مائة ألف، فوصل إلي مشارف أنقرة علي خليج البسفور، وأنزل

بالـــروم خســـائر فادحة قدرها المؤرخون بـــ ٥٤ ألف قتيل وخمسة آلاف أسير، و ٢٠ ألف دابة، و ١٥٠ ألف من البقر والغنم، ويرجع بعض المؤرخين أن هرون لقب بالرشيد وأسندت إليه ولاية العهد بعد أخيه موسى الهادي نتيجة لهذا الانتصار العظيم.

ترتـــب علـــي استمرار الحملات الإسلامية على الدولة البيزنطية، وأحرز المســـلمين في معظم الحملات علي الغنائم والنصر، أن طلبت الإمبراطورة أيرين الصلح سنة ١٦٧ هـــ / ٨٧٣ م، فوافقها هرون بشرط أن تدفع جزية سنوية سبعين ألـــف دينار وأن تعيد أسرى المسلمين، فأقر المهدي شروط هذه المهانة لمدة ثلاث سنوات.

المهدي والدولة الأموية في الأندلس :

واصل المهدي سياسة أبيه المنصور التقليدية في محاولة استرجاع الأندلس إلـــي حظـــيرة الخلافـــة العباسية، فدبر مؤامرة واسعة النطاق، استعان فيها بقوة شارلمان وكان أقوى ملوك أوربا في تلك الفترة، ورحب شارلمان بهذه الدعوة، لأن مشـــروع غزو أسبانيا يكسبه نفوذا في العالم المسيحي، وفي المشرق الإسلامي – خلافة العباسيين – ويزيد من قدره علي الإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية، خصوصا وأنه كان مهتما في تلك الفترة بإعادة تكوين الإمبراطورية الرومانية في الغـــرب. تزعم هذه المؤامرة رجلان أولهما : سليمان بن الأعرابي، وكان حاكما لمدينة سراقسطة Zaragza في شمال أسبانيا، وتعرف بالثغر الأعلي، لأنها مركز الخطـــوط الدفاعية الأمامية في أسبانيا، وقد أشترك ابن الأعرابي في هذه المؤامرة لخلاف بينه وبين الأمير عبد الرحمن الداخل، ولأنه كان من اليمانية المتعصبة.

ثانـــيهما : عـــبد الرحمن بن حبيب الفهري ويعرف بالصقلبي لطول قامته، ولونـــه الأشقر. كانت خطوط المؤامرة أن يعبر شارلمان جبال البرانس (البرتات) بجـــيش كبير حتى يصل إلي سراقسطه فيسلمها ابن الأعرابي له وفي نفس الوقت

يأتـــي ابـــن حبيب الفهري بجيش كبير وأسطول من ساحل أفريقية وينزل بمدينة مرسيه علي الساحل الشرقي للأندلس، ويعلن أن المهدي الخليفة العباسي هو الحاكم الشرعي للبلاد، وأن شارلمان حليفه، وبذلك يطبقون علي عبد الرحمن الداخل من كل ناحية ويقضون علي حكمه. ومع أن هذه المؤامرة تبدو محكمة الخطة إلا أنها صعبة التنفيذ لأن عملية نقل جيوش كبيرة العدد من مكان لآخر في مواعيد محددة في تلك الفترة الزمنية كان من الصعب نجاحها.

في سنة ١٦٠ هـــ / ٧٧٦ م نزل ابن حبيب الفهري بجيش من البربر علي ســـاحل مرســـيه قـــبل أن يصل شارلمان وجيشه في الموعد المتفق عليه، وكانت فرصــــة لعبد الرحمن الداخل أن يقضي علي خصومه منفردين، كل مجموعة علي حــدة، قـــبل أن يجتمعوا ضده ويصبح من الصعب مواجهتهم، أسرع عبدالرحمن الداخـــل بجيشه إلي مدينة مرسيه وأحرق سفن ابن حبيب الفهري، وأحدق بجيشه وحاصره فاستغاث ابن الفهري بشريكه في المؤامرة سليمان بن الأعرابي، ولكنه لم يتمكن من عمل شئ، وأنتهي الأمر بمقتل ابن حبيب الفهري وهزيمة جيشه هزيمة منكرة.

عبر شارلمان بجنوده البرتات واتجه إلي سراقسطة سنة ٢٦١ هـــ / ٧٧٧ م فخـــرج ابن الأعرابي لاستقباله وتسليمه المدينة، التي لم يقبل أهلها هذا الوضع فثاروا بزعامة الحسين بن الأنصاري وأغلقوا أبواب المدينة، ورفضوا تسليمها إلي شـــارلمان، وشرع شارلمان في محاصرة المدينة ليأخذها عنوة، ولكن الظروف لم تمهلـــه فقـــد وردت إليه أخبار بأن بلاده (ألمانيا) مهددة بخطر جسيم بسبب ثورة السكسون الذين ارتدوا إلي الوثنية وهددوا بلاده، فاضطر شارلمان إلي العودة سنة ١٦٣ هـــ / ٧٧٩ م قاصدا بلاده، وأخذ معه سليمان بن الاعرابي أسيرا لأنه تسبب في فشل هذه الحملة.

في أثناء عبور شارلمان وجنوده جبال البرتات من إحدى الممرات الشرقية.

وتسمي (شيزروا) chees-Roa هاجمه سكانها ويسمون البشكنس (يعرفون حالــيا البســكس) Vascos وانقضوا علي مؤخرة جيش شارلمان وساعدتهم قوة عربــية مـــن أتباع سليمان بن الأعرابي، فانزلوا بها ضربةقوية أبادت كل جنود المؤخــرة، وكـــان يقودهم ضابط فرنسي يسمي رولان Rollan لعبت الأساطير دورهـــا في وضع ملحمة شهيرة تشيد ببطولته، وتصف المعركة وصفا أسطوريا بعـــيدا كـــل البعد عن الناحية التاريخية، وهكذا فشلت المؤامرة التي دبرها المهدي لضــم الأندلس إلي الخلافة العباسية كما فشلت المؤامرة التي دبرها المنصور من قــبل، ويـــرجع سبب فشل مؤامرة المهدي إلي سعة نطاقها بين جهات متعددة مما جعـــل تنفيذها متعذرا، وإلي يقظة الأمير عبد الرحمن الداخل وعبقريته العسكرية ومهاجمة أطراف المؤامرة وهزيمتهم كل علي حدة.

صفات المهدي ووفاته :

يذكر المسعودي أن المهدي كان محببا إلي الخاص والعام، لأنه بسط يده في الإعطـــاء فأنفق كل ما تركه له أبوه المنصور، وقدره ستمائة مليون درهم (٦٠٠ ألـــف ألـــف) وأربعة عشر مليون دينار، سوى ما جباه في أيامه، وكان من خلقه الحــياء، والعفو، والجود والحلم، ولم يكن يشرب النبيذ، وكان يتأثر بالقرآن ويميل إلـــي العدالة فكان يجلس بنفسه للمظالم وبين يديه القضاة يروي مسعود بن مساور أن عـــامل المهدي ظلمه واستولي علي ضيعته، فأتي صاحب المظالم وقدم شكواه علـــي قـــرطاس مكـــتوب غلي المهدي فسأله المهدي عن ظلامته، وكان القاضي حاضرا معه، فأشار مسعود إلي عامل المهدي وقال : "أن هذا ظلمني في ضيعتي، فلمـــا سأله القاضي، واستبانت له أن عامل المهدي غصبه ضيعته رد إليه حقوقه، وخضع عامل المهدي لحكم القضاء".

يخـــتلف المؤرخون في سبب موته فيذكر البعض أنه كان في صيد، وكان يطـــارد ظبيا، فدخل الظبي باب خربة، فتبعه المهدي بفرسه، ولم ينتبه لقصر فتحة

هــذا الباب، فانحشر فيه، ودق ظهره فمات لساعته. وينكر البعض هذه الرواية ويذكــرون أن جارية بقصره وضعت سما في طعام الجارية أخري؛ فأكل المهدي مــنه وهو لا يعلم فمات. ويروي آخرون أن مقتل المهدي كان مدبرا، لأنه حدث ثناء خروج المهدي مع كبار رجال دولته وأبنه هرون متوجها غلي جرجان حيث كــان أبــنه الأكبر موسى الهادي هناك سيرغمه علي التنازل لأخيه هرون، فبعث الهــادي لأحــد المقربين إليه في حاشية القصر فخرج مع المهدي وكان له يد في مقتله سنة ١٦٩ هــ / ٧٨٥ م.

موسى الهادي

١٦٩ - ١٧٠ هـ / ٧٨٥ - ٧٨٦ م

بويع أبو محمد موسى الهادي بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه والده المهدي وكان يوم الخميس ٢٢ من المحرم سنة ١٦٩ هـ / ٤ أغسطس سنة ٧٨٥ م. كان أكبر من أخيه هرون الرشيد، الذي عهد له المهدي بالخلافة بعد الهادي ويبدو أن المهدي فكر في تقديم هرون الرشيد علي أخيه الهادي عندما رأي رجاحة عقل هرون، ولشدة حبه له، وإيثاره إياه ومنزلته عند أمه الخيزران، التي كانت ذات حظوة كبيرة عند المهدي، وقد أيدها في مطلبها هذا حاشية الخليفة نفسه مثل يحيى بن برمك (كاتب هرون) والربيع بن يونس الحاجب الذي كان بينه وبين البرامكة وفاق ووئام، ومال المهدي إلي رأيهم، فمهد إلي تنفيذ رغبة الخيزران بأن بعث الهادي في حملة إلي جرجان، عند بحر قزوين، علي حدود الدولة العباسية تقريبا، ويقال أنه طلب فعلا من الهادي أن يخلع نفسه، ويقدم أخاه هرون عليه، ولكن القدر لم يمهل المهدي حيث توفي - كما ذكرنا - ومع هذا فنحن لا نميل إلي هذه الرواية لأن المهدي لو أراد جعل الخلافة في ولده هرون لاتبع نفس الأسلوب الذي أتبعه مع عيسى بن موسى (ابن أخيه) ولم يكن في حاجة إلي إرسال ولده الهادي في حملة إلي جرجان ثم يخرج إليه مع هرون وحاشيته ليرغموه علي تقديم هرون علي نفسه.

كان هرون من العقل والحكمة بحيث لم يتأخر عن بيعة أخيه الهادي وهو في جرجان وطبرستان، فكان يأخذ من الرعية البيعة لأخيه الهادي بالخلافة ولنفسه بولاية العهد، وقد لجأ هرون إلي هذه الطريقة بتشجيع من أمه الخيزران، ويحيي بن برمك، والربيع بن يونس الحاجب الذين دفعوا للجند عطاء سنتين مقدما حتى يعطوا بيعتهم للهادي وبذلك يضمنون ولاية العهد للرشيد.

عاد الهادي من حملته في جرجان وطبرستان وقد أخذت البيعة له، وجلس فـي دست الخلافة، فكافأ الربيع الحاجب وجعله وزيرا له، لأنه أخذ البيعة له من أهـل بغـداد، حيث كان موجودا بها نائبا عن المهدي عندما خرج في سفرته التي مات فيها، ولأنه أرسل ابنه الفضل بن الربيع ليكون في صحبة الهادي عند دخوله بغداد.

بـدأت الخيزران توسع من نشاطها السياسي في عهد الهادي حتى أصبحت لهـا الكلمة المسموعة في الخلافة، فتوافد علي دارها القضاة والوزراء وأصحاب الحاجات، فثارت الغيرة في صدر الهادي وصاح فيها مغضبا "والله لأن بلغني أنه وقـف بـبابك أحـد مـن قوادي، أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله. ما هذه المواكب التي أمامك كل يوم، أمالك من منزل يشغلك وبيت يصونك!!" وبذلك منعها من التدخل في شئون الدولة والاشتغال بالسياسة. ثم انقلب علي الربيع الحاجب وعزله من الوزارة فمات ألما من شدة خوفه من انتقام الهادي منه. أو ربما أن الهادي أمر بدس السم له ليتخلص منه، ثم استخدم ولده الفضل بن الربيع وجعله حاجبه، ولم يلبث أن عزله بعد ذلك كما حبس يحيي بن برمك وكان يريد قتله، ورمي البيت البرمكي بالزندقة ليجد الوسيلة لاستئصالهم.

ثورة العلويين بالحجاز :

هذه الاضطرابات الداخلية أثرت علي مركز الخلافة العباسية، وخاصة في أطـراف الدولـة فاستغل العلويين الفرصة للقيام بثورة في الحجاز لتحقيق حلمهم الكبير، وهو استعادة الخلافة في أبناء علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقد رأينا كيف أن الخليفة المهدي أخرجهم من السجون، واسترضاهم، وأغدق عليهم العطاء حـتى اسـتردوا قوتهم في عهد المهدي عندما تولي زعمائهم الحسين بن علي بن الحسـن بن الحسن علي بن أبي طالب فخرج علي رأس الشيعة الزيدية في موسم الحج (ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٦ م) وقصدوا دار الإمارة بالمدينة المنورة،

فأختفــي الوالــي العباسي منها وهرب خوفا علي حياته، فدخل العلويين المسجد النــبوي وأذنــوا بــأذان الشيعة، وأخذت البيعة للحسين بن على، الذى كان يستدر عطف الناس بقوله : "أنا ابن رسول الله في حرم رسول الله وفي مسجد رسول الـلــه وعلي منبر نبي الله، أدعوكم إلي كتاب الله وسنة نبيه صلي الله عليه وسلم فــإن لم آف لكم بذلك فلا بيعة لي في أعناقكم". ولكي يجمع الناس من حوله أعلن أنــه من كان من العبيد فهو حر، فقدم عليه عدد كبير منهم فأعتقهم، وتقرب إليهم والــي الفقراء بالمال فكان يأخذ من بيت مال الدولة بالمدينة ويعطي هؤلاء الناس، ويـبدو أن الحســين بــن علي جبل علي الأخلاق وبذل المال، فقد أعطاه الخليفة المهــدي من قبل أربعين ألف دينار وعندما ذهب إليه في بغداد، وزعها علي أهل بغداد والكوفة وخرج من العراق كما دخل إليها.

يختلف المؤرخون في أسباب ثورة العلويين بالحجاز فيذكر البعض أن سببها المراقــبة الشديدة من جانب ولاة العباسيين علي العلويين للتيقن من وجودهم خوفا مــن قيامهم بثورة مفاجئة، ضايقتهم بشدة فالتمسوا الحرية وخرجوا علي الهادي. وردنــا علي هذا القول أنه لا يتفق والحقيقة التاريخية لأن المهدي – كما سبق أن ذكرنا – صالحهم وأخرجهم من السجون وأغدق عليهم بالمال واسترضاهم لدرجة أن اتخــذ واحــدا منهم هو يعقوب بن داود وجعله وزيره. يذكر البعض أن السبب المباشر يرجع إلي أن والي المدينة العباسي ضرب الحسن بن محمد النفس الزكية (مــن أشــراف العلويــن) مع مجموعة من أصحابه لأنهم شربوا النبيذ وزاد في تعذيــبهم والسخرية منهم بأن ربط في أعناقهم حبالا وطاف بهم في أنحاء المدينة فغضــب الحســين ابــن علــي زعيم العلويين من هذا الوالي الذي شهر بهم بهذا الأســلوب، وأنــب الوالي، واحتج عليه بأن أهل العراق يجيزون شرب النبيذ من الــتمر (يقصد بذلك العباسيين) ونحن نستبعد أن يصدر مثل هذا القول من الحسين ابــن علي لما اجتمعت عليه المراجع من عظيم خلقه وصفاته وشمائله التي ورثها

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بل نستبعد كذلك أن يشرب العلويون نبيذ التمر في مدينة الرسول صلي الله عليه وسلم، وما نرجحه ونميل إليه أن الجانب السياسي ومحاولة العلويين استرجاع الخلافة توطنت في نفوسهم أن العباسيين خدعوهم وأخذوا الخلافة منهم، وهم أحق بها، فنظروا إلي العباسيين كما كانوا ينظرون إلي الأمويين، وظلوا يكافحون ويناضلون بغية الوصول إلي حقهم في الخلافة.

أرسل الهادي جيشا بقيادة عمه العباس بن محمد لإخماد ثورة العلويين، وعلم العلويون بأخبار هذا الجيش، فخرجوا إلي مكة المكرمة، وعند وادي فخ علي بعد ستة أميال منها، ألتقوا بجيش العباسيين وتم الاشتباك بين الجانبين في ذي الحجة (وقيل في صفر سنة ١٧٠ هـ) وتقرر مصير العلويين حيث قتلت جموعهم بقسوة، وحملت رؤوس مائة منهم علي الأسنة كما قتل الحسين بن علي نفسه، وقطعت رأسه وأرسلت إلي الهادي، فأمر بإرسالها إلي أهالي خراسان ليخيف الشيعة ويرهب الموالي أتباع أبي مسلم في نفس الوقت، وبقيت جثث القتلى من العلويين دون أن تدفن، حتى أكلتها الطيور والسباع وعندما بلغت أنباء هذه المذبحة الرهيبة مسامع الوالي العباسي المختفي في المدينة عاود الظهور، ونكل بالعلويين فأحرق بيوتهم وصادر أموالهم.

كانت مصيبة العلويين في فخ كارثة مروعة، تلي مصيبتهم في كربلاء لدرجة أن ضرب بها المثل وقالوا : "لم تكن مصيبة بعض كربلاء أشد وأفجع من فخ" وأكثر شعراء الشيعة الرثاء في قتلاهم، وجعلوا يوم فخ ذكرى حزينة كيوم كربلاء.

تمكنت قلة قليلة من العلويين من النجاة والتخفي في زحام الحجاج منهم رجلان هما أدريس بن عبدالله، وأخوه يحيي بن عبدالله شقيقا محمد النفس الزكية، فقد خرج أدريس بعد ذلك إلي مصر سنة ١٧٢ هـ ومنها إلي بلاد المغرب

الأقصى حيث ألتف حوله البربر، وكون دولة الادارسة واتخذ من مدينة فاس عاصمة لملكه.

أما يحيي فقد فر إلي بلاد الديلم (طبرستان) فاعتقد أهلها بأحقيته في الإمامة وبايعوه، وعظم خطره علي الدولة العباسية في عصر هرون الرشيد، وسنعرض لهما في حينه.

الهادي وولاية العهد :

حاول الهادي أن يخلع أخاه هرون الرشيد من ولاية العهد، ويوليها أبنه جعفر، وشجعه علي ذلك رجال بلاطه وسابقه عمه المنصور مع عيسى بن موسى ولكن يحيي بن خالد بن برمك نصح له بالتريث والعدول عن هذا الأمر لصغر سن أبنه جعفر، واحتراما للعهد الذي أخذه علي نفسه قبل الرشيد، وحتى لا يثور أهل البيت العباسي علي ولده الصغير وينتزعون الخلافة منه لأنه لم يبلغ سن الرشد بعد، ومن ضمن ما قاله يحيي له : "يا أمير المؤمنين، أنك ان فعلت حملت الناس علي نكث الإيمان، ونقض العهود، وتجرأ الناس علي مثل ذلك ولو ترك أخاك هرون علي ولاية العهد ثم بايعت لجعفر بعده، كان ذلك أوكد في بيعته" وكاد الهادي أن يعمل بهذه النصيحة، لولا أن حبه لجعفر تغلب علي عقله وفضله في ولاية العهد علي أخيه هرون، فكلف يحيي بالتفاوض مع هرون ليخلع نفسه من ولاية العهد، فقال يحيي له : يا أمير المؤمنين ! لو حدث بك حادث الموت، وقد خلعت أخاك وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ، أتري خلافته نصح؟ وهل يرضي بنو هاشم ويسلمون الخلافة إليه؟ فقال الهادي : لا. فطلب يحيي منه أن يترك الأمر حتى يأتيه في حينه، حتى لا تخرج الخلافة من بيت أبيه، ومع كل هذا لم يقنع الهادي بهذه النصائح، ورمي يحيي بن برمك في السجن.

أخذ الهادي يضيق علي أخيه هرون، ويضطهده، وأوعز إلي خاصة حاشيته بالتقليل من شأنه، ومال هرون إلي التنازل عن ولاية العهد ،لولا أن يحيي بن

برمك نصحه بالعدول، وأشار عليه أن يخرج في رحلة صيد وأن يطيل مدة غيابه بها.

ويبدو أن الهادي شعر بالخدعة التي وقع فيها فأخذ يلح على هرون بالعودة ولكـــنه كان ينتحل الأعذار ويماطل حتى أته خبر، وفاته وأخذ البيعة له – ويرجح المؤرخـــون أن أمــــه الخـــيزران هـــي التي سعت في قتله فدست بعض جواريها فوضعوا له السم، وقيل بل كان مريضا فوضعوا الوسائد فوق وجهه وجلسوا فوقها حـــتى مات في ربيع الأول سنة ١٧٠ هــ / ٧٨٦ م، ولم يبلغ من العمر السادسة والعشرين ربيعا، ويبدو أن موت الهادي المفاجئ جعل المؤرخين يلقون تهمة القتل علـــي أمه الخيزران بسبب كراهيته لها ولأخيه، بل قيل أن الهادي حاول قتل أمه فـــدس لهـــا الســـم، ولهذا قتلته، فإني أتحفظ في الأخذ بهذه الروايات، لأن عاطفة الأمومــــة أقوي وأشد من أي نوعية إجرامية عند المرأة، ولا يعقل مطلقا – الا في حـــالات شاذة جدا ونادرة جدا – أن تقتل أم أبنها مهما بلغت به القسوة عليها. وما يجعلنـــي أميل إلي هذا التحفظ أن الهادي حين شعر بالموت يقترب منه في مرضه الشديد المفاجئ طلب أمه الخيزران وقال لها : أنا هالك هذه الليله وقد كنت أمرتك بأشـــياء، ونهيتك عن أخري مما أوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك، ولـــم أكن عاقا لك، بل كنت لك صائنا وبارا وصلا. ومن عجائب الدهر أن يرزق هرون بولد في نفس اليوم الذي مات فيه الهادي، وهو اليوم الذي بويع فيه بالخلافة فقيل مات خليفة، وولي خليفة وولد خليفة.

صفات الهادي :

تصــف المراجع العربية الهادي بقسوة القلب، وشراسة الأخلاق، وصعوبة المــرام، وربما أن نشأته وقضاءه معظم شبابه في الحروب والحملات كان له أثره الكبــير علــي تشــكيل أخلاقه علي هذه الصورة. كان الهادي مولعا بسماع الغناء وشــرب الخمــر منذ صباه، وحتى بعد أن أصبح خليفة، وكان أبوه المهدي يأمر بضرب ندمائه ومغنيه حتى يقلع عن هذه العادات، ولكن دون جدوى. وكان شديد الغيرة محبا لنفسه، ظهرت غيرته واضحة في معاملته لامه (الخيزران)، وعن حبه لنفسه ما ترويه المراجع من أن المهدي وهب للرشيد خاتما نفيسا له قيمة جليلة فلما ولي الهادي الخلافة طلب هذا الخاتم من الرشيد ولكنه رفض ذلك. إلي جانب هذه الصــفات فقد تميز الهادي بالشجاعة النادرة، وحبه للأدب والتاريخ. استأذن عليه أحــد الخوارج، ولما دخل علي الهادي استل سيف أحد الحراس وأراد قتل الهادي فظل الهادي رابط الجأش لا يتحرك حتى قرب الخارجي منه فصرخ وقال : أقتله! فذعــر الخارجــي وألتفــت إلي الخلف يحمي نفسه فانقض عليه الهادي وأخذ منه الســيف وضــربه به فقتله. وعن حبه للأدب والتاريخ فقد كان يجالس رجلا أديبا اســمه عيســي بن دأب، وكان من أكثر أهل الحجاز علما بالأدب والتاريخ، وكان عذب اللفظ فكان يحدث الهادي عن الأمصار وعيوبها وفضائحها وميزاتها ... ألخ، كذلــك عرف عن الهادي إسرافه في العطاء والهبات فقد أهدي أحد الشعراء (ابن يامــن البصري) سيف عمرو بن معد يكرب المعروف بالصمصامة وكان ذا قيمة كبيرة ثم اشتراه منه بخمسين ألف درهم.

أعظم وأعــدل خلفاء بنـــي العباس

"هــارون الــرشيــد"

١٧٠ – ١٩٣ هـــ / ٨٧٦ – ٨٠٩ م

ولـــي الخلافة يوم الجمعة الخامس عشرة من ربيع الأول سنة ١٧٠ هـــ / ١٤ سبتمبر ٨٧٦ م ولم يكن عمره تجاوز الاثنين والعشرين ربيعا بعد.

أشتهر خلفاء بني العباس وأكثرهم ذكرا في تاريخ الدولة العباسية، كان وديع الأخــلاق مــن الســهل السيطرة عليه، ولذلك تدخلت أمه الخيزران والبرامكة في شئون الدولة، ويمكن لنا أن نقسم فترة الحكم التي قضاها هرون الرشيد في الخلافة إلـــي فترتين متميزتين الفترة الأولي : حيث تغلب نفوذ الخيزران (أمه) وأصبحت هي الناظرة في الأمور وعاد سلطانها أكثر مما كانت في أول عهد الخليفة الهادي، لأن الرشـــيد كـــان منقادا لها، وكان الوزير يحيي بن خالد البرمكي يعرض عليها الأمـــور، وُيأتمـــر بأمرها، واستمر نفوذها مسيطرا علي الدولة إلي أن توفيت في جمادي الآخرة سنة ١٧٢ هـــ / نوفمبر سنة ٧٨٩ م.

الفترة الثانية : تميزت بغلبة النفوذ البرمكي الذي ظل حتى سنة ١٨٧ هـــ عـــندما نكب هارون الرشيد هذه الأسرة وقتل بعض أفرادها، وانفرد بالحكم بعدها حتى توفي سنة ١٩٣ هـــ.

بلغـــت الدولـــة الإسلامية في عهده درجة عالية من الحضارة وزاد عمران بغـــداد وحضارتها، فبنيت فيها القصور الفخمة، وزادت ثورتها حتى بلغت قيمة ما يجبـــي مـــن الضـــرائب حوالي اثنين وسبعين مليونا من الدينارات بالإضافة إلي الضـــريبة العينية، وأصبحت مركزا للتجارة العالمية، فكانت تأتيها تجارات الشرق الأقصى وشرق أفريقية من كل نوع عن طريق الخليج العربي كما كانت ترد إليها

بضـــائع بلدان البحر الأبيض المتوسط عن طريق الشام ومصر، وأصبحت بغداد منارة يقصدها العلماء والأدباء وأصحاب الحرف والصناعات والفنون.

وفـــي عصره ارتقى فن الغناء والموسيقي نتيجة لمجهودات مغنيه إبراهيم الموصـــلي صـــاحب أجمـــل صوت في عصره وابنه اسحق، وكانت لهما مدرسة موســيقية غنائـــية لتعلـــيم الجواري فن الغناء والموسيقي، وضارب دفه المسمي (زلزل) ، ونافخ مزماره المسمي (برسوم) ، مما جعل اسم هارون الرشيد مقرونا بكتاب "ألف ليلة وليلة" الذي ترجم إلي معظم لغات العالم فأفاض علي الرشيد شهرة عالمـــية واسعة. يذكر الخطيب البغدادي أنه أجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد غيره من جد وهزل، فوزراؤه البرامكة لم ير مثلهم سخاء وسرورا، وقاضيه أبو يوسف – صـــاحب كتاب الخراج – وشاعره مروان بن أبي حفصة، يضارع جريرا في عصره، وحاجبه الفضل بن الربيع كا شديد العجب بنفسه، وأكثر الناس تعظيما لها، وزوجـــته أم جعفـــر. أرغب الناس في الخير، وأسرعهم إلي كل بر، وهي أسرع الناس في معروف ... الخ.

ظهر في عصره كذلك شعراء عظام مثل أبو العتاهية، والعباس بن الأحنف، ومؤرخـــون مرموقون مثل الواقدي، والأصمعي، كما توفي علماء إجلاء من أئمة الإسلام مثل الإمام مالك بن أنس والليث بن سعد الفقيه المصري، وسيبويه اللغوي، وموسى الكاظم وهو الإمام السابع للشيعة الأمامية الأثنا عشرية.

تأثرت الحياة الإجتماعية في الدولة الإسلامية، وخاصة في بغداد بالمؤثرات الفارسية، فاحتفل الناس بالنوروز، واتخذوه عيدا شعبيا، كما أقام الخلفاء فيه احتفالا رسميا، واتخذت الأزياء النمط الفارسي، وانتشرت الأطعمة والأشربة الفارسية.

الفتن والثورات :

لم يخل عصر الرشيد من القلاقل والاضطرابات، ففي عهده ثار الصحصح الخارجي في الموصل سنة ١٧١ هـ، فأخرج الرشيد من كان ببغداد من العلويين وبعث بهم إلي المدينة، وثار الفضل الخارجي في نصيبين سنة ١٧٦ هـ، كما أثار الوليد بن طريف الشاري الشيباني سنة ١٧٨ هـ سنة ٧٩٤ م، فهزم جيش الرشيد، وقتل والي نصيبين، ومنها أتجه إلي أرمينيا وأذربيجان وأنزل بهما الخراب وأشاع الفساد، ثم رجع إلي الجزيرة في العام التالي (١٧٩ هـ) وعبر نهر دجلة، ووصل إلي حلوان، وقويت شوكته عندما كثر أتباعه، وأتهم هرون الرشيد بالظلم والجور، وأنه يعمل علي تخليص الناس منه ومن ظلمه هذا، ولكن الرشيد أرسل إليه يزيد بن فريد الشيباني الذي أنزل به وباتباعه الهزيمة بعد جهد ومشقة كبيرين، كما قتل الوليد بن طريف نفسه وبعث برأسه إلي الرشيد، كذلك خرج حمزة ابن عبدالله الأزرق سنة ١٧٩ هـ في سجستان كما قامت فتن أخري في خراسان وفارس وكرمان ولكنهما لم تكن خطيرة مثل الوليد الشاري. وفي سنة ١٨٠ هـ اضطربت أحوال الشام بسبب تحريك العصبية القبلية بين القيسية واليمانية وقتل من الجانبين أعدادا كثيرة، فاضطر الرشيد أن يبعث جعفر بن يحيي البرمكي لتهدئة القبيلتين الكبيرتين، ونجح جعفر في إخماد نار نصيبين، كما تمكن من سحب كميات كبيرة من أسلحة الفريقين حتى يضمن سلامة الخلافة العباسية.

وفي مصر أثيرت الاضطرابات والقلاقل بسبب سوء حكم ولاة العباسيين فيها، وقد زاد من خطورة هذه الاضطرابات أن القيسية واليمانية في مصر كانوا يشتركون فيها، ويتفقون علي موعد بدئها، ولذلك تمكنوا من تعطيل أرسال الخراج إلي بغداد والمماطلة في أرساله في معظم سنوات عهد الرشيد، وكان الرشيد يقابل اضطربات العرب في مصر بالشدة والقسوة، ويحتجز بعض رؤساء العصبيتين كرهينة عنده، ويبدو أن الرشيد أراد تهدئة الأحوال في مصر فولاها وزيره جعفر

البرمكي سنة ١٧٦ هـ ولكنه لم يذهب اليها وأناب عنه من يقوم بولايتها، فبعث الرشيد قائده، ذائع الصيت هرثمة بن أعين إلي مصر لوضع حد لهذه الاضطرابات ولكنه هو الآخر لم ينجح فاضطر الرشيد إلي أن يضمن خراج مصر أي يصبح في نظام الالتزام.

وفي أفريقية استمرت الاضطرابات في عهد الرشيد بانتظام لدرجة أن أحد الولاة واسمه ابن الجارود استقل بولاية أفريقية سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٥ م أرسل الرشيد قائده هرثمة بن أعين الذي تمكن من اعتقال ابن الجارود وبعث به إلي بغداد، وأصبح هرثمة واليا علي أفريقية، وظل بها حتى ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م ولكنه لم يتمكن البقاء بها لكثرة تمرد عربها، فطلب إعفاءه من الولاية، ويبدو أن الرشيد اضطر إلي قبول ما عرضه عليه إبراهيم بن الأغلب، اليمني، أحد ولاة مدنها من تولية أفريقية، وبقائها في ذريته نظير أربعين ألف دينار سنويا فكان ذلك بداية لظهور بعض الولايات المستقلة اسميا في عهد الرشيد حيث قامت دولة الأغالبة وأن بقيت علي صلة وثيقة بالخلافة، فقد نقش إبراهيم بن الأغلب اسم الخليفة علي السكة، وأطلق اسم العباسية علي حاضرة دولته التي بناها في جنوب القيروان، نسبة إلي بني العباس، كما شيد فيها قصرا سماه الرصافة، علي غرار رصافة بغداد، والحقيقة أن دولة الأغالبة في أفريقية لعبت دورا في تصحيح التيار المعادي للخلافة العباسية في هذه النواحي، فقد حارب بقايا الخوارج الأباضية في طرابلس وفي تاهرت. حيث قامت الرستمية علي يد عبد الرحمن بن رستم الذي خلف أبا خطاب الأباضي.

ومن القلاقل والاضطرابات التي هددت سلامة الدولة في عهد الرشيد خروج يحيي بن عبدالله بن الحسن العلوي وأخيه أدريس، وقد سبق أن تعرضنا لهما في موقعة فخ، فقد هرب يحيي إلي بلاد الديلم، وبايعه أهلها بالإمامة لاعتقادهم بأحقيته بها من العباسيين وقد قوي نفوذه في بلاد الديلم وأصبح مصدر قلق للرشيد

الذي بعث الفضل بن يحيي البرمكي واليا من قبله علي جرجان وطبرستان والري، وزوده بـ ٥٠ ألف جندي لمحاربة يحيي بن عبدالله. ولكن الفضل البرمكي لم يلجأ إلي الحرب، بل لجأ إلي الحيلة والدهاء، فأخذ يحذر يحيي بن عبدالله حينا، ويخوفه ويهدده حينا آخر ثم يلين معه ويرغبه ويمنيه تارة أخري حتى مال إلي الصلح واشترط لذلك أن يأتيه كتاب أمان بخط الرشيد نفسه، وعليه إشهاد من الفقهاء والقضاة وأكابر بني هاشم، فوافق الرشيد علي هذا المطلب وزاد عليه من عنده بعض الهدايا القيمة فاطمأن يحيي بن عبدالله العلوي، وذهب لمقابلة الرشيد في صحبة الفضل البرمكي، واستقبله الرشيد بالترحاب وأكرم وفادته، ولكن لم يلبث أن حبسه في داره (أعتقله) واستفتي الفقهاء في نقض ما بعث به من العهد (كتاب الأمان) فوافقه البعض، واعترض البعض، ولكن الرشيد مال إلي الجانب الأول وتخلص من خصمه وأمر بقتله وهو في سجنه، وقيل في موته روايات أخري.

أما أدريس بن عبدالله العلوي الذي توجه إلي المغرب الأقصي والتف البربر حوله وعلي رأسهم اسحق بن محمد زعيم قبيلة أوربة البربرية ومن معه فكون بها دولة الأدارسة سنة ١٧٢ هـ، فقد رأي الرشيد أنه لا طاقة له بالدخول في حرب معه، فلجأ إلي المكايدة والحيلة، فأوعز إلي إبراهيم بن الأغلب (الأغالبة) بأن يشنوا غاراتهم علي إدريس ويحرمونه الاستقرار، وفي نفس الوقت بعث إليه برجل من عنده اسمه سليمان بن جرير الشماخ وأمره بدس السم لإدريس فوصل الشماخ إلي مدينة وليلي (عاصمة دولة الادارسة) وتظاهر بالتبروء من بني العباس، والانضمام إلي إدريس العلوي، وأخذ يتقرب إليه ويزعم أنه يمتهن الطب، ويعرف الأدوية فأنس إدريس إليه، وقربه منه، وبذلك تمكن الشماخ من دس السم لإدريس سنة ١٧٥ هـ / يونية ٧٩١ م وقيل سنة ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م، فعين الرشيد الشماخ علي بريد مصر مكافأة له علي ارتكاب جريمته.

تخلص الرشيد من هذه النقبة الكؤود التي سببت له اضطرابا سياسيا وقلقا اجتماعيا علي الرغم من بعد المسافة بين دولة الادارسة في المغرب الأقصي وبين مركز الخلافة في بغداد، ولا سيما وأن إدريس الأكبر لم يترك ذرية له، ولكنه ترك أمة تحمل في أحشائها منه جنينا ما لبثت أن وضعته وسمته إدريس الأصغر الذي سيخلف أباه بمساعدة رجل حفظ ود أبيه له يسمي راشد كان مولي دريس الأكبر، ويبدو أن العباسيين لم يجدوا غير إشاعة الافتراءات التي أطلقوها علي إدريس الأصغر فنسبوه إلي راشد وأنكروا نسبه لأبيه إدريس الأكبر، لينالوا منه ومن دولته لأنه بعيد عن النسب الهاشمي الذي يعطيه الحق في الإمامة أو الخلافة.

وفي الأندلس :

فشل الرشيد في القضاء علي الدولة الأموية التي أعلنها الأمير عبد الرحمن الداخل، فقد بعث الرشيد بسفارة إلي شارلمان إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وأرتبط معه بحلف، لأن شارلمان كان يكره الأمويين في الأندلس لأن الدولة الأموية متاخمة لحدود دولة شارلمان ولذلك أرتبط بهذا الحلف من قبيل الحرب الباردة ضدهم، وقد تبادل السفارات مع رشيد، وأرسل كل منهما الهدايا النادرة للآخر وقد افاضت المراجع التاريخية في ذكر ووصف هذه الهدايا، ولكن لم ينتج عن هذه السفارات أن أضيرت الإمارة الأموية في الأندلس، لأن الأمويين نهجوا نفس الأسلوب وارتبطوا مع الدولة البيزنطية بحلف، وتبادلوا السفارات والهدايا مع الإمبراطور ايرين وكان سفير الأمويين إليها الشاعر الأندلسي يحيي الغزال.

وهناك من المؤرخين المحدثين من يرى عكس ذلك ويذكر أن علاقة الرشيدة بالإمارة الأموية في الأندلس كانت تقوم علي التعاون بغرض المحافظة علي الأندلس المسلمة من أطماع الفرنجة المتأخمين لها، ويستدلون علي ذلك بأن داود بن يزيد بن الملهب والي مصر أرسل في سنة ١٧٤ هـ / ٧٩٠ م إلي هشام ابن عبد الرحمن الداخل جنودا لكي يستعين بهم في حسم نزاع وقع بينه وبين

أخويــه حتى لا تضيع الأندلس، وتقع في أيدي الفرنجة، ثم أرسل داود إلي هشام مــنجدا آخر سنة ١٧٦ هــ / ٧٩٢ م، وقد أراد الفرنجة الانتقام من الدولة العباسية بســبب تعاونهــا مع هشام فجهزوا حملة إلي الإسكندرية سنة ١٨٩هــ / ٨٠٥ م ولكن هذه الحملة لم تنجح بسبب مهاجمة هشام للفرنجة.

علاقة الرشيد مع بيزنطية :

أخــتلف علاقة الرشيد مع الدولة البيزنطية بالنسبة لما كانت عليه مع دولة شارلمان فقد كانت علاقة الرشيد مع البيزنطيين متوترة لكثرة الحملات التي قامت بهــا الدولة العباسية ضد بيزنطة، فقد واصل الرشيد سياسة آبائه واجداده في شن الحمــلات (الصوافي، والشواتي) فقد خرج بنفسه سنة ١٨١ هــ علي رأس جيش كثير العدد والعدة واجتاز منطقة الثغور بآسيا الصغرى وأقتحم عدة حصون وفتحها كما بعث قائده عبد الملك ابن صالح في نفس السنة علي رأس حملة كبيرة وصلت إلي أنقرة مما دفع الإمبراطورة أيرين إلي طلب الصلح ودفع جزية للرشيد.

ولكن في سنة ١٨٧ هــ / ٨٠٢ م أزيحت ايرين عن الحكم بواسطة انقلاب ضدها وتولي الإمبراطور نقفور أول (٨٠٢ – ٨١١ م) الحكم، فنقض الهدنة التي أبرمتها ايرين وأمتنع عن دفع الجزية، وأرسل إلي الرشيد كتابا شديد اللهجة يطلب إلــيه رد الأموال التي دفعتها أيرن ويتهمها، وفي آخر الكتاب يقول للرشيد : "... وافــتد نفســك بما تقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك فلما قرأ الرشيد الكــتاب ظهر الغضب علي وجهه وخافت حاشيته التحدث معه، فكتب علي ظهر الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم، من هرون أمير المؤمنين إلي نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام، ثم خرج بجيوشــه زاحفــا علي آسيا الصغرى فنزل علي هرقلة ففتحها وغنم منها كثيرا، ودخــل مــع البيزنطيين في عدة مواقع فهزمهم، وأرغم نقفور علي طلب الصلح والإقرار بالجزية كما كانت علي عهد ايرين، ولكن البيزنطيين نقضوا هذه المعاهدة

كذلــك وشــنوا هجومهــم علي دولة الرشيد وأنزلوا هزيمة نكراء بالمسلمين في جنوب اسيا الصغرى، واضطر الرشيد لمعاودة الكرة والخروج إليهم في سنة ١٩٠ هـــ / ســنة ٨٠٥ م ففتح هرقلة والصفصاف وملقونية وبعض المناطق الأخرى وأنــزل بالبيزنطييــن هــزيمة مرة وأسر منهم ١٦ ألف جندي وزاد قيمة الجزية المقررة عليهم وجعلها خمسين ألف دينار.

نكبة البرامكة :

نخــرت فترة حكم الرشيد بكثير من الفتن والثورات في المشرق والمغرب الإســلامي كمــا تمــيزت هذه الفترة بأحداث سياسية واجتماعية غير قليلة ولكن موضوع نكبة البرامكة بقى العلامة البارزة فوق هذه الأحداث كلها. وقبل أن نتكلم عــن هــذه النكبة ينبغي لنا أن نلقي الضوء علي أصول هذه الأسرة وتطورها في حياة بني العباس حتى نحيط بموضع دراساتنا عنها.

ترجع أصول هذه الأسرة إلي قبيلة الأزد العربية، ويرى البعض أنها تنسب إلي الفرس، لأن كلمة "برمك" لقب يطلق علي كهنة أوسدنة معبد قديم بالقرب من بلخ (في خراسان) وكان هذا المعبد يسمى "النوبهار" وهي كلمة هندية قديمة معناها الربــيع المــتجدد، ربما لأن أراضي خضراء كثيرة كانت تحيط به، كان البوذيون يحجــون إلـــي هذا المعبد من الهند والصين وبلاد الفرس للإقامة شعائر عبادتهم الــبوذية فــيه، وكــان لهذا المعبد أوقات كثيرة للصرف منها شئونه، ولذلك كانت الأســرة التـــي تــتولى شــئون هذا المعبد علي جانب كبير من الحظوة والأهمية ويــبدو أن هذا المعبد ظل موجودا حتى تلاشي في عهد معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٢ هــ/ ٦٦٤ م.

عاش برمك في زمن عبد الملك بن مروان، وكان علي علم بالطب والتنجيم ويقال أن البرامكة اعتنقوا الإسلام زمن الدولة الأموية بعد أن فتح المسلمون أواسط آسيا، ويدلل المؤرخون علي ذلك بأن خالد بن برمك نشأ مسلما لأن اسم خالد اسم

عربي وقد شارك خالد في الدعوة لبني العباس منذ بدايتها، فانضم إلي أبي مسلم الخراسـاني وحـارب معـه ضد الأمويين حتى قامت الدولة العباسية، واستوزره الخلـيفة أبـو العـباس السفاح بعد مقتل أبي سلمة الخلال (وزير آل محمد) ، ثم اسـتوزره أبـو جعفر المنصور ويبدو أن خالدا رفض أن يتقلب الوزير لأنه شؤم علي صاحبه وتمثل بقول الشاعر :

أسوأ العالمين حالا لديهم من تسمى بكاتب أو وزير

ونجى خالد بن برمك منها إذ دعوه بعدها بالأميـر

كذلـك استعمله الخليفة المهدي في قصره إلي أن توفي خالد بن برمك سنة ١٦٥ هـ / ٧٨١ م وكان قد أنجب يحيي بن خالد البرمكي، الذي يعتبر واسطة عقـد الأسرة البرمكية وأشهر رجال فيها لما تميز به من مهارة وإدارة عرفت عند الفـرس في ذلك الوقت. عهد المنصور إليه بولاية آذربيجان وأرمينية سنة ١٥٨ هـ / سنة ٧٧٥ م، ثم أسند إليه المهدي أمر النفقات للجنود، ثم عهد إليه بتربية ولده هرون الرشيد فرباه أحسن تربية : وزوده بنصائحه وإرشاداته حتى ضمن له الخلافة وعرض نفسه للحبس والهلاك وكان هرون يناديه (يا أبي).

وعندما ولي هرون الرشيد الخلافة أصبح يحيي البرمكي كل شئ في الدولة فقـد حفـظ له هرون فضل مواقفه معه وتربيته له، فاستوزره وزارة تفويض سنة ١٧٠ هـ وكتب إليه :

"قلدتـك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت وأعزل من رأيت، وأمض الأمور علي ما ترى".

ثم دفع إليه بخاتم الخلافة. وبهذا التقليد حدد الرشيد لأول مرة عمل الوزير ومضمونه من حيث وزارة تنفيذ ووزارة تفويض.

قام يحيي بتصرف شئون الدولة علي خير وجه، فقد ورث ذلك عن أجداده الذيــن كانــت لهــم كتب قديمة علي عهد الساسانيين في الوزارة وأصولها، بينما أنصرف الرشيد إلي الاستمتاع بالحياة ومسراتها. فقد استعان يحيي في أمور الدولة بــأولاده، وكــانوا علي نمطه في الذكاء والحصافة، فعهد لابنه الأكبر (الفضل) ، الذي ولد قبل الرشيد بسبعة أيام وأرضعته الخيزران بلبان الرشيد، عهد إليه بولاية المشــرق خراسان وطبرستان وأذربيجان وأرمينية وجهز له جيشا كل جنوده من خراسان وكان عددهم ٥٠٠ ألف، سماهم العباسية وقد شهر عن الفضل ابن يحيي أنه كان اداريا من الطراز الأول، وكان كريما كثير الهبة للشعراء مثل الأصمعي، وأبي نواس، غير أنه كان يعيبه شئ من العنف والكبرياء.

كذلك عهد يحيي لأبنه جعفر بولاية الجزيرة والشام ومصر وما يليها غربا، وتمكن جعفر بذكائه ودهائه من ضبط وتصريف شئون هذه البلاد بطريقة ممتازة. وقــد شهر جعفر بخفة الروح والظرف إلي جانب فصاحه وبلاغه مما جعله محببا عند الرشيد فاستبقاه إلي جواره في بغداد.

ســيطرت أسرة البرامكة علي دولة الرشيد من أقصى المشرق إلي أقصى المغرب وأصبحت دولة عباسية أسما ومظهرا، وبرمكية حقيقة ومخبرا، لدرجة أن بعض المؤرخين أطلق عليه دولة البرامكة. لأنهم لم يتركوا ناحية من نواحي الحياة الإداريــة والعســكرية والمالية والعلمية والأدبية إلا وباشروها وشملوها بعطفهم، فمالــت إليهم نفوس الناس، وأحبوهم، ومدحهم الشعراء بما يمدحوا به الخلفاء مثل قول أبي نواس فيهم :

سلام علي الدنيا إذا ما فقدتم بني برمك من رائحين وغادى

إلــي جانــب ذلــك خص البرامكة أنفسهم بمجالس سمر وغناء علي غرار مجــالس الرشيد ومن أشهر مغنياتهم (دنانير) ، وأسحق الموصلي، وكان البرامكة يغدقــون علي هؤلاء الفنانين والشعراء والعلماء الهبات والعطايا بشكل لم يسمع به

من قبل في تاريخ الدولة الإسلامية، ووصل تكريمهم لهم أنهم كانوا يحلمون إليهم هذه الهبات والعطايا بأنفسهم.

أسباب نكبة البرامكة :

يمكن لنا أن نجمل أهم أسباب هذه النكبة في الجوانب التالية :

١- الاستحواذ علي مقدرات الدولة :

استغل البرامكة ما وصلوا إليه من نفوذ وحظوه، وأخذوا يتصرفون في شئون الدولة كما لو كانوا هم أصحابها، وأصبح الرشيد مغلول اليدين، ضعيف النفوذ بالنسبة لما كانوا يوزعونه من أموال علي أتباعهم وأنصارهم ومعظمهم من الفرس، لدرجة عبر الرشيد عن نفوذهم هذا بقوله : "ما عد البرامكة بني هاشم ألا عبيدهم وأنهم هم الدولة، وأن لا نعمة لبني العباس ألا والبرامكة أنعموا عليهم بها ثم بدأ يحد من نفوذهم فعزل محمد بن خالد البرمكي عن الحجابة سنة ٦٧٩ هـ، وقلدها لرجل من العنصر العربي هو فضل بن ربيع كما نحى الفضل بن يحيي عن مسئولياته سنة ١٨٣ هـ وأسندها إلي عيسى بن ما هان ثم سحب الاشراف علي الحرس من جعفر بن يحيي وكلف به هرثمة بن أعين، وبدأ في الأعراض والابتعاد عنهم تدريجيا حتى لا يشعروا بما أضمره لهم، ومن الطبيعي أن الرشيد لجأ إلي هذا الأسلوب بعدما ضاقت نفسه، وفرغ صبره وأصبح يخشى علي مركزه كخليفة للمسلمين عندما أصبح الناس لا يذكرون غيرهم، ولا يقصدون إلا أبوابهم، وكان الرشيد يتغاضى في أول الأمر عن كل ما يرد إلي مسامعه عن استئثارهم بالسلطة والنفوذ دونه، حتى أن صاحب الفخري يروي أن بختيشوع الطبيب دخل ذات يوم علي الرشيد وكان جالسا في قصر الخلد ببغداد، وكان البرامكة يسكنون في مواجهته علي الضفة الأخرى من نهر دجلة فنظر الرشيد إليهم فرأي كثرة الخيل، وازدحام الناس علي باب يحيي البرمكي، فقال لطبيبه :"جزي الله يحيي خيرا، تصدى للأمور وأراحني من الكد، ووفر أوقاتي علي اللذة". وبعد مدة من الزمن،

وقد بدأ الرشيد يعرض عنهم، ويتغير عليهم دخل عليه طبيبه ونظر الرشيد صوب البرامكة فرأي مثلما رآه في المرة السابقة فقال : "استبد يحيي بالأمور دوني، فالخلافة في الحقيقة له وليس لي منها إلا أسمها". من جانب آخر فقد كانت أموال الدولة كلها تحت سيطرت البرامكة، ينفقون منها ببذخ و إسراف كيفما شاءوا، وكانوا يقترون علي الرشيد فيما يطلبه من أموال فكان يطلب اليسير منه فلا يصل إليه فظن إلي أن الأمر يكاد يخرج من يده فنقم علي البرامكة، وعبر عن ذلك بقوله لهم : "أن ضياعكم ليس لولدي مثلها وتطيب نفسي لها" وقد أحصيت أموال يحيي وجعفر في آخر أيامهم فبلغت عشرين مليونا.

ويروي الطبري أن جبريل والد الطبيب بختيشوع كان عند الرشيد ذات يوم، ودخل يحيي البرمكي كعادته بدون إذن، فامتعض الرشيد، ووجه حديثه إلي جبريل الذي أنكر هذا الصنيع، وفهم يحيي وأخذ يعتذر وأبان أن أمير المؤمنين هو الذي منحه هذه الميزة من قبل وفهم يحيي أن الرشيد بدأ يتغير علي البرامكة.

ومن مظاهر استبداد البرامكة بأخص أمور الدولة، وما كان لغير الرشيد أن يتصرف فيه، ما يرويه الطبري من أن الرشيد أمر بحبس رجل أسمه يحيي بن عبدالله بن الحسن (من العلويين) ، ووكل أمر حبسه إلي جعفر بن يحيي البرمكي، وذات ليلة سأل جعفر هذا الرجل عن حقيقة أمره، فقال : أتق الله في أمري، ولا تتعرض أن يكون خصمك غدا محمد صلي الله عليه وسلم فوالله ما أحدثت حدثا، ولا أويت محدثا وأخذ يبرئ نفسه فرق جعفر له وأمر بإطلاق سراحه وبعث معه يؤمنه في طريقه وبلغ الخبر إلي الفضل بن الربيع وتأكد منه فنقله الرشيد، وتظاهر الرشيد أمام ابن الربيع بأن ذلك بناء علي أمره، ثم دعا جعفر البرمكي علي غداء وأخذ يحادثه حتى انتهيا من الطعام، وعندئذ فاجأ الرشيد جعفر البرمكي بالسؤال عن يحيي العلوي، فأجاب : بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال. فقال الرشيد : بحياتي ! ووقع في خاطر جعفر أن الرشيد علم بما أحدثه فقال : لا

وحياتك يا سيدي، ولكن أطلقته، وعلمت أنه لا حياة به، ولا مكروه عنده، فتظاهر الرشيد بالرضا علي ما فعل، وأخذ يتتبع جعفر البرمكي ببصره عند خروجه وتوعده قائلا : قتلني الله بسيف الهدي علي عمل الضلالة ألم أقتلك!

٢- الصراع بين الفرس والعرب :

قامت الدولة العباسية علي أكتاف الفرس، وكان من الطبيعي أن يحتلوا بارزا في الدولة، إلا أنهم أساءوا إلي أنفسهم حينما تعصبوا لبني جلدتهم وأسندوا مناصب الدولة الرئيسية لهم وكان غرضهم من ذلك أحياء الأمجاد الفارسية، وأحس العرب بأنهم غلبوا علي أمرهم أمام الفرس، ولكنهم ظلوا يقاومون النفوذ الفارسي مقاومة خفية، فنشأت بين الحزبين خصومة عنصرية واضحة منذ عهد الرشيد واستمرت حتى عهد المعتصم. وقد لعب ابن الربيع الذي أسند الرشيد إليه الحجابة وديوان الخاتم بعد أن سحبه من جعفر. دورا كبيرا في هذا الصراع باعتباره من الحزب العربي المعادي للحزب الفارسي، فأخذ يدس ويكيد للبرامكة عند الرشيد، ومن الطبيعي لم يرض الحزب الفارسي المتمثل في البرامكة بتغلب الحزب العربي عليه، فأخذ الصراع يزداد بين الجانبين خصوصا عندما بدأ الرشيد ينظر في ولاية العهد، فقد تدخلت شخصية عربية أخرى وزنها في الأحداث، هذه الشخصية هي زوجة الرشيد زبيدة، وهي في نفس الوقت ابنه عمه، فهي من عنصر عربي خالص وهي أم الأمين، أما المأمون وهو الابن الأكبر للرشيد فكانت أمه (مراجل) وهي فارسية، وقد انحاز الرشيد إلي زبيدة - أي إلي العنصر العربي - وعهد بولاية العهد إلي ولده الأمين، مع أن المأمون كان أكبر سنا، وأكثر نجابة وسوف يستمر هذا النزاع بعد الرشيد وينتج عنه تغلب الحزب الفارسي حيث يقتل المأمون أخاه الأمين، ويقع المأمون تحت تأثير أسرة فارسية مثل البرامكة، وهي أسرة بني سهل.

بعض المؤرخين يرون أن البرامكة هم الذين سعوا في ولاية العهد لمحمد الأميـن حـتى يـتقربوا من زبيدة التي كان لها دالة علي الرشيد، كما تقربوا إلي الخـيزران من قبل حتى يتمكنوا من تنفيذ سياستهم عن طريقها خاصة وأن مفاتيح قصـور الحـريم كانت بيد يحيي البرمكي، أو ربما لأن الأمين كان صغير السن وكـان علي ولاية المشرق (فارس وخراسان) وأراد البرامكة أن يكون لهم الفضل فـي خلافـته وتنشئته كما فعلوا مع الرشيد فيحفظ الأمين لهم هذا الفضل ويستمر نفوذهـم في دولة بني العباس، ولكنهم سرعان ما عدلوا عن رأيهم بعدما تبين لهم موقـف العنصـر العربي وزبيدة علي وجه الخصوص منهم، ودبروا أمرهم بأن جمعـوا وجوه الدولة العباسية وأشرافها وقوادها وقضاتها من عرب وخراسانيين وصـحبوا هرون الرشيد في حجة سنة ١٨٢ هـ، وجعلوه يكتب عهد لأبنه عبدالله المـأمون بـأن يكـون خليفة بعد أخيه الأمين وأن تسند إليه (المأمون) إدارة بلاد المشـرق بعـد وفـاة هرون مباشرة، وبذلك تصبح خلافة الأمين وسيطرته علي المشرق شكلية لأن المشرق سيكون في أيدي الحزب الفارسي (أي نفوذ البرامكة) ومعهم مراجل أم المأمون وابنها المأمون نفسه، وقد أخذ الرشيد علي ولديه الأمين والمأمون المواثيق المؤكدة، وعلقها في جوف الكعبة بعد أن وضعها في حوافظ من الفضـة، ثـم جعلوه يكتب عهدا لولده الثالث القاسم (المؤتمن) سنة ١٨٦ هـ بأن يـتولى الخلافة بعد المأمون، كما أسند الرشيد إليه إمارة الثغور الشمالية (وتعرف بالعواصم) وكانت رباطا ضد البيزنطيين، وهكذا تمكن العنصر الفارسي من تقسيم الدولـة بين أبناء هرون بما يتمشى مع رغباتهم ومصلحتهم الأمر الذي هدد وحدة الدولـة ورأي بعـض المؤرخين فيه فتنة ظاهرة لأن هذا التقسيم لم تعرفه الدولة الإسلامية قبل، فالحزب العربي خلافة للأمين، والبرامكة وهم حزب الفرس ضمنوا أن يكون المشرق الإسلامي في أيديهم عن طريق المأمون، ولكن هل سكت الحزب العربي علي هذا الوضع.

تحرك الحزب العربي وعلي رأسه زبيدة تحركا سريعا، وأكثر من وشياتهم ضد البرامكة عند الرشيد، فحركوا حفيظته وأوغروا صدره عليهم فأخذوا يذكرونه ستبدادهم في أمور الدولة، وانفرادهم بالأموال وحجرهم علي ما يطلبه منهم، بينما هـم يغدقـون الأموال بلا حساب علي أنفسهم وعلي أتباعهم، وقد لعب الفضل بن الربـيع في هذا الجانب دورا خطيرا لأنه كان حاجب الرشيد، وعن طريقه كانت تـنقل هـذه الأخبار (الوشايات) وتدس للرشيد الرسائل المثيرة بدون توقيعها من مرسليها مثل هذه الرسالة التي تضمنت الأبيات التالية :

قل لأمين الله في أرضه ومن إليه الحل والعقد

هذا ابن يحيي قد غـدا ملكا مثلك ما بينها حل

أمرك مـردود إلي أمره وأمـره ليس لـه رد

ونحـن نخشى أنه وارث ملكك أن غيبك اللحد

كمـا وضع الشعراء العرب أبياتا يثيرون بها حفيظة الرشيد علي البرامكة وجعلوا مغنياته يترنمن بهذا الغناء مثل قول بعضهم :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لايستبـد

٣- الجوانب السياسية والمذهبية :

لعبـت الجوانـب السياسـية والمذهبية دورها البارز في نكبة البرامكة فقد اسـتغلها الفضـل بـن ربيع والحزب العربي وأوغروا صدر الرشيد، بها فاتهموا موسـى بن يحيي البرمكي بأنه ينشر دعوة العلويين، بين أهالي خراسان وتحويل الخلافـة إليهم كما اتهموا جعفر البرمكي بأنه يميل إلي العلويين، ويعطي بعضهم صكوك أمان، ويسمح للذين يتصلون به منهم بالتحدث في مشكلة أحقيتهم بالخلافة والإمامـة في حضرته وهل هي بالنص أو الاختيار، ووصلت درجة ميل البرامكة

إلي العلويين إلي أن جعفر البرمكي أطلق سراح زعيم طالبي هو يحيي بن عبدالله أخو النفس الزكية من سجنه بدون علم الرشيد وقد أشرت إليه ، لأن إطلاق سراح هذا الطالبي (العلوي) فيه خطورة كبري علي الرشيد وعلي دولته لأنه المنافس له والمطالب بالإمامة، وهكذا عجلت الجوانب السياسية بنكبة البرامكة

ومن الأمور المذهبية التي أخذت علي البرامكة ووصفوا من أجلها بالزندقة أن يحيي البرمكي كان يجمع في بيته علماء من ذوي النحل والملل غير الإسلامية ليناظروا علماء الإسلام في أمور دينية ربما أدت إلي فتن داخلية خطيرة، ومع أن البعض يرجع هذه الاجتماعات إلي حرية الرأي والتسامح الديني في الإسلام مما كان مشهورا به يحيي البرمكي، إلا أن البعض الآخر وجد دعوة صريحة للزندقة والتشكك في الدين.

ومن المآخذ علي البرامكة كذلك عدم إلتزامهم بكتاب الله، فكانوا يشربون الخمر، ويحبون الخلوة مع الندماء، ويرتدون من الثياب نوعا مخصصا بهذه الجفلات الماجنة، كان لونها الأحمر والأصفر والأخضر، ولسوء حظ جعفر البرمكي وندمائه أن دخل عليهم وهم في هذه الحالة أحد أقارب الرشيد يسمي عبد الملك بن صالح بن علي العباسي، وكان رجلا شجاعا شديد الوقار، محتشما متمسكا بالدين، وكان الرشيد نفسه طلب منه قبل ذلك أن ينادمه في الشراب فرفض، فلما رآه جعفر كاد عقله يقفز من رأسه حياء وخجلا وطلب من عبد الملك أن يطلب منه ما يريد حتى يرضيه، فطلب منه ألف ألف درهم ليقضى بها ديونه، وولاية لابنه حتى يشرف في بني العباس وأن يتزوج ولده بابنة الرشيد فإنها ابنة عمه، وهو كفء لها فأجابه جعفر إلي ما طلب وزوج أبنه بابنة الخليفة دون أن يأخذ رأيه في الزواج من أبنته، فكانت من الأمور التي حركت الغضب في صدر الرشيد ضد البرامكة وأثارت حفيظته عليهم.

٤- قصة العباسة أخت الرشيد :

تــرجع بعــض المــراجع العربية سبب نكبة البرامكة إلي قصة مزعومة ومــنحولة ملخصــها أن الرشيد كان يحب مجالسة أخته العباسة لأنها كانت علي جانب كبير من الثقافة والذكاء النادر، وكان يحرص علي أن تكون العباسة موجودة في مجالسه الأدبية، وفي نفس الوقت كان يحرص علي حضور جعفر البرمكي هذه المجــالس لمــا تمــيز به هو الآخر من ثقافة وعلم وملاحة الحديث، ولكي يجمع الرشــيد بيــنها في هذه المجالس رأي أن يعقد علي العباسة أخته جعفر البرمكي، وأشــترط علي جعفر عدم الخلوة، حتى يكون هذا العقد صوريا فقط لاسقاط وجه الحــرمة من اجتماع العباسة مع غريب عنها، ولكن حدث أن جعفر استعمل حقه الطبيعــي بــالعقد، واتصل سرا بالعباسة، ونتج عن هذا اللقاء السري أن وضعت العباســة، طفلاً أرسلت بع بعد ولادته إلي الحجاز خوفا من أخيها الرشيد، غير أن إحدى الجاريات أخبرت الرشيد بما حدث، وسافر الرشيد بنفسه إلي الحجاز وتأكد من صحة ما قالته الجارية فكان ذلك سببا في نكبة البرامكة.

لــيسّ هناك شك في أن هذه القصة مزعومة، ومن نسج الخيال، ويبدوا أن للشعوبية دورا كبيرا في اختراعها، فالشعوبية حركة سياسية أدبية كان هدفها الأول الطعــن فــي الجنس العربي والحط من شأنه، وأعلاء شأن العجم (الفرس) ، وقد تولــدت هذه الحركة نتيجة الصراع والتعصب بين الجنس العربي والعجمي، وكما هو واضح أن القصد من هذه القصة هو الحط من قيمة الرشيد وطعنه في كرامته وعرضــه وهو رأس الأسرة الهاشمية، ولا شك أن الرشيد لا يمكن أن يقدم علي مــثل هــذا العمــل المزري ويزوج أخته سليه المجد والشرف والدين هذا الزواج الصــوري الــذي يسبب له الطعن في رجولته وشرفه وكرامته، ولكي ندلل علي بطــلان هذه القصة الموضوع نذكر ما قاله ابن خلدون عن العباسة : (قريبة عهد بــبداوة العــروبة وسذاجة الدين، البعيدة عن عوائد الترف وموقع الفواحش. فأين

يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها؟ أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدوا من بيتها؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيي وتدنس شرفها العربي بمولي من موالي العجم؟ ... ولو أن المتأمل في ذلك نظر بإنصاف، ووازن العباسة بابنة ملك ملوك زمانـــه، لا ستنكف لها عن مثله مع مولي من موالي دولتها، وفي سلطان قومها، واستنكره ولج في تكذيبه وأين قدر العباسة والرشيد من الناس؟).

ثم أن كتاب الأغاني الذي يهتم بمثل هذه الأساطير لجذب القراء والاستحواذ علي تفكيرهم لم يقرب هذه القصة من قريب أو بعيد، ولم يذكر العباسة مطلقا فيما ذكـــره مـــن نوادر وأساطير، ليس هذا دليلا علي عدم حدوث هذه الأسطورة؟ وما نـــراه ونـــرجحه أن نكبه البرامكة لم تكن بسبب قصة العباسة أصلا، وأنما كانت بســبب ما أوردناه من جوانب تسلط نفوذ البرامكة علي الرشيد والخلافة والصراع بيـــن الحزبيـــن العربـــي (زبيدة) والعجمي "مراجل" وما دار في فلك كل الحزبين المتصارعين، وما رمي به البرامكة من ميل إلي الزنادقة والي العلويين ... الخ.

لجأ الرشيد إلي عامل المفاجأة في نكبة البرامكة ممن مالوا إلي الزندقة فدبر لهـــم خطة محكمة حتى لا يهرب منهم أحدا، فأعطى أوامره ليلة السبت غرة صفر ســنة ١٨٧ هـــــ ٩ يـــناير سنة ٨٠٣ م إلي بعض حرسه الخاص بالقبض علي الـــبرامكة جميعا وهدد بقتل كل من يأويهم، ونجحت الخطة، وقبض علي يحيي بن خـــالد وجمـــيع ولده وخاصته وأتباعه، ثم بعث الرشيد ببعض رجاله إلي منازلهم، ليـــتحفظوا علـــي أموالهم وكانت كثيرة جدا أوردت المراجع تفاصيلها، كما أوعز الرشـــيد إلي خادمه وحرسه الخاص مسرور بقتل جعفر بن يحيي والعودة برأسه، واضطر مسرور إلي تنفيذ تعليمات الرشيد، ونكل بجثته فقيل أنه صلبها علي أحد الجســـور، وقـــيل بـــل مـــزقها وأحرقها. ثم أمر الرشيد بعد ذلك بقتل جماعة من البرامكة ولكنه استبقى يحيي البرمكي في حبسه وحبس معه جاريته ومغنيته دنانير لـــتقوم علي خدمته لأنه كان شيخا مسنا، ويقال أنه أفرج عنه وعنها بعد ذلك لأن

يحيي توفي بالرقة في (المحرم سنة ١٩٠ هـ سنة ٨٠٠ م). أما الفضل بن يحيي فقد ضرب بالسوط ليقر عن الأموال التي أخفاها، وقد توفي بعد النكبة بخمس سنوات في سجنه (المحرم سنة ١٩٣ هـ / سنة ٨٠٩ م).

وبخصوص محمد بن خالد البرمكي – أخو يحيي – فإنه لم يصبه من النكبة شيء لأنه كان بعيدا عما ارتكبوه من مساوئ، ومع ما نزل بالبرامكة فقد سمح الرشيد بعد فترة للشعراء أن يقولوا رثاءهم فيهم، وهكذا انتهي نفوذ البرامكة الذي استمر في دولة الرشيد سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وأخذ الرشيد يتولى أمور الحكم بنفسه.

ترتب علي نكبة البرامكة أن تحركت أحزان الفرس، وتذكروا مقتل أبي مسلم الخراساني وربطوا بين الحادثتين في عهد العباسيين، فعمدوا إلي تشويه صورة الرشيد واتهموه في خلقه بأبشع الاتهامات، واختلقوا قصة العباسة التي نقلها بعض المؤرخين دون تحرز للنيل من الرشيد والعرب عامة.

علي أن نكبة البرامكة تعتبر انتصارا للحزب العربي الذي تزعمته زبيدة زوجة الرشيد وأم ولده الأمين، ووقف إلي جوارها وزير الرشيد الفضل بن الربيع، كما أنها أتاحت للرشيد نفسه الفرصة لمباشرة شئون الخلافة بنفسه خاصة وأنه بلغ في تلك الفترة الأربعين من عمره وهو سن الحكمة والاتزان.

صفات الرشيد ووفاته :

تصفه المراجع جميلا ملتحما طويلا أبيض البشرة، كان من أفاضل الخلفاء ومن أفصحهم وأكرمهم وأكثرهم علما، كان يتشبه في أفعاله بالمنصور إلا أنه كان منه هبة وعطاء، فلم يجتمع علي باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء وطالبي الحاجات مثلما اجتمع علي باب الرشيد. إلي جانب هذه الصفات كان الرشيد شاعرا محبا للتاريخ وروايته، وكان وقورا مهيبا عند الناس جميعا، وكان يحج عاما

ويغزو عاما خلال خلافته، باستثناء بعض السنوات ذهب ليحج ماشيا علي قدميه ولم يحج ماشيا من الخلفاء غيره، وكان معه في الحج مائة ألف من العلماء والفقهاء وأسـرهم، وفي السنة التي يغزو فيها ولم يخرج للحج يأمر لثلاثمائة رجل بالنفقة والكسـوة ليحجوا بدلا منه وكان يصلي كل يوم مائة ركعة، وكان متواضعا يحسن معاملة العلماء، يروي أنه صب الماء علي يدي أبي معاوية الضرير – أحد العلماء – بعـد الطعام ثم أخبره بأنه هو الذي صب الماء علي يديه، فقال أبو معاوية : يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا إجلالا للعلم، فقال الرشيد نعم.

اشـتد المـرض علـي الرشيد وهو بمدينة طوس، فاستدعي طبيبا فارسيا وعـرض علـيه (البول) مع قوارير أخري، وبعد الفحص قال الطبيب الفارسي : أخـبروا صاحب هذا الماء أنه ميت من علته هذه، وعليه أن يعهد بوصيته. توفي الرشـيد يوم السبت ٤ جمادي الأخرة سنة ١٩٣ هـ / سنة ٨٠٨ م وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة أشهر.

محمـــد الأميـــن

١٩٣ - ١٩٨ هـ / ٨٠٨ - ٨١٣ م

بويع أبو عبدالله محمد الأمين بالخلافة في صبيحة اليوم التالي لوفاة للرشيد، وكان عمره إذ ذاك ثلاثا وعشرين سنة وكان موجودا حينذاك في (مرو) بخراسان، ويقال بل كان في بغداد وقد ولد سنة ١٧٠ هـ في نفس الليلة التي ولي فيها والده الرشـيد الخلافـة، ويعتـبر الأمين الخليفة العباسي الوحيد الذي أنحدر من أبوين عربييـن هاشميين، فوالدته أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور، وأبوه الرشيد، وربما كان ذلك من الأسباب التي قدمته علي أخيه المأمون لأن أمه كانت أعجمية (أمة).

كـان الأمين علي عكس أبيه ومن سبقوه من خلفاء بني العباس، فكان يقبل علـي اللهو ومعاشرة أهل المجون أرسل إلي جميع البلدان يطلب الملهين، فضمهم إليه، وأجرى لهم المرتبات، وأسرف كثيرا في أنفاق المال علي ملذاته ومتعة، فقسم مـا في بيوت الأموال وما في حوزته من جواهر علي خصيانه وجلسائه وندمائه، وأمر ببناء أماكن لمتنزهاته، ومواضع خلوته ولعبه ولهوه، ففي اليوم التالي لخلافته أمـر ببـناء ملعب بجوار قصر المنصور (ببغداد) ليلعب فيه الكرة، كما أمر ببناء حـراقات (سـفن) فـي دجلة تكون علي شكل الأسد، والفيل، والحصان، والحية، والعقـاب وأنفـق في بنائها أموالا طائلة لكي يتنزه فيها يصفه كثير من المؤرخين بأنه كان سيئ التدبير، كثير التبذير ضعيف الرأي أرعن لا يصلح للإمارة.

الفتنة بين الأمين والمأمون :

كـثرت الفتـن والاضطرابات في عهده، ومن أبرز هذه الفتن ما وقع بينه وبين أخيه المأمون الذي ولاه الرشيد ولاية العهد سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م، وتعتبر هـذه الفتنة من حيث خطورتها وأثرها علي الدولة الإسلامية الثالثة بعد الفتنة التي حدثت في عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان، والفتنة التي حدثت في دولة بنـي أمية بعد موت معاوية مؤسس الولة الأموية مما ترتب علي هذه الفتن تصدع الجبهة الإسلامية، وظهور أحزاب سياسية مختلفة الآراء.

يـرجع سـبب الفتنة بين الأمين والمأمون إلي وقوع كل منهما تحت تأثير ونفـوذ وزيـره، فالفضل بن الربيع الذي لعب دورا كبيرا في الانتصار للعنصر العربـي الذي كانت تمثله زبيدة أم الأمين في حياة الرشيد، واصل نفس الدور في حـياة الأميـن الـذي جعله وزيرا له، لأن الفضل بن الربيع أسرع بالعودة ومعه الجنود والأموال التي مع الرشيد في رحلته بمدينة (طوس) التي توفي بها، وقدمها للأمين وبايعه بالخلافة ثم أخذ يصرف شئون الدولة.

أما المأمون فقد أسلم قيادة إلي الفضل بن سهل الذي كان وزيرا له، والفضل بن سهل هذا من سلالة فارسية مجوسية دخل الإسلام في عهد البرامكة وكان يميل إلي إحياء القومية الفارسية التي بعثها أبو مسلم الخراساني في نفوس الفرس، وكان يدفـع المأمون إلي الاستقلال بالمناطق الشرقية من الدولة العباسية (خراسان وما يحـيط بهـا من أقاليم) ، ولذلك عبر بعض المؤرخين بقوله أن أسباب هذه الفتنة يـرجع إلـي التنافس الخطير بين هذين الرجلين (الوزيرين) القويين ومحاولة كل مـنهما السيطرة علي دولة بني العباس، وأنها في حقيقة أمرها نتيجة للصراع بين الحـزب العربـي والحزب الفارسي، وقد حاول الأمين أن يمنع أنفصال الأجزاء الشـرقية التـي كانت تحت نفوذ المأمون وحكمه رغبة منه في الحفاظ علي وحدة الخلافـة التـي تفتت بسبب تولي أكثر من ولي للعهد، ويبدو أن الأمين كان لديه

انطباع بتكتل الحزب الفارسي ضده، وكان يعلم أن تقسيم الدولة علي النمط الذي أجـــراه الرشـــيد بيـــن أبنائه إنما كان من تدبير البرامكة وخاصة جعفر بن يحيي البرمكي الذي غرس فكرة أزدواج ولاية العهد في دولة بني العباس.

ومن الغريب أن المأمون كان يعمل من ناحيته، وبطريقته، أو بمعني أصح بتأثـــير وزيـــره الفضل بن سهل، علي الحفاظ علي وحدة الخلافة ولذلك فكر في القضـــاء علـــي أخيه الأمين، وأقصاء الحزب العربي عن الخلافة وانفراد الحزب العجمـــي بهـــا، فالفضل بين سهل هو الذي أجج نار الفتنة بين الأخوين وهو الذي سعى إلي فصل خراسان عن الدولة وربما يكون ذا يد فيماوصم به الأمين من ذميم الصفات حيث أستعمل الشعوبيون خيالهم في نسج، هذه الصفات حول الأمين الذي لـــم يوفـــق فـــي اختيار مستشاريه وخاصة حاشيته، ولم يفطن لما يحاك ضده من مؤامرات فاتهمه المؤرخون بما اتهموه به.

تمكـــن الفضـــل من إقناع الأمين بعزل أخيه المأمون من ولاية العهد، وأن يجعلها في ابنه موسى بن الأمين، وفعلا دعا الأمين لولده بالإمارة وجعله بعد أخيه المؤتمـــن، ثم ما لبث أن خلع المؤتمن ثم طلب من أخيه المأمون أن يؤخر نفسه، ويجعل موسى بن الأمين مكانه في ولاية العهد، وطلب منه الحضور إليه فاستشار المـــأمون وزيـــره الفضل بن سهل وجماعة من خاصته، فحرضوه علي الامتناع، فعمـــل برأيهم، وكتب إلي أخيه الأمين يعتذر وتمكن الفضل ابن سهل من استمالة العـــباس بـــن موســـى، مبعوث الأمين إلي المأمون ولوح له بالإمارة علي بعض المناطق في مصر، فبايع المأمون سرا، وأصبح عينه في قصر الأمين، يبعث إليه والي الفضل بن سهل بأخبار الأمين من بغداد.

عمل الفضل بن سهل علي توسيع هوة الخلاف بين المأمون وأخيه الأمين، فعـــندما أرسل الأمين إلي بعض عماله في خراسان يطلب منهم التنازل عن بعض كورهـــا، حـــرض الفضل المأمون علي الاستقلال بخراسان، وعدم إجابة ما طلبه

الأميـــن كما أمر بسد الطرق والمنافذ المؤديه إلي خراسان، وعين عليها من يثق بهم من جنوده فضبطوا الطرق وأ كموا الرقابة عليها ولم يسمحوا بدخول أحد إليها إلا مـــن كـــان يحمل جواز المرور، أو من كان معروفا لديهم من التجار، وفتشوا الكتـــب (المكاتـــبات) ، كما حذر المأمون أهل خراسان من الميل نحو الأمين عن طريق الترغيب أو الترهيب، ثم بعث رسله إلي ملك كابول وملوك الترك وخاقان بالهدايـــا والهـــبات فخـــرجوا علي طاعة الأمين. ثم شاع المأمون أن الرشيد أخذ بالفعل العهد علي الجند وعلي الفضل بن الربيع بالبيعة له بالخلافة، ومعني هذا أن المأمون أصبح يمهد لنفسه بأحقيته في الخلافة.

كـــان رد الأميـــن علـــي هـــذه الأفعـــال أعـــلان البيعة بولاية العهد لابنه موســـى، وســـماه الـــناطق بالحق ،وأمر بالدعاء له علي المنابر بعده ،وقطع ذكر المـــأمون والمؤتمـــن في ربيع الأول سنة ١٩٥هـــ/٨١٠م ،وبعث برسله إلي مكة فـــأتوه بعهـــد الرشيد الذي كان قد كتبه وعلقه داخل الكعبة بخصوص ولاية العهد للأميـــن والمـــأمون ،وأمر وزيره الفضل بن الربيع بتمزيق هذه العهود ، ثم أخذ البيعة من بني هاشم والقواد والجند بولاية العهد لولديه موسى ثم عبد الله من بعده، وسماه القائم بالحق وبذلك نكث الأمين ما أخذه عليه أبوه الرشيد من عهود ومواثيق مما سيكون له أثره في تطور الأحداث وحدوث الفتنة بين الأخوين.

غضـــب أهـــل خرا سان من موقف الأمين، وانحازوا إلي المأمون يؤيدونه ضـــد أخـــيه وكـــان علي رأس المؤيدين قائداً، جنده هرثمة بن أعين، وطاهر بن الحســـين، الذي عسكر بالري علي رأس جيش كبير معظمه من الفرس الذين بعث بهـــم المـــأمون من خراسان، وفي الجانب المقابل تحمس الفضل بن الربيع وزير الأميـــن في مساندته، ووقف معه قائدان عظيمان من قواده هما علي بن عيسى بن ماهان، وعبد الرحمن بن جبلة وجهز الأمين جيشا من ثمانين ألف مقاتل معظمهم مـــن عرب البادية وجعل قيادته لعلي بن عيسى الذي كان يكره أهل خراسان لأنهم

دسوا عليه عند الرشيد فعزله ولاية خراسان وحبسه حتى أطلقه الأمين وعينه قائدا لجنوده، وخرج علي بن عيسى بهذا الجيش الضخم في شعبان سنة ١٩٥ هـ، وقيل في جمادي الآخرة، وخرج معه الأمين يودعه حاشيته.

وصل جيش الأمين إلي مشارف الري، والتقى بجيش المأمون، ودارت الاشتباكات بين الفريقين، وتمكن طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون من إنزال الهزيمة بخصمه علي بن عيسى قائد جيش الأمين وقتله، وأخبر القائد المنتصر سيده المأمون بهذا النصر في كتاب بعث به إليه جاء فيه : "كتابي إلي أمير المؤمنين، ورأس علي بن عيسى بين يدي، وخاتمه في أصبعي، وجنده مصرفون تحت أمري، والسلام" ولم يلبث طاهر بن الحسين أن أعلن خلع الأمين، الذي أطلق أهل خراسان عليه لفظ المخلوع، وأعلنت البيعة بالخلافة للمأمون، وهناك من يرى أن خلع الأمين حدث قبل هذه الموقعة.

بعض المؤرخين يرجعون هزيمة علي بن عيسي إلي صلفه وغروره، ويستدلون علي ذلك مما قاله قبل المعركة حيث أفتخر بقوته، وشبه نفسه بالأسد، واستهان بقوة خصمه وشبهه بالبغل الذي لا يقوى علي لقاء الأسد ... الخ، ووصلت درجة غروره إلي أنه أخذ معه قيدا من فضة ليقيد به المأمون بعد هزيمته، وفي رأينا أن الهزيمة ترجع إلي حقد أهل خراسان الدفين ضد علي بن عيسى منذ أن كان واليا عليهم في عهد الرشيد، فحاربوا ضده بشراسة فأحرزوا النصر عليه.

وصلت أنباء هذه الهزيمة إلي مسامع الأمين، وكان يصطاد سمكا، فلم يكترث بل بالغ في الاستهتار بالخبر، وأعلن غضبه علي مبلغه لأنه قطع عليه لذة الصيد وقال له : "ويلك دعني، فإن كوثرا قد اصطاد سمكتين، وأنا ما صدت شيئا بعد".

عـــاود الأميــر إرسال جيش ثان من عشرين ألف مقاتل علي رأسهم عبد الرحمـــن بـــن جبلة الأنباري، ووجهه إلي همذان، وأعطاه ولايتها وولاية كل ما يفـــتحه فـــي خراســـان، ويبدو أن الأمين تسرع في إرسال هذا الجيش ولم يحسن اختـــيار قـــائده، ولم يأخذ فرصة من الوقت لإعداده وتجهيزه، ووضع خطة يمكن التغلـــب علي خصمه لأنه أراد أن يمحو آثار الهزيمة التي منى بها جيشه الأول، ويخفف من حدة الفوضى التي سادت البلاد.

وصـــل عبد الرحمن بن جبلة بجيشه إلي همذان، وبدأ في تحصينها، ولكن طاهـــر بن الحسين عاجله بالمجئ إلي همذان فاضطر ابن جبلة لملاقاته علي غير استعداد، ودار قتال عنيف بين الجانتين انتهى بهزيمة ابن جبلة وانسحابه إلي داخل همذان حيث جمع جنده ورتب صفوف مقاتليه، وخرج بعد بضعة أيام لقتال طاهر وجـــيش المأمون، ومع ذلك هزم ابن جبلة، وقتل من جنده الكثير، وأعتصم داخل المديـــنة، فضرب طاهر عليها الحصار، فطلب ابن جبلة الأمان لنفسه ولمن معه، فوافقـــه طاهـــر ولكـــن ابن جبلة ما لبث أن هاجم خصومه علي غرة وقتل منهم جموعا، إلا أن الهزيمة دارت عليه، وقتل في المعركة.

أرســـل الأميـــن جيشـــا ثالثا تعداده أربعون ألف مقاتل معظمهم من عرب الجزيـــرة (العراق) بقيادة أحمد بن فريد ومعه عبدالله بن حميد بن قحطبة، ووصل هـــذا الجيش إلي موضع خانقين، وتمكن طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون من بـــث جواسيســـه داخل جيش الأمين، وأشاع الفرقة بين قواده وجنده فدب الخلاف بينهم وحدث اشتباك بين بعضهم البعض، وانسحبوا عائدين قبل مواجهة خصومهم، ثم حاول الأمين تكوين جيش آخر من أهل الشام ليضرب بهم أهل خراسان، ولكن الشـــاميين رفضوا المسير تحت راية العباسيين السوداء، وبذلك فشل الأمين في أن يجهـــز جيشـــا آخـــر لملاقـــاة أهل خراسان. ويبدو أن جند الأمين خافوا عدوهم، ونكصـــوا علـــي أعقابهم، وماتوا رعبا من لقائهم فهرب بعض أنصار الأمين ليلا

ومـــنهم عبدالله بن خازم ابن خريمة حيث فر إلي المدائن، مما سبب لهم الهزيمة والفشل.

أعقـــب ذلـــك فترة مشحونة بالفوضى والارتباك في مركز الخلافة ببغداد، حيث قام الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، وهو ابن القائد الذي قتل في الري، قـــام بانقلاب ضد الأمين وأعلن خلعه من الخلافة، وحبسه في قصر المنصور في رجـــب سنة ١٩٦ هـــ / سنة ٨١٢ م، هو وأمه زبيدة. وأعطي بيعته للمأمون هو وجمـــوع من المعسكر، ولكن فريقا آخر من عسكر الأمين لم يرضهم هذا الوضع فـــتحركوا بقيادة أسد الحربي (من فرقة الحربية) ويبدو أنها حرس الخليفة الأمين، ومعهم العوام في بغداد وخاصة أهل الأرباض فهاجموا الحسين بن علي بن عيسى وأخـــذوه أسيرا، وخلصوا الأمين وأمه من الحبس، وأعادوهما إلي قصر الخلد، ثم اسـتقدم الأميـــن الحسين بن علي عنده، وعاتبه فاعتذر إليه فعفا عنه وأمره بقتال المأمون ولكنه هرب، فأدركه أتباع الحسين وقتلوه.

أمـــا الفضل بن الربيع وزير الأمين، وصاحب النفوذ والسيطرة في القصر الخليفـــي، فإنـــه لم يطمئن علي نفسه عندما بلغت أحوال الدولة إلي هذا الحد من الفوضى والاضطراب فهو في بغداد، واختفي عن الأنظار، ولم يظهر علي مسرح الأحـــداث إلا بعـــد انتصار المأمون الذي عفا عنه، فبقي فيها إلي أن مات في ذي القعدة ٢٠٠ هـــ / ٨٢٤ م.

أخـــذ جيش المأمون يتقدم نحو بغداد، وتمكن قائده طاهر بن الحسين من أن يســـتولي علـــي الأقاليم التي كانت تخضع للأمين إقليما بعد آخر، فضم إليه إقليم الجبال جنوبي بحر قزوين، ثم منطقة الأهواز علي حدود العراق سنة ١٩٧ هـــ / ســـنة ٨١٢ م، ومـــنها أتجه إلي بغداد حيث ضرب هرثمة الحصار علي الجانب الشـــرقي من المدين،ة بينما حاصر طاهر الجانب الغربي منها، حيث كان الأمين يعـــيش فـــي قصر الخلد ونصبت المنجنيقات وحفرت الخنادق، واستمر الحصار

خمسة عشر شهرا، وأصيب عمران المدينة بأضرار بالغة بسبب قذائف المنجنيق (أحجار كبيرة ونفط مشتعل) فتهدمت أسوار المدينة ودمرت مبانيها، وشبت النيران فـــي أماكـــن كثيرة منها، فشوهت محاسنها، وأزالت معالمها، ونفذت الأقوات من المدينة، وعمت المجاعات وانتشرت الأمراض في أتباع الأمين وكانوا من السوقة والغوغاء، لأنه لم يكن عنده جيش بالمعني الحقيقي يتولى الدفاع عنه وعن عاصمة الخلافـــة، ومع هذا فقد قاتل هؤلاء بصرامة شهد قواد جيش المأمون، ودار القتال مـــن مكان إلي مكان حتى سميت الوقعات باسم الدروب، وقتل منهم حوالي عشرة آلاف، واضـــطر الأميـــن إلي بيع ما في خزائنه من أمتعة، فضرب ما عنده من تحف ذهبية وفضية دنانير ودراهم لينفق منها علي أتباعه.

طـــال الحصـــار، وتحرج الموقف وانصرف كثير من أعوان الأمين عنه، ومنهم محمد بن عيسى صاحب شرطته، وبدأت الأحياء التي كانت مستعصية علي جيش المأمون تسقط وتستسلم الواحدة بعد الأخرى، فقد استسلم حي الكرخ بأسواقه، ثـــم استسلمت واسط والكوفة والموصل والبصرة فاستباحها الجند ونهبوا القصور، وأحرقوا الدواوين بما فيها من وثائق، وأخذ قواد الأمين وخاصة رجاله يستأمنون لأنفســـهم عـــند طاهر بن الحسين، وظهرت فرقة في بغداد سمت نفسها المأمونية (نســـبة إلي المأمون) وأخذت تنادي بالبيعة للمأمون، عندئذ قدم أصحاب الأمين له النصيحة بأن يخرج إلي الشام، ويعيد جميع قواته، وترتيب صفوفه، ولكن البعض الآخـــر – ربمـــا بايعـــاز من طاهر بن الحسين – نصحه بأن يتنازل لأخيه عن الخلافـــة، وأقتـــنع الأمين بهذه النصيحة، وطلب أن يسلم البردة والخاتم والقضيب وهـــي من مخلفات الرسول الله صلي الله عليه وسلم، وهي علامات الخلافة، إلي طاهـــر بن الحسين بينما يسلم نفسه إلي هرثمة بن أعين لكبر سنه، ولأنه كان قائد جـــيش الرشـــيد، وأشترك في نكبة البرامكة، ويميل بعاطفته إلي الحزب العربي، وربما كان قصد الأمين أن يصحبه هرثمة إلي المأمون فيعفوا عنه، أو أن يصحبه

إلـــي الجانب الغربي من بغداد ويسلعده علي الهرب من هناك، أو علي الأقل أنه أراد أن يحمي نفسه من بطش طاهر بن الحسين أن ظفر به.

أرســـل هرثمة بن أعين حراقة (النش) في نهر دجلة، وقفت بباب خراسان، وقبل أن ينزل الأمين فيها ضم إليه ولديه وشمهما وقبلهما ثم ذرفت عيناه بالدموع ثـــم نـــزل إلي الحراقة، ووقف له القواد اعظاما، وأقبل هرثمة جاثيا علي ركبتيه وأخذ يقبل يديه ورجليه، ويبدي له الأعتذار، ولكن كمينا من الجنود أعده طاهر بن الحسين كان بالمرصاد للحراقة فرموها بالسهام والحجارة، فمالت وغرق معظم من كان فيها، وتمكن الأمين وهرثمة وبعض القواد من السباحة والوصول إلي الشاطئ ولكـــن أيـــدي جنود طاهر بن الحسين كانت في انتظاره، فقبض عليه وأخذ قهرا، وســـحب مـــن ناصـــية شـــعره، ووضع في السجن، حتى إذا كانت ليلة الخامس والعشـــرين مـــن شهر المحرم سنة ١٩٨ هـــ / سنة ٨١٣ م دخل عليه جمع مع الفرس في أيديهم السيوف فقتلوه وحزوا رأسه وطافوا بها في بغداد، ثم حملت إلي أخـــيه المـــأمون مع علامات الخلافة فلما رآها المأمون بكى وسجد وحزن لمقتله. وكـــان يرغـــب أن يرسل إليه حيا ليري فيه رأيه ويقال أن المأمون حقد علي قائد جـــنده طاهر بن الحسين لهذا السبب، فأهمله إلي أن مات طريدا بعيدا عن موطنه، ولكننا لا نميل إلي هذا الرأي بدليل أن الفضل بن سهل وزير المأمون قال له عندما رآه يبكـــي علـــي قتل الأمين : "أن محمدا – يقصد الأمين – كان يتمنى أن يراك بحيث رأيته" فأمر المأمون بوضع الرأس علي خشبة في صحن الدار، وأمر بلعنه، وقد دامت خلافته أربع سنوات وسبعة أشهر وعشرين يوما.

صفات الأمين :

تصـــفه المـــراجع التاريخية بأنه شديد بياض الوجه، صغير العينين، أقنى جمـــيل، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين،، من أحسن الشباب صورة طويل، ذو قوة مفرطة وبطش وشجاعة معروفة، قيل أنه قتل أسدا بيديه، كان فصيحا بليغا

ذا أدب وفضيلة عالما بالشعر، سخيا بالمال، ولكنه بخيل جدا بالطعام، مع هذا فإن ابـن الأثير وصفه بقوله : "لم نجدّ للأمين من سيرته ما نستحسنه فنذكره" ويخالفه في ذلك صحاب مروج الذهب والطبري وغيرهما مما ذكروا فضائل الأمين ونفوا عـنه شـربه للخمر، لأنه حبس أبا نواس لشربه إياها، ولأنه أمر قائد جنده عندما أرسـله لقتال أخيه المأمون بأن لا يترك جنوده يعبثون بالرعية، ونهاه عن انتهاك النساء ... الخ.

عبـــدالله المأمـــون (أبـــو العباس)

١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م

تولـــي المـــأمون الخلافـــة رسمياً صبيحة الليلة التي قتل فيها أخوه الأمين، وكانت يوم الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ هـ حيث أخذت له البيعة من الجـــند فـــي بغداد، لأنه كان بالري وظل بخراسان ولم يقدم إلي بغداد إلا في شهر صفر سنة ٢٠٤ هـ / سنة ٨١٩ م. أول من لقب نفسه من العباسيين بلقب لإمام وإمـــام المؤمنيـــن، كمـــا اتخـــذ لقب أمير المؤمنين أسوة بالخليفة الراشد عمر بن الخطـــاب رضي الله عنه ولد المأمون سنة ١٧٠ هـ قبل أخيه الأمين بستة شهور وأمـــه مـــراجل (أمه) فارسية، يعتبر المأمون من أعظم خلفاء بني العباس، ومن أقدرهـــم وأعقلهـــم، كان يميل إلي الجوانب العلمية وخاصة علوم الحكمة التي أمر بـــنقلها إلي اللغة العربية ولذلك قرب العلماء والحكماء إلي مجلسه كما عنى بعلوم الطـــب، ومـــن فلســـفته التي ألزم الناس بها قوله بـــ (خلق القرآن) وسمع للعلماء بالمـــناظرة في هذه المقالة (النظرية) وكان علي رأس المتناظرين الإمام أحمد بن حنبل الذي عارض هذه النظرية وضرب بسببها.

ثورات العلويين :

لم تتقطع الفتن والاضطرابات بتولي المأمون الخلافة، بل اندلعت من جديد وخاصـــة من جانب العلويين، الذين انتهزوا فرصة الصراع داخل البيت العباسي، ومقـــتل الأميـــن، فقاموا بزعامة أبي السرايا (السري) بن منصور الشيباني بفتنة عارمـــة سنة ١٩٩ هـــ / ٨١٥ م، وكان الذي حرض أبا السرايا علي القيام بهذه الفتنة هو محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي المعـــروف بابن طباطبا وكان شخصية علوية مرموقة تلخصت دعوته في اكتساب

الرضـــا من آل محمد، وهو نفس الشعار الذي رفعه بنو العباس والعلويون ونتج عـــنه قـــيام الدولة العباسية كما كان ابن طباطبا يدعو إلي العمل بكتاب الله وسنة رسوله محمد صلي الله عليه وسلم، ونجحت الدعوة بهذا الأسلوب في الكوفة مركز تجمـــع العلويين، والتف الناس حولها، وتمكن أبو السرايا من الاستيلاء إليه الحسن بـــن سهل أمير العراق ولكن القدر لم يمهل داعي العلويين ابن طباطبا على الكوفه فى جمادى الآخره سنة ١٩٩هـــ، وبعد أن هزم الجيش الذى أرسله حيث توفي في رجـــب أي بعـــد شهر واحد، وخلفه في زعامة العلويين داعية آخر هو محمد بن محمـــد زيـــد ابـــن علـــي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي أمر أبا السرايا بمهاجمة العباسيين في كل مكان بالكوفة حتى أجلوهم عنها، ثم أمر بضرب السكة ونقش عليها الآية القرآنية الكريمة "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنـــيان مرصوص" تحريضا للعلويين علي الاستمرار في محاربة العباسيين الذين سلبوهم حقهم في الخلافة – من وجهة نظرهم.

نتـــيجة لنجاح أبي السرايا في الاستيلاء علي الكوفة من يد العباسيين أنتشر العلويـــون فـــي أماكن متعددة وقاموا بالفتن والاضطرابات، فقد بعثر أبو السرايا جموعا من العلويين بقيادة زيد ين موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، وهـــاجم زيـــد مراكز العباسيين في البصرة واستعمل الشدة والقوة في مهاجمتهم، لدرجة أنه كان يأمر بحرق دورهم ولذلك سمي زيد النار، وفي مكة وثب العلويين بقيادة محمد بن جعفر بن محمد بن محمد بن علي ابن الحسين حيث أعلنت إمامته فـــرقة السبيطية من الحزب الشيعي وكان أبو السرايا بعث بأحد العلويون من عنده وهـــو بـــن الأفطـــس الذي تمكن من الاستيلاء علي مكة، ونزع عن الكعبة كسوة العباســـيين، وكســـاها ثوبيـــن أرسلهما أبو السرايا وعليهما شعار العلويين، وقطع الدعـــاء للمأمون من علي المنابر وسام العباسيين العذاب، وأقام لذلك دارا خاصة عرفت بدار العذاب.

وفـــي المديــنة وثــب محمـــد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن، واســتولى عليها، وأخذ في طرد العباسيين منها، ولم يلبث أبو السرايا أن عين من قــبله ولاة علي المدائن والأهواز واليمن، وبذلك استفحل أمره، وعظم خطره علي الدولـــة العباسية وشعر الحسن بن سهل الذي عينه شقيقه الفضل أبن سهل الملقب بذي الرياستين، والذي كان مديرا لشئون الخلافة، ومستحوزا علي الخليفة المأمون، شعر بعدم قدرته علي التصدي لأبي السرايا، فلجأ إلي الاستعانة بقائد مجرب كان أبو السرايا يعمل قبل ذلك تحت قيادته هو هرثمة بن أعين، الذي تمكن من هزيمة أبـــي الســـريا واضطره إلي الفرار من الكوفه إلى القادسية سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م، ومـــنها اتجه إلى من خوزستان ولكنه وقع في الأسر وأرسل إلي الوزير حسن بن سهل الذي أمر بقتله وبعث برأسه إلي الخليفة المأمون. كذلك بعث الفضل بن سهل بجـــيش يقـــوده أسحق بن موسى الذي كان عامل المأمون علي اليمن وطرد منها بواســـطة العلويـــين إلي مكة، فاستعادها من يد العلويين دون مقاومة تذكر، ومنح داعية العلويين في مكة (محمد بن جعفر) الأمان بشرط أن يعلن تنازله عن الإمامة للخليفة المأمون، وقبل جعفر هذا الشرط، ثم سافر يريد مقابلة المأمون، ولكنه توفي الطريق، ولم يلبث أن عادت المدينة ومدن العراق إلي سلطة العباسيين ونفوذهم.

وفـــي اليمـــن تحـــرك العلويون بزعامة إبراهيم بن موسى الكاظم وطردوا العباسيين منها، كما قامت الفتن في مصر والشام، ويبدو أن السبب في تحرك هذه الفتـــن وظهـــور هـــذه الاضطرابات يرجع إلي تغلب الحزب الفارسي، فقد أصبح الفضـــل بـــن سهل هو كل شئ في الدولة، لدرجة أنه تغلب علي المأمون وأنزله قصـــرا عزلـــه فيه عن أهل بيته وقواده، واستبد هو بالأمور من دونه ولقب نفسه الوزيـــر الأمير، كما تلقب بذي الرياستين لجمعه بين الكتابة والقيادة فغضب لذلك بنو هاشم وذوو الرأي في الدولة، فهاجت الفتن وكثرت الاضطرابات في الأمصار،

وانــتهز العلويون الفرصة المتاحة لهم فاستولوا علي المدن التي سبق أن ذكرناها في مناحي الخلافة العباسية.

أراد هــرثمة بــن أعيــن أن يبصر الخليفة المأمون بما يقوم به بنو سهل واتــباعهم من مؤامرات يدبرونها ضده بطريقة غير ظاهرة، خاصة بعد أن بسط الفضــل بن سهل نفوذه علي كل مقومات الدولة، وحبس المأمون في قصر منعزل بمــرو، فــاتخذ مســيره إلي حيث يقيم الخليفة، وفطن ابن سهل لما انتواه هرثمة، فأوعــز إلــي المــأمون بتوليــته الشام والحجاز حتى يبعده عن هدفه والاتصال بالمــأمون، وفهم هرثمة سر هذا التعيين المفاجئ فرفض الولاية، وواصل مسيره إلــي مــرو ليطلع المأمون علي ما جرى في دولته وما حجبه بنو سهل عن عينيه ويقنع المأمون بضرورة العودة إلي بغداد، وأعلن عن عزمه علي ذلك.

وصــلت كلمات هرثمة إلي مسامع الفضل بن سهل، فدس له عند المأمون بأنــه هو الذي حرك أبا السرايا لينتزع من الخليفة ما انتزعه من مدن، وأنه سبب هــذه الفتــن وأنه رفض أوامر الخليفة بولايه الشام والحجاز، وأنه لابد من تأديبه لــيكون عبره لغيره وبذلك نجح الفضل في أن يوغر صدر المأمون علي هرثمة، وانــتظر حــتى وصــل إلي مرو فأمر بعض أتباعه من الفرس بدق الطبول حتى يسمعها المأمون فيزداد غضبه علي هرثمة لأن الطبول لا تدق إلا للخليفة، ويقال أن هــرثمة هو الذي أمر بدق الطبول ليعلن عن مقدمة عند المأمون خشية من أن يحبسه الفضل ويباعد بينه وبين لقاء المأمون.

أمــر المأمون بدخول هرثمة عليه، ثم وجه إليه تهمة إثارة الفتنة في الكوفة وتحريض أبي السرايا ضده، وحاول هرثمة شرح الموقف للخليفة المأمون، فرفض الاســتماع ولم يقبل منه أي أعتذار، وأمر بحبسه وضرب أنفه، وأن يداس صدره، وانتهز الفضل هذه الفرصة فأمر بالتشديد عليه وتعذيبه، ولم يتحمل هرثمة ما أنزل به في سجنه فتوفى بعد عدة أيام قليلة، وقيل بل قتل في سجنه من اتباع ابن سهل.

نتج عن مقتل هرثمة أن ثار أهل بغداد علي أمير العراق الحسن بن سهل، وطردوا عماله منها، وعلي رأسهم علي بن هشام والي بغداد، ورغبوا في مبايعة إبراهيم بن المهدي بالخلافة، فقبل. ولكنه خشي علي نفسه من المأمون فاختفى لمدة ثماني سنوات. وحاول أهل بغداد إصلاح ما فسد بسبب الفتن والثورات، وعرف القائمون بهذا العمل باسم المتطوعة وكانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وينصحون بالتمسك بكتاب الله وسنة رسوله.

عادت اليمن إلي نفوذ العباسيين، وعين الخليفة المأمون عليها محمد الزيادي وكلفه بتتبع الشيعة العلويين في تهامه، فشيد مدينة زيديه، واستقرت له الأمور فيها وأصبح شبه مستقلا باليمن، ولكنه داوم علي الدعاء للخليفة العباسي من علي المنابر، وعلي دفع الخراج، وبذلك كان ارتباطه بالخلافة من الناحية الدينية فقط، وقد بقيت اليمن في ذريته علي حالة استقلالها إلي منتصف القرن السادس الهجري وعرفت بالدولة الزيادية.

علي الرضا وولاية العهد :

أقلقت هذه الاضطرابات والفتن بال الخليفة المأمون، وخشي عاقبتها، لا سيما وأنها شملت مناطق متعددة في الدولة وخصوصا مراكز الحزب العربي، ويبدو أنه أراد أن يخفف من وحدة هذه الفتن، ويطفئ نار الحقد والثورة التي أشعلها العلويون ضده، فقرر أن يجعل ولاية العهد في رجل منهم (أي من العلويون) ويعلل البعض اختيار ولي للعهد من العلويين بأنه دسيسة من الفضل بن سهل الذي أراد السيطرة علي العلويين كما سيطر علي العباسيين، وربما أراد الفضل بهذا العمل أن يتقرب إلي الفرس الذين كانوا يميلون بطبيعتهم نحو العلويين فأخذ يهيئ الجو أمام المأمون ويزين الأمر له بتنفيذه، وينفره من العباسيين الذين خرجوا عليه في بغداد حتى أقنعه بأن يختار الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم وليا للعهد سنة ٢٠١ هـ. يذكر المؤرخون أن المأمون نظر في بني العباس، وبني

علـــي، فلـــم يجد أحد يفضله ورعا، ولا علما، فاستقدمه إلي مرو حيث كان يقيم، وأنزلـــه أحســـن منزلة وأكرم، وفادته، ثم عرض عليه ولاية العهد، واعتذر علي الرضا ولم يبد سببا لاعتذاره، ولكن المؤرخون يفسرون هذا الرفض لعدة أسباب : منها أن ولاية العهد في بني العباس غير مستقرة منذ قيام دولتهم. فكيف تستقر له وهو علوي؟ وربما بسبب ما أصاب والده موسى الكاظم من تعذيب وسجن علي يد المهـــدي ثم الرشيد من بعده حتى توفي وهو في السجن لسنة ١٧٥ هـــ، وقيل بل فـــي ســـنة ١٨٣ هـــ، ويمكن القول أن العلويين كانوا لا يثقون في العباسيين منذ انفرادهم بالدولة، ولعبت أزمة عدم الثقة عند علي الرضا دورها فرفض أو أعتذر.

علي أية حال تمكن المأمون من إقناع علي الرضا بقبول ولاية العهد، وربما ألـــزمه بها، وبايع له يوم الثلاثاء الثاني من رمضان سنة ٢٠١ هـــ / مارس سنة ٨١٧ م، ولقـــبه الرضا من آل محمد صلي الله عليه وسلم، ثم كتب إلي الأمصار كلهـــا بولايـــته للعهـــد، وأمر جنده بخلع السواد شعار العباسيين، ولبس الملابس الخضراء، وهو شعار مستحدث في دولة العباسيين، لأن العلويين شعارهم البياض ثم ضرب اسمه علي السكة من دنانير ودراهم، ثم زوجه ابنته أم حبيب، كما زوج محمـــد بن علي بن موسى ابنته الثانية أم الفضل، ويبدو أن الإمام علي الرضا قام بمـــا كان هرثمة بن أعين يبتغيه، فأطلع المأمون علي حقيقة الأوضاع في الدولة، وشـــرح له سوء الأحوال السياسية والاجتماعية بسبب كثرة الاضطرابات والفتن، ومـــا قـــام به الفضل بن سهل من تستر وإخفاء الحقيقة عليه، وما ادعاه كذبا علي هـــرثمة بـــن أعين واستعان الإمام علي الرضا في ذلك بعدد من الشهود الموثوق فـــيهم، فأخـــبروه بأن أهل بغداد غاضبون، وقد بايعوا إبراهيم بن المهدي ولقبوه الخليفة السني، لأنهم يرفضون أن تخرج الخلافة من ولد العباس، لأنهم يظنون أن مبايعة الإمام علي الرضا بولاية العهد مؤامرة دبرها الفضل بن سهل لنقل الخلافة إلي العلويين.

صمم الخليفة المأمون إلي العودة إلي بغداد، فخرج من مرو سنة ٢٠٣ هـ / ٨١٧ م وقدم عزم علي التخلص من الفضل بن سهل، ومن علي الرضا حتى يصفو له الجو، فلما وصل إلي مدينة سرخس دس بعض رجاله علي الفضل فقتلوه وهو في الحمام بدار المأمون في الثاني من شعبان وأراد المأمون أن يبعد التهمة عن نفسه فأمر بضرب رقاب القاتلين، ففضحوه وقالوا له : "أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا" فقال : أنا أقتلكم بإقراركم وأما ما أدعيتموه علي من أني أمرتكم به فدعوى ليس لها بنية". أما الإمام علي الرضا فإنه توفي بمدينة طوس فجأه في صفر سنة ٢٠٣ هـ / سنة ٨١٨ م بسبب تناوله عنبا مسموما، فصلي عليه المأمون ودفنه بالقرب من قبر هرون الرشيد.

وربما رجع المأمون إلي صوابه وقرر عدم نقل الخلافة إلي العلويين عندما انتدب الإمام عليا الرضا ليصلي بالناس ذات يوم عيد، فخرج علي يرتدي البياض وهو يمشي إلي المسجد، فلما رآه الناس هرعوا إليه يقبلون يديه ويتجمعون حوله فأسرع بعض حاشية المأمون إليه وقالوا : يا أمير المؤمنين تدارك الناس، واخرج وصل بهم، وإلا خرجت الخلافة منك الآن، فحمله هذا الأمر علي الخروج بنفسه، وجاء مسرعا والرضا لم يخلص إلي المصلي، لكثرة ازدحام الناس عليه، فتقدم المأمون وصلى بالناس.

ثورة أهل بغداد :

ويذكر البعض أن المأمون عدل عن رأيه في تحويل الخلافة إلي العلويين بسبب ثورة أهل بغداد عليه، ومبايعتهم لإبراهيم بن المهدي بولاية العهد بدلا من علي الرضا. وقد ساعد الحظ الخليفة المأمون بأن اختفت من طريقه إلي بغداد شخصيات لها دورها وأثرها في الأحداث السياسية. فالفضل بن سهل، والإمام علي الرضا قد قتلا، وإبراهيم بن المهدي الذي بويع بولاية العهد في بغداد قد اختفى في ذي الحجة سنة ٢٠٣ هـ عندما علم بقدوم المأمون إلي بغداد، وظل متخفيا حتى

سـنة ٢١٠ هـ وكذلك اختفى الفضل بن الربيع وزير الخليفة الأمين (المخلوع) خوفا المأمون عليه، وحفاظا علي حياته.

دخـل المـأمون بغداد سنة ٢٠٤ هـ فنزل بقصر الرصافة، ثم انتقل إلي قصـره علي شاطئ دجلة، وأسرع بمعالجة الأمور، فأقر الخلافة في بني العباس، وعـزلها عـن العلويـين، وأمر بالعودة إلي السواد شعار العباسيين، وترك اللون الأخضـر الذي كان قد أمر به، كما أمر بالبحث عن إبراهيم المهدي حتى جئ به إليه، وكان إبراهيم قد اشترك في مؤامرة تزعمها ابن عائشة وهو إبراهيم بن محمد بـن عـبد الوهاب لاغتيال المأمون ولكن المؤامرة انكشفت وفشلت، وقبض علي الزعيمـين متخفيين في زي النساء وهما يحاولان الهرب واقتيدا إلي الخليفة، فأمر المأمون بقتل ابن عائشة ولكنه عفا عن إبراهيم بن المهدي الذي قدم اعتذارا رقيقا رق له قلـب المأمون. ومن ضمن ما اعتذر به قوله : "... وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب كما جعل كل ذي ذنب دونك، فإن تعاقب فبحقك، وإن تعف فبفضلك".

اسـتقدم الخليفة المأمون عامله علي الرقة وهو طاهر بن الحسين الخزاعي إلـي بغداد فوصلها سنة ٢٠٥ هـ فولاه المأمون إقليم خراسان ليعمل علي عودة سلطان ونفوذ المأمون بعدما تلاشيا بسبب تسلط الفضل بن سهل واستبداده بالأمور في خراسان، كذلك بعث أبنه عبدالله بن طاهر واليا علي الجزيرة والشام ومصر، ووجد طاهر بن الحسين في توليته خراسان إبعادا له عن مركز الخلافة وهو الذي أبلى بلاء حسنا وقاد الخلافة إلي المأمون وهو بعيد عن بغداد خاصة، وأن المأمون كـان قـد نقله من بغداد إلي الرقة، وعين علي بغداد الحسن بن سهل، لذلك عمل طاهر علي أن يستقل بخراسان فأسقط اسم المأمون من خطبة الجمعة، ونقل كلثوم بـن ثابت صاحب البريد في خراسان هذا الحدث الخطير إلي المأمون، فدبر أمر قـتله، ولكـن طاهر بن الحسين توفي سنة ٢٠٧ هـ بالحمى قبل أن تمتد إليه اليد التي أمرت بقتله وخلفه علي خراسان ولده الثاني طلحة بن طاهر بن الحسين الذي

حكـــم خراســـان وتتكون فيها دولة شبه مستقلة عن الخلافة العباسية عرفت باسم "الدولـــة الطاهرية"، تكون بداية لظهور دويلات أخري مثلها في المشرق العربي، كما ظهرت دويلات مماثلة في المغرب العربي.

ومـــن الثورات التي أقلقت بال المأمون ثورة قام بها نصر بن شبث العقيلي ومعـــه جمـــوع كثـــيرة من العرب (بني عقيل) المقيمين في شمال حلب وكان من أنصـــار الخليفة الأمين وأتباعه وكان ينقم علي المأمون ميله إلي الخراسانيين، وقد تغلب نصر بن شبث علي المناطق المجاورة له، وانحاز إليه كثير من العرب، ومن العلوييـــن الذين طلبوا منه أن يبايع خليفة منهم، ولكنه رفض ذلك، وقال أن هواي مع بني العباس، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب. ومع هذا فقد انتهت هذه الثورة بالفشـــل، لأن المـــأمون كلـــف عبدالله بن طاهر بن الحسين الذي كان علي ولاية الجزيـــرة والشـــام ومصر بحرب نصر ومن معه ونجح عبدالله في إنزال هزيمة بنصـــر وأتـــباعه وضـــرب عليه الحصار حتى طلب الأمان بشرط ألا يذهب إلي المـــأمون، خشـــية علـــي حـــياته، فـــأبى المأمون هذا الشرط واستمرت الحرب بين الفريقين حتى أرغم نصر علي الذهاب إلي قصر المأمون في شهر صفر سنة ٢١٠ هـــ / ٨٢٤ م بعد أن استمرت الحرب حوالي خمس سنوات.

حـــدث فـــي مصر عندما أعلن المأمون ولاية العهد لعلي الرضا، إن كاتب إبراهيم المهدي من العراق أعيان العرب في مصر فمالوا إليه، وأظهروا غضبهم، فلمـــا توفـــي الرضـــا واستعاد المأمون الخلافة في بني العباس إنحاز جنود مصر للمـــأمون من جديد، وبذلك عمت البلاد الفوضى، فقد تدخل الجند في تعيين الولاة وعزلهم، كما تدخلوا في تعيين رئيس الشرطة وعزله، ووثب بمصر رجل يقال له عبيدالله بن السري بن الحكم سنة ٢٠٦ هـــ / سنة ٨٢١ م، وكاد يستقل بها.

كذلـــك حدثـــت فتـــنة من العرب المهاجرين من الأندلس، فهؤلاء كانوا قد خرجوا علي الحكم بن هشام وثاروا في وجهه، فأمر بنفيهم خارج الأندلس، فانتقلوا

إلـــي مديـــنة فاس بالمغرب الأقصى (مراكش)، ومنها قدموا إلي مصر، فهاجموا الإسكندرية ودخلوها، فتصدى لهم عبدالله بن طاهر، فطلبوا منه أن يمدهم بالسلاح والمال ورحلوا إلي جزيرة كريت وتركوا الإسكندرية سنة ٢١٢ هـــ فكان وجودهم بها سببا في دخول الإسلام بهذه الجزيرة.

ثـــم ثـــار المصريون عربا وقبطا بعد رحيل عبدالله بن طاهر إلي خراسان التـــي تولـــي أمرها سنة ٢١٤ هـــ / سنة ٨٢٩ م، ويرجع سبب ثورتهم إلي ميل بعضـــهم إلـــي المـــأمون وميل البعض الآخر إلي أتباع الأمين، وهؤلاء كانوا من القيســـية واليمنـــية الذين احتلوا الفسطاط وطردوا عامل المأمون سنة ٢١٣ هـــ، فبعث المأمون أخاه المعتصم ومعه جيش من الترك، وجعل له ولاية الشام ومصر، وتمكـــن المعتصـــم من استرداد الفسطاط وقتل كثير ا من وجوه القيسية واليمنية، ولكـــن بعـــد عودته إلي الشام ما لبث أن ثارت جموع القبط في الدلتا وجموع من العـــرب في الاسكندرية وكانت ثورة القبط بسبب تشدد عامل المأمون وقسوته في جباية الخراج الذي أتبع فيه نظام الالتزام أو قبالات. الأرض كما فرضت ضرائب علي الأسواق ولم تكن معروفة في مصر من قبل، فساءت الحالة الاقتصادية وتذمر المصريون في كافة مدن الوجه البحري لدرجة أن المأمون أضطر سنة ٢١٧ هـــ / ٨٣٢ م إلي الخروج بنفسه علي رأس جيش من جنوده متوجها إلي مصر لتهدئة الأحـــوال فيها وقد صحبه أخوه المعتصم وأولاد أخيه الواثق والمتوكل مما يعطي انطباعا علي خطورة الثورة في مصر ويبدو أن المأمون استخدم الشدة والعنف في إخماد هذه الفتن وبقى في مصر أقل من شهرين حتى هدأت الأحوال نسبيا، ثم عهد إلـــي قـــائده الافشين بإخماد ثورة القبط في الحوف فقتل الافشين منهم عددا كثيرا، وسبا منهم جموعا، وأرغمهم علي الخضوع لحكم المأمون، وحول بعض كنائسهم إلي مساجد، وأمرهم بلبس علامات مميزة وبذلك أذلهم في أرض مصر، وأضعف شوكتهم، ولم يخرج منهم أحد بعد ذلك علي السلطان.

وفــي خــلال المدة القصيرة التي قضاها المأمون في مصر عنى ببعض الإصــلاحات الضــرورية فأمر ببناء مقياس لمياه النيل في الدلتا، فكان من أوائل المقايــيس التي بنيت منذ عرفت مصر الإسلام، كما أمر بإقامة جسر علي النيل، وبتحســين العملــة الفضــية حتى اشتهر الدرهم الرباعي الذي بقى مستعملا حتى مجــيء الفاطميــين إلــي مصر، ويبدو أن المأمون وقف علي سوء معاملة عامله عيســى بــن موسى للمصريين بصفة عامة فعزله، واتهمه بسوء الحكم، وأنه كان الســبب فيما حدث بمصر من انتفاضات وقال له : "لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عــن فعلــك، وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتني الخبر، حتى تفاقم الأمــر واضــطرب الــبلد، ولكي يطيب خاطر القبط في مصر سمح لهم بتعمير كنائسهم، وعودة الرهبان إلي الأديرة".

علاقة الخليفة المأمون بالدولة البيزنطية :

علي الرغم من كثرة الفتن والثورات التي حدثت خلال عهد المأمون، فإنها لم تمنعه من إنزال لطمات قاسية ضد الامبراطورية البيزنطية، فقد تمكن المسلمون مــن الاستيلاء الكامل علي جزيرة كريت "أقريطش" التي تقع في مواجهة برقة في البحر الأبيض المتوسط وكانت تعج بسكانها اليونانيين.

حقــيقة أن كريــت تعرضــت للإغارات العربيةوالفتح الإسلامي في عهود عــثمان، ومعاوية والوليد بن عبد الملك وهرون الرشيد سنة ١٩٠ هـــ / ٨٦٠ م، إلا أنها لم تكن كلها تحت سيطرة المسلمين كما حدث في عهد المأمون، الذي اتفق مع المهاجرين الأندلسيين الذين نزلوا الإسكندرية بأن يرتحلوا إليها (كريت) – كما أسلفنا – وتمكن زعيمهم أبو حفص طاهر البلوطي من غزوها وإخراج الروم منها، وأصبحت قاعدة بحرية للمسلمين يبنون فيها السفن الحربية التي أغارت علي الدولة البيزنطية، وكانت كريت تابعة للوالي العباسي في مصر.

كذلـك قـام الأغالبة في عهد زيادة الله بن إبراهيم الأغلبي سنة ٢١٢ هـ بغـزو جزيـرة صقلية التي تعتبر أكبر جزر البحر الأبيض المتوسط، وكان قائد الحملـة، التـي بلـغ عدد جنودها عشرة آلاف، الفقيه أسد بن الفرات الخراساني الأصـل نزلت الحملة جنوبي الجزيرة، ثم زحفت نحو شرقها، وضربت الحصار علـي حصنها ومقر حاكمها، ولكن بيزنطة أرسلت أسطولا لنجدته مما جعل مهمة الحملـة صعبة، وزاد في صعوبتها انتشار الطاعون بين الجند المسلمين ووفاة أسد بـن الفرات به سنة ٢١٣ هـ / سنة ٨٢٨ م، فاضطر المسلمون إلي فك الحصار والاتجـاه نحـو شـمال الجزيرة حيث حاصروا مدينة بالرمو في سنة ٢١٦ هـ، وظلوا عليها خمس سنوات حتى استولوا عليها.

وفـي سـنة ٢١٥ هـ / سنة ٨٣٠ م، خرج المأمون ومعه ابنه العباس متجهين إلي الموصل ثم إلي منبج، ثم إلي أنطاكية والمصيصة وطرسوس وتمكن من فتح بعض الحصون، ويبدو أن خروجه كان تمهيدا لغزو الثغور البيزنطية، ففي العام التالي سنة ٢١٦ هـ خرج المأمون بنفسه ومعه أخوه المعتصم وفتح أكثر من عشرين حصنا من حصون الروم منها حصن هرقلة.

أخـذ المـأمون بعد ذلك يحارب الأمبراطور البيزنطي تيوفلس عن طريق تشـجيع توماس الصقلبي، الذي ثار علي الإمبراطور في آسيا الصغرى، فقد أمده بالمـال والرجال، ووعده عرش الإمبراطورية نفسها. وكان رد الإمبراطور علي المأمون أن أتبع نفس الإسلوب في محاربته، فاحتضن الخرمية أتباع بابك الخرمي الفارسي وسمح لهم بأن يتخذوا من الدولة البيزنطية مركزا لنشاطهم ضد المأمون، وتمكـن بـابك من الخروج علي المأمون والمعتصم هو واتباعه بالمناطق الجبلية الواقعـة شـمال شرقي حران وأعلن استقلاله عن الدولة العباسية وبقي علي ذلك حوالـي ٢٢ سـنة (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) نشر خلالها مذهبه في الإباحية والإنحلال الخلقي.

استمرت هذه الحرب السياسية بين الرجلين ولم يحرز أي منهما علي لآخر نصرا حاسما، حتى أن الإمبراطور سئم هذه الطريقة، وعرض علي المأمون سنة ٢١٧ هـ عقد هدنة ورد أسرى المسلمين، وتبادل التجارات ... الخ ولكن المأمون عرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية، ثم قام بحملة تمكن فيها من الاستيلاء علي حصن لؤلؤة بالقرب من طرسوس، وعزم علي غزو القسطنطينية نفسها في العام التالي، ولكن القدر لم يمهله حيث توفي يوم الخميس ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ / ١٠ أغسطس سنة ٨٣٣ م ودفن في طرسوس.

المأمون يتزوج ابنة وزيره :

بعد أن استقرت الأمور للخليفة المأمون في بغداد أسند الوزارة إلي الحسن بن سهل، ثم طلب منه الزواج بابنته بوران وكان ذلك في رمضان سنة ٢١٠ هـ، ورحب الوزير بهذا الطلب، وتمت مراسم الزواج في مدينة فم الصلح بالقرب من بغداد، وتصف المراجع حفل الزفاف، وما أنفقه الوزير الحسن بن سهل، وما أهداه من ضياع وعقار وجواري وما نثره من أموال (دنانير ودراهم) ومسك وعنبر ... الخ وصفا لا يصدقه الإنسان.

العلوم والفنون في عهد المأمون :

تميز عصر المأمون عن عصور ما قبله من خلفاء بني العباس بأنه كان عصر العلوم والمعرفة لأن المأمون، كان محبا لتحصيل العلم ونشر الفنون في دولته، ويبدو ذلك واضحا في إقامة عمارة (بيت الحكمة أو دار العلم) في بغداد وكان الرشيد قد وضع أساسها، ثم أمدها المأمون بما يحتاج إليه من مصنفات الكتب العلمية في كل فرع من فروع المعرفة مما جلبه من بلاد الفرس والهند وبيزنطة وغيرها، حتى أصبحت هذه الدار أشبه ما تكون بجامعة لها مكتبة عامرة يؤمها العلماء والمثقفون وراغبو العلم والنساخون والمترجمون الذين اتقنوا الترجمة

مـن اللغات الأخري إلي العربية أو العكس، وقد عين لهذه الدار العلمية موظف عرف باسم (صاحب بيت الحكمة) كان يختار ممن يتصفون بسبعة العقل والأمانة العلمـية، ولذلك أعتبر بيت الحكمة أعظم المعاهد العلمية والثقافية التي أنشئت بعد مكتبة الإسكندرية القديمة ومدرستها.

حقـيقة أن الخلـيفة المنصور كان أعلم رجال عصره، وأن أولي محاولات التعريـب ظهرت في أيامه، حيث أوجد ديوانا للترجمة عين فيه مترجمون توفروا علي ترجمة كتب العلماء من غير المسلمين، وحقيقة أن البرامكة علي عهد الرشيد لعـبوا دورا بارزا في نشر جوانب متعددة من الثقافة الفارسية في الدولة العباسية، ولكـن المأمون فاق هؤلاء جميعا فقد انتشرت حركة الترجمة إلي العربية في كل فـروع العلوم المختلفة تقريبا، ولميله إلي العلم وحبه للبحث وحرية الفكر استخرج كتب الفلاسفة وعلوم اليونان من جزيرة قبرص إلي جانب ما كان موجودا من هذه الكتـب القـيمة فـي مراكـز الحضـارة القديمة في الدولة الإسلامية مثل مدينة الإسـكندرية التي اعتبرت مركز الإشعاع الفكري والحضاري لمدن البحر الأبيض المتوسـط جميعها وكذلك المناطق المجاورة لحضارة الدولة الإسلامية في العراق مثل حران ومدن فارس وجند يسابور، ثم كلف حنين بن أسحق (١٩٤ - ٢٦٠ هـ / ٨٠٩ - ٨٧٣ م) والطبيب بختيشوع والحجاج بن مطر وثابت بن قرة بترجمتها إلي الغربية واطلع علي كثير مما جاء فيها.

كذلـك أوجـد مجالس المناظرة ليتمكن بواسطتها من الوصول إلي الحقيقة العلمـية وإتاحة الفرصة للعلماء بإبداء آرائهم العلمية في جو من الحرية وكان هو نفسـه يشارك في هذا الحوار العلمي، وقد دفعه ذلك إلي النظر في علوم الأوائل، والـتحدث فـي علـوم الطب، وتقريب العلماء وأهل الحكمة، ويكفي أن نذكر أن المأمون كان يعطي لحنين بن أسحق عن كل كتاب يترجمه إلي العربية وزنه ذهبا،

ولذلـك تـرجم حنيـن وولده أسحق بن حنين ٩٥ كتابا للسريانية، ٣٩ كتابا إلي العربية، وكان مرتب كل منهما شهريا (٥٠٠ دينار).

ومن ناحية أخري ينبغي الإشارة إلي الترجمة التي تمت بواسطة بعض أهل الفـرس ممن تأثروا بالجوانب العربية والإسلامية، أو ممن لعبت الجوانب السياسية دورا في حياتهم حيث نظر بعض هؤلاء إلي أنهم دعائم قيام الدولة العباسية، ولابد مـن تغطـية هذه الدعائم بالنواحي العلمية والحضارية فسارعوا إلي ترجمة كتب هندية وفارسية ويونانية وسريانية إلي العربية.

نذكر من هؤلاء ابن المقفع علي عهد المنصور وهو فارسي الأصل، ومحمد بـن إبراهـيم الغزاري الذي يعتبر أول من نظر في علم الفلك، وأول من أستخدم الاسطرلاب وكان في عهد الرشيد، وكذلك محمد بن موسى الخوارزمي ويعتبر من أشـهر العلمـاء المسلمين لما له من سبق في علم الرياضيات حتى أن كتبه كانت المـراجع الأساسـية للجامعـة الأوربية حتى القرن ١٩ م، وقد عاش في عصر المـأمون، ولهـذا يطلق بعض المشتغلين بتاريخ الحضارات علي العصر العباسي الأول أنه عصر تعريب التراث الإنساني والحضارات السابقة علي الإسلام.

ترتب علي حركة الترجمة هذه أن انتشرت اللغة العربية في كل مكان ذهب إلـيه المسـلمون، وأصبحت العربية لغة الحضارة كما هي لغة القرآن والشريعة وسـاعد علـي انتشارها أن الذين دخلوا في الإسلام من الشعوب الأسيوية اندفعوا لـتعلمها والـتحدث بهـا لـيقفوا علي أسس التعاليم الإسلامية سواء في الجوانب التشريعية والفقهية أو في الجوانب الاقتصادية والمالية (معاملات ... الخ).

ومـن ناحـية أخـري فإن معظم الذين دخلوا في الإسلام من هذه الشعوب الأسيوية أرادوا أن ينسلخوا من لغاتهم كما انسلخوا عن دياناتهم لاعتقادهم أن هذه اللغات ذات صلة بالأديان التي تركوها وراء ظهورهم، فكان لابد لهم من تعلم لغة الإسلام والمسلمين فاقبلوا علي تعلم العربية.

الجانب الأخر الذي ترتب علي انتشار اللغة العربية هو ظهور مادة جديدة للكتابة غير المادة التي كانت تحتكرها مصر منذ القديم (ورق البردي) فقد عرفت الدولة الإسلامية علي عهد الرشيد صناعة الورق الذي عرفته الصين سنة ١٠٥ م، فقد أنتقلت صناعته إلي سمرقند سنة ٧٥١ م ومنها إلي بغداد سنة ٧٩٤ م حيث انتشرت صناعته في عواصم الدولة الإسلامية كلها تقريبا.

كان من نتيجة حرية الرأي والمناقشات بين طبقة العلماء في قاعة المناظرات أن ظهرت بعض النظريات العقائدية التي تسببت في وجود الفرق الإسلامية مثل المعتزلة التي أصبحت المذهب الرسمي للدولة العباسية منذ عهد المأمون حتى عهد المتوكل أي قرابة قرن كامل من الزمن، وقد أعتقد أصحاب هذا المذهب بأن القرآن مخلوق، ودار حول هذا الاعتقاد كثير من الآراء بين العلماء والقضاة، وختلفوا اختلافا بينا حوله، فقد تزعم علماء المعتزلة وعلي رأسهم ابن الهزيل، وابن سيار والجاحظ الرأي القائل بأن القرآن مخلوق، ومعني هذا أنه محدث وليس أزليا ونفوا أنه كلام الله عز وجل، كما تناولوا بالبحث صفات الله عز وجل وزعموا أن الله لا يرى جهرة يوم القيامة، ويقال أن المأمون شارك في المناقشة في هذه الآراء وأنه اعتمد في صحتها، وأرسل في سنة ٢١٨ هـ إلي اسحق بن إبراهيم بن مصعب (والي بغداد) كتابا مطولا يقيم فيه الدليل علي صحة هذا الرأي، الذي أخذت به المعتزلة، وقد توعد في هذا الكتاب كل من يخالف القول بذلك من الموظفين بإقالته من وظيفته، وأخذ المأمون يمتحن بنفسه القضاة والعلماء والشهود وأهل الفقه والقراء ليقف علي رأيهم في مشكلة خلق القرآن فمن أعترف بأن القرآن مخلوق أخلى سبيله، ومن عارضه أعلمه برأيه وأمره أن يلتزم به، وكان الإمام أحمد بن حنبل ممن أصر علي أن القرآن كلام الله عز وجل وأنه قديم أزلي، وليس مخلوقا، فأمر المأمون بشد وثاقه في الحديد مع مجموعة كانت معه وأرسلهم جميعا إلي طرسوس ليبعدهم حتى لا يتأثر الناس بقولهم، وفي نفس الوقت

قرب إليه أتباع مذهب المعتزلة، الذين أصبح نفوذهم كبيراً في الدولة وخاصة عند الخليفة المأمون، ووصل من درجة افتتان المأمون بهم وبنظريتهم أنه كاد يثير حربا داخلية في الدولة لتأثيره بآراء المعتزلة.

ومن المسائل التي اختلافا ومناقشات كثيرة وحامية بين العلماء، وأصحاب الرأي نظرية الخلافة وفيمن تكون شرعا بعد انتقال الرسول صلي الله عليه وسلم إلي الرفيق الأعلى وقد رأي علماء المعتزلة أن عليا هو خير الناس بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم ومعني هذا أن الخلافة ينبغي أن تكون له ولذريته من بعده، كذلك حثوا الناس علي ذكر معاوية بالخير لموقفه من علي رضي الله عنه ومن ذريته من بعده. ويبدو أن المأمون كان يريد أن يجمع الأمة الإسلامية علي مذهب عقائدي واحد فمال إلي المعتزلة لأن رأيها في الإمامة كان يتفق مع فهمه في أن العلويين أحق الناس بالخلافة لدرجة أنه عليا الرضا الإمام الثامن من أئمة الشيعة الاثنا عشرية لولاية العهد، ولكن المأمون لم يحرز شيئا من النجاح فيما ناقشه من مسائل ولم يتوصل إلي هدفه الذي كان يسعى إليه وهو توحيد كلمة الأمة في هذه الأمور التي جرت عليها الشقاء والبلاء، وكانت سبب تفرقها شيعا وأحزابا.

صفات المأمون ووفاته :

تغلبت علي المأمون ثقافته الفارسية التي ربما كانت لأمه (مراجل) أثر كبير فيها، ويجمع المؤرخون علي أنه أفضل رجال بني العباس رأيا وحلما وعزما، وأكثرهم دهاء وشجاعة وهيبة، وأنه لم يجلس علي كرسي الخلافة من العباسيين من هو أعلم منه.

كان مولعا بلعبة الشطرنج، وكان يعلل ذلك بقوله : "أنها تشحذ الذهن" كان مضيافا، فمن عادته إذا حضر إليه الفقهاء والعلماء الذين يناظرونه أدخلهم حجرة مفروشة، تعد فيها موائد الطعام والشراب، فيتناولون منها ما يشاءون ثم يمر الخدم عليهم بالمباخر يحرقون البخور، ويقدمون الطيب، وبعدها ينتقلون إلي غرفة

المناظرة، حيث يتناظرون في المسائل المختلفة حتى غروب الشمس، ثم تقام لهم مآدب الطعام والشراب مرة ثانية، فيصيبون منها ما يشاءون وبعدها ينصرفون.

تصـــفه المراجع التاريخية بأنه كريما أديبا عالما، نشر العلم وشجع العلماء، وقـــرب الأدبـــاء، وأغـــدق عليهم الهبات والعطايا، حتى أصبح عصره من أزهى عصور الأدب في العصر الإسلامي لأنه كان نفسه ضليعا في الأدب، يذكر عمارة بـــن عقيل أنه أنشد المأمون قصيدة يمدحه فيها، وكانت مائة بيت، فكان كلما ابتدأ عمـــارة بصدر بيت من الشعر، بادر المأمون يذكر الشطرة الثانية، فقال عمارة : والله يـــا أمـــير المؤمنيـــن ما سمعها مني أحد قط، فقال المأمون : هكذا ينبغي أن يكون، تحلى بكثير من الصفات الحميدة، فقد كان يكره الانتقام من خصومه ويميل إلي العفو عند المقدرة، والدليل علي ذلك أنه عفا عن إبراهيم بن المهدي الذي أعلن نفســـه خليفة نحو عامين سبب فيهما الكثير من القلق للمأمون. أما كرمه فيظهر لنا مـــن المـــنحة التي وهبها وزيره الحسن بن سهل أن تزوج ابنته بوران، فقد منحه عشـــرة آلاف درهم وأطلق له خراج فارس والأهواز مدة من الزمن وكذلك عندما كـــان فـــي دمشق وقل المال بين يديه فاشتكى ذلك إلي أخيه أبي أسحق المعتصم فأرســـل إليه مالا كثيرا حملته أباعر كسيت بأحسن هيئة فلما وصلت هذه الأموال نظـــر إلـــيها المـــأمون وفي صحبته يحي بن أكثم فاستكثرها وعظمت في عينيه ووصـــلت أخـــبار هـــذه الأموال إلي العامة فخرجوا ينظرون إليها ويعجبون من كثرتها، فقال المأمون ليحيي : يا أبا محمد ! ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم خائبين إلي منازلهم، وننصرف نحن بهذه الأموال قد ملكناها دونهم؟ أنا إذا للئام. ثم دعـــا محمد بن يرداد، وأخذ يأمره بتوريع الأموال، ويسمي له الأشخاص، ويحدد المبلغ حتى وزع معظم هذه الأموال، ومع كل هذه الصفات الحميدة نجد أن بعض المؤرخين اتهموه بالغفلة وعدم تقديره للأمور، ويأخذون عليه أنه أرتكن إلي وزيره الفصـــل بـــن سهل الذي استبد بالأمور من دونه، وأنه خضع له واستمع إليه وأمر

بحيس هرثمة بن أعين الذي ذهب إليه ناصحا ليطلعه علي أحوال البلاد واستبداد وزيـــره الفضل بأمور العباد، ولو لم يتدارك الأمر بنفسه وانتقل إلي بغداد، وأدار شئون الدولة بحزم وعزم لفسد ملكه وضاعت الخلافة من بني العباس.

توفـــي المأمون بالحمى يوم الخميس ١٦ رجب سنة ٢١٨ هـــ / أغسطس ٨٣٣ م أثـــناء رحـــيله إلـــي فتح عاصمة الروم (القسطنطينية) وقد تخطي الثامنة والأربعيـــن مـــن عمره، ودفن شمال مدينة طرسوس. في دار كانت لخاقان خادم هرون الرشيد وكانت خلافته عشرين سنة، وخمسة أشهر، وثلاثة وعشرين يوما.

محمـــد المعتصـــم

٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م

تولـــي أبو أسحق محمد المعتصم أمر الخلافة يوم وفاة أخيه المأمون، وكان حيـــنذاك علي ولاية الشام ومصر في عهد المأمون، الذي عهد إليه بالخلافة عندما اشتد عليه مرض الحمى، وعدل عن تولية ابنه العباس بن المأمون الذي كان يتمتع بســمعة طيبة، وشهرة واسعة بين الجند العرب، ولذلك رفض الجند في أول الأمر أن يعطوا البيعة للمعتصم، وأرادوا تولية العباس ابن المأمون، ولكن العباس سارع إلـــي مـــبايعة عمـــه المعتصم احتراما لعهد أبيه، وبذلك اضطر الجنود إلي مبايعة المعتصم.

سار الخليفة المعتصم علي سياسة أخيه المأمون، ونفذ ما أوصاه به من أن يحمـــل الناس علي القول بخلق القرآن، وأن ينزل الأذى بكل من يعترف بغير ذلك مـــن العلمـــاء وأهل الرأي، وأن يهتم بأمر الرعية، وخاصة العامة فأن الملك بهم، ولذلـــك نجـــد أن المعتصـــم يلجـــأ إلي إهانة الإمام أحمد بن حنبل ويأمر بحبسه لإصراره علي عدم الاعتراف بخلق القرآن، وأصبح العلماء والقضاة في خوف من الاضـــطهاد المحـــيط بهـــم، ومن وسائل التعذيب الجلد بالسياط إذا لم يعترفوا بأن القرآن مخلوق.

موقف المعتصم من العلويين :

واصل المعتصم سياسة الشدة مع العلويين كما سار عليها آباؤه من قبل، ولم يتـــبع سياسة المأمون معهم، ولجأ إلي الحيلة والمكيدة للتخلص من قربهم المأمون إليه.

فقـد تخلص من محمد بن علي الرضا روج أم الفضل ابنة المأمون خشية أن يطلب الخلافة باعتبار أن أولاده ينتسبون إلي المأمون من ناحية أمهم، وأنه هو نفسـه (أي محمـد الجواد) ابن علي الرضا الذي كان ولي عهد الخليفة المأمون. ولكـن محمد الجواد توفي بعد وصوله إلي بغداد سنة ٢١٩ هـ، واتهمت زوجته بدس السم له، وربما كان ذلك بإيعاز المعتصم لها.

كذلـك تخلـص من محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين الـذي رحـل مـن الكوفة إلي خراسان لخوفه من بطش المعتصم وفي خراسان انضـمت إليه جموع كثيرة من أهلها، وثارت المخاوف في نفس المعتصم، فأرسل إلـيه بعـض جيوشه، فهزمت في كثير من المواقع في خراسان، ولكن عبدالله بن طاهر تمكن أخيرا من حمله إلي المعتصم، فحبسه في سامراء حتى مات في حبسه وقيل أنه قتل مسموما.

فتنة الزط بالبصرة :

مـن المصـاعب التـي واجهـت المعتصم خلال فترة حكمه ثورة الهنود المعروفيـن بالـزط، وكانوا قد سكنوا المناطق الجنوبية من العراق والبصرة منذ الفـتوحات الإسلامية الأولي علي عهد الشيخين، وقد بدأت ثورتهم في فترة النزاع مـا بين الأمين وأخيه المأمون، الذي أرسل لهم جيشا بعد الآخر لمحاربتهم، ولكن ثورتهـم لـم تخمـد وظلـت تشـكل خطرا علي الدولة العباسية وعلي مواردها الاقتصـادية خاصـة بعدمـا استولوا علي لطريق المؤدي إلي البصرة، وفرضوا الإتـاوات والمكـوس الظالمـة علي سفن التجارة ثم حاولوا دون وصول المؤن والأقوات إلي بغداد نفسها.

وجـه المعتصـم جيشا لمحاربتهم علي رأسه عجيف بن عنبسة في جمادي الآخـرة سنة ٢١٩ هـ فنزل بالقرب من واسط، وأخذ يسد عليهم المسالك البرية والنهرية، وحاصرهم من كل جانب، وقاتلهم قرابة تسعة شهور، وقتل منهم في أحد

المعــارك ٣٠٠ مقــاتل وأســر مــا يقرب من ٥٠٠، ولكنه أمر بضرب أعناق الأسرى، فنزلوا علي رأيه وطلبوا منه الأمان وكان عددهم حوالي سبعة وعشرين ألفا بين رجال ونساء وأطفال وبلغ عدد مقاتليهم أثني عشر ألفا، وقد حملهم عجيف فــي السفن إلي بغداد سنة ٢٢٠ هــ فأمر المعتصم بنفيهم إلي عين زربة في آسيا الصــغرى، فظلــوا بها حتى وقعوا أسرى في أيدي البيزنطيين سنة ٢٤١ هــ في خلافة المتوكل علي الله العباسي، فنقلهم البيزنطيون إلي القسطنطينية ومنها وجدوا طــريقا إلــي أوربا ونزل بعضهم إلي أسبانيا ويرجح استاذنا الدكتور العبادي أن الغجــر الموجوديــن في أسبانيا حاليا من سلالة الزط، ويعرفون بإسم جيتنو وهو قريــب جدا من الاسم الفارسي للزط (جت) خاصة وأن هؤلاء الزط اشتهروا في المشرق الإسلامي باشتغالهم بالغناء والرقص وإلهاء الجماهير.

ظهور العنصر التركي :

اعــتمد خلفــاء بني العباس الأول علي العنصر الفارسي الذي لعب الدور الأول في قيام الدولة العباسية، ثم أخذ البعض منهم يوازن في سياسته بين العنصر العربــي والعنصر الفارسي ولكن المعتصم أدخل علي مسرح النزاع عنصرا ثالثا هــو العنصر التركي الذي ظهر لأول مرة في تاريخ الخلافة العباسية، وأخذ يعتمد علــيه اعتمادا كليا، وربما كان السبب في ذلك راجعا إلي أن أم المعتصم (مارءة) مــن الجــوارى العناصــر الفارسية فأراد أن يضربهم بعنصر جديد غير العنصر العربــي الذي ضعفت شوكته ولانت عريكته أمام ازدياد النفوذ الفارسي في الدولة العباســية، فالترك علي عداء قديم مع الفرس ثم أنهم معروفون بشدة البأس، وقوة المراس، وإصابة الرمي بالسهم والحربة وهم علي ظهور الخيل.

أســند المعتصم للترك مناصب الدولة الرئيسية، واستكثر من شرائهم حتى بلغــوا خمســين ألفا، وكان يجلبهم من أسواق الرقيق (أسواق النخاسة) فيما وراء النهر حيث بلاد القفجاق، وكون منهم جيشا كبيرا يقوم بالدفاع عن الدولة، كما أتخذ

لنفســـه منهم حرسا خاصا، وأهمل العنصر الفارسي والعربي إهمالا تاما، بل أنه اســقط العــرب مــن ديــوان العطاء، ويقال أن العرب المقصودين هنا هم عرب الحوفيــن الشــرقي والغربــي في مصر لدرجة أن البعض عبر عن ذلك بقوله : انقرضت دولة العرب من مصر، وأن عصبية العرب فسدت في دولة المعتصم ب ويعــزو الــبعض أن السبب في إسقاط العرب من ديوان العطاء يرجع إلي غضبه مــنهم حيث دبروا له ولقواده من الترك مؤامرة بزعامة قائده عجيف الذي قضى علــي الزط، كان الغرض منها التخلص من المعتصم وحاشيته الأتراك، وانتهزوا فرصة خروجه في جملة (عمورية) ضد الروم واتفقوا مع العباس بن المأمون علي تنصيبه في الخلافة، ولكن المؤامرة انكشفت قبل تنفيذها وقبض المعتصم علي ابن أخيه (العباس) كما قبض علي زعماء المؤامرة ومدبريها، ودفع بالجميع غلي قواده من الترك لتعذيبهم والانتقام منهم.

ثورة المبرقع اليماني :

ســخط العرب علي المعتصم بسبب موقفه منهم، وانتهز زعمائهم الفرصة لــتحريض اتباعه وإثارة الناس ضده، وقد انتهز أبو حرب المبرقع اليماني فرصة دخــول أحــد الجند في داره وهو غائب، فاشعل نار الثورة في فلسطين قبل موت المعتصــم بقليل، وتربص بهذا الجندي حتى قتله، ولكنه خشي علي نفسه من انتقام الترك منه، فتخفى بأن وضع علي وجهه برقعا وهرب إلي بلاد الأردن حيث أخذ يحرض الناس علي المعتصم، ويزعم أنه أموي، فالتفت جموع كثيرة حوله وخاصة مــن اليمانية، فارسل إليه المعتصم جيشا يربو علي المائة ألف جندي، تمكن قائده من القبض علي المبرقع بعد أن انفض عنه أكثر أتباعه وذهب به إلي سامراء حيث كان يقيم المعتصم.

ثورة بابك الخرمي :

ترتبط هذه الثورة والقائمون بها بمعتقدات الفرس القديمة سواء كانت مجوسية أو زرادشتية، ثم مزجت بأهداف قومية الغرض منها إحياء دولة فارس والعودة إلي دينهم القديم، مما هدد كيان الخلافة العباسية ،وظهر خطرها علي عهد المأمون ولكنه استشرى علي عهد المعتصم، ويرجع نسب بابك الخرمي إلي أبي مسلم الخراساني، وقد أعتصم في منطقة الجبال بالقوقاز وظل معتصما بها منذ عهد الرشيد ولم تتمكن جيوش الدولة العباسية من هزيمته، وفي عصر المعتصم زادت خطورة الحركة الخرمية فقد أمدها الأمبراطور ثيوفيل بن ميشيل العموري بالمال والعتاد نكاية في الدولة العباسية التي ساءت علاقتها مع الروم، وقد تمكن المعتصم من محاربة الخرمية في أول عهده في نواحي همذان ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م وقتل منهم ما تقدره المراجع بستين ألفا، ولكن الخرمية قتلت من المسلمين نساء وأطفالا وجنودا ما يزيد علي المائة ألف في سنة ٢١٩ هـ، ثم هزمت جيوش المسلمين في سنة ٢٢٠ هـ كذلك، وأخيرا أرسل المعتصم جيشا من الترك يقوده الأفشين بنفسه سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م وقد زود هذا الجيش بالعتاد الحربي وبقاذفات اللهب (النفطية) ولكن قسوة البرد، ووعورة البيئة الجبلية لم يتمكن الافشين من إحراز نصر علي الخرمية، ثم لجأ الافشين غلي بلدة بابك نفسها فدمرها وأحرقها وأوقع ببعض قواده، وأسر أبناء بابك وذريته، ولكنه تمكن من الإفلات مع أهله وولده ونزل بمكان في أرمينية لم يلبث أن قبض عليه هناك وأرسل إلي المعتصم في صفر سنة ٢٢٣ هـ / يناير ٨٣٨ م فشهر به إمام أهالي سامراء، ثم أمر المعتصم بقتله والتمثيل به جزاء ما اقترفت يداه من كثرة القتل في المسلمين لدرجة أن بلغ عددهم ما بين ربع مليون قتيل إلي مليون قتيل.

حرب الثغور (عمورية) :

استغل الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل فرصة انشغال المعتصم وجيوشه بثورة بـــابك الخرمي، وأراد أن ينتقم منه بسبب مساعدة المأمون لتوماس الصقلبي ضد الروم، فبدأ بمساعدة بابك الخرمي، كما قدمنا ذلك، ثم أخذ يجهز جيوشه التي بلغت أكـــثر مـــن مائـــة ألف جندي وهاجم شمال الشام والجزيرة، واستولوا علي مدينة زبطـــرة سنة ٢٢٣ هـــ / ٨٣٨ م وقتلوا من بها من المسلمين ثم اتجهوا إلي مدينة ملطية القريبة منها وكانت من أهم ثغور المسلمين، فنهبوها وقتلوا الكثير من أهلها وســبوا غـــير قلـــيل من نسائها وذراريها، ويقال أن امرأة هاشمية ممن وقعن في الأســـر صـــاحت تستغيث بقولها : وامعتصماه ... وامعتصماه، فلما بلغه هذا النبأ اســـتعظمه وكبر عنده وقال : لبيك .. لبيك ونهض من ساعته وصاح في حاشيته النفير ... النفير عندئذ أرسل المعتصم عجيف بن عنبسة القائد العربي الذي قضي علـــي بابك الخرمي وذريته، أرسله علي رأس فرقة من جيشه ومعه بعض القواد لاستخلاص زيطرة من أيدي الروم، وربما ليحولوا دون تقدم الجيش البيزنطي في أراض الدولة الإسلامية حتى يستكمل المعتصم تجهيز جيشه وفعلا جهز المعتصم جيشـــا تعداده حوالي مائة وثلاثين الف مقاتل من الترك والعرب والعجم ومن أهل الشـــام والجزيـــرة. تعطينا المراجع تفاصيل مثيرة عن تقسيماته وأسلحته وألويته ومـــيرته وعـــتاده وعدته التي خرج فيها، وزاد من حماس هذاالجيش أن المعتصم خرج علي قيادته بنفسه يساعده قواده الآخرون مثل الافشين وأشناس.

دخلـــت جيوش المعتصم آسيا الصغرى، وتقابلت مع الجيش البيزنطي عند انقـــرة فالـــتحم جـــيش المعتصم به وأنزل به الهزيمة، ثم انحدر إلي عمورية في جمـــادي الأولـــي ســـنة ٢٢٣ هـــ وضرب عليها الحصار، ثم ضربها بالمنجنيق، والدبابـــات، وأشتد القتال حولها واستمر حوالي ستة شهور، تمكنت جنود المعتصم فـــي آخـــرها من دخول المدينة عنوة في ١٧ رمضان سنة ٢٢٣ فقتلوا من أهلها

وحمايتها حوالي ثلاثين ألفا، ثم دمروا المدينة وأحرقوها، وكثرت السبايا والأسرى منهم في معسكر المعتصم، فسمح لاشرافهم وذوي المكانة منهم بتقديم الفدية المجزية وعفا عنهم.

رجع المعتصم بعد هذا النصر الحاسم علي الروم في عمورية إلي سامراء، وقد جلب معه أحد أبواب مدينة عمورية ذكرى لانتصاره العظيم، ووضع هذا الباب في دار الخلافة ببغداد، وعرف باسم باب العامة، وكانت أنباء انتصارات المعتصم علي ثيوفيل بيزنطة قد حركت مشاعر المسلمين فتصدى شعراؤهم بالمديح للمعتصم، من ذلك قول أبي تمام : .

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حدة الحد بين الجد واللعب

يا يوم وقعة عمورية أنصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب

أبقيت جد بني الإسلام في صعد ... والمشركين ودار الشرك في صبب

بناء مدينة سامراء :

مر بنا كيف اعتمد المعتصم علي العنصر التركي الذي جلبه إلي دولة العباسيين، وكيف زاد نفوذ هؤلاء الترك واتسع سلطانهم، لدرجة استفحل خطرهم، ووقع المعتصم نفسه تحت تأثيرهم وبالتالي خضع لرأيهم، ولم يلبث هؤلاء الأتراك أن أصبحوا آفة علي العامة من أهل بغداد، فكانوا يمرون في الأسواق وهم علي خيولهم تجري بهم بسرعة فتصيب النساء والشيوخ والأطفال، وتلحق بهم الأذى، فيتحرك أهل بغداد ويثورون عليهم، ويقتلون بعضهم في ثورة غضبهم لما أنزلوه بالضعفاء والنساء، ووجد المعتصم أنه لابد من تلافي هذا الشر قبل أن يستفحل من جانب جنوده فعول علي أن يبني مدينة جديدة في مكان يبعد عن بغداد، لتكون مقرا لهؤلاء الأتراك، ويقال أن شيخا مسنا من أهل بغداد اشتكى للمعتصم وهو خارج من مصلاه يوم عيد الترك، ومما قاله للمعتصم : لا جزاك الله خيرا عن الجوار،

جاورتـنا وجئــت بهــؤلاء العلــوج فأسكنتهم بين أظهرنا، فأيتمت بهم صبياننا، وأرملــت بهم نسواننا، وقتلت بهم رجالنا. والمعتصم ينصت له فلما انصرف قرر بناء مدينة سامراء ليكون فيها متسع للأتراك وتم ذلك في سنة ٢٢١ هــ / ٨٣٦ م.

تــبعد سامراء حوالي ٦٠ ميلا إلي الشمال من بغداد، وتقع في مكان يسهل منه الوصول إلي بغداد في نهر دجلة أو بالبر، وفي طرفها أقيم مسجد جامع، كما أقيم سوق لأرباب الحرف وأهل الصناعات، وأمر المعتصم بتجميل المدينة الجديدة ليتخذها حاضره لملكه، فغرست بها الحدائق والأشجار، وزرعت البساتين، وشيدت المتنزهات، ولم يلبث العمران أن سعى إلي المدينة الجديدة، فارتفعت فيها القصور وتعددت فيها العمارات، ولذلك سميت سر من رأى، وقد ظلت هذه المدينة محتفظة بــبهائها وعظمــتها حــتى نهايــة عصر المعتضد سنة ٢٨٩ هــ فأصابها الدمار والخراب فأطلق أهلها عليها (ساء من رأى) ثم أختصر الاسم إلي (سامراء).

صفات المعتصم ووفاته :

تصــفه المراجع بأنه كان سديد الرأي، قوي البنية، شجاعا ومن أشد الناس بطشا، تغلبت عليه صفته الحربية حتى لقب الخليفة القائد، وكان موفقا في حروبه، ومن أبرز صفاته الصراحة وحب البساطة، ولكنه تشبه بملوك الأعاجم في حياته، ســمي المثمن لأنه الثامن من ولد العباس، وثامن الخلفاء العباسيين، وتولى الخلافة وهــو ابــن ثماني عشرة سنة، وغزا ثماني غزوات، وكانت خلافته ثماني سنين وثمانــية أشــهر وخلف ثمانية ذكور، وثماني بنات، وولد شهر شعبان وهو الشهر الثامــن في السنة، وتوفي وعمره ثمان وأربعون سنة (في ربيع الأول سنة ٢١٧ هــ / ٨٤٢م).

هـــارون الـــواثق بالله

٢٢٧ - ٢٣٢ هـــ / ٨٤٢ - ٨٤٧ م

تولـــى أبـــو جعفر الواثق بالله هارون بن المعتصم شئون الخلافة في اليوم الذي توفي فيه أبوه، وكان يوم الخميس ١٨ من ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـــ، وأمه تركـــية تســـمي قراطيس. أعتمد عليه أبوه المعتصم أثناء غيابه في سامراء أثناء بنائها، كما أنتدبه لبعض الأعمال الأخرى. سار علي سياسة أبيه في الاعتماد علي الأتـــراك الذيـــن كـــثر عددهم واحتلوا المناصب الكبيرة في الدولة، وبلغت درجة اعتماده عليهم أن ولي آشناس التركي شئون القصر والدولة، وألبسه تاجا مرصعا بالجواهـــر، وبذلـــك كـــان أول خليفة في الدولة يعين سلطانا شارك أباه في ميوله المذهبية وآرائه الفلسفية، وتشدد في نشر آرائه المذهبية خلق القرآن، فأثار بتشدده مشـــاعر أهل بغداد ضده، فسخطوا عليه وتآمروا علي حياته وعلي دولته وتزعم هـــؤلاء المتمرديـــن أحمد بن نصر الخزاعي سنة ٢٣١ هـــ، وأنكروا القول بأن القرآن مخلوق، وشنوا حملة شعواء علي الواثق، ودعوا إلي عزله، وتشجيع أحمد ابن نصر لكثرة أتباعه، وحدد يوما لتنفيذ مؤامراتهم للإطاحة بالواثق، ولكن أخبار المؤامـــرة كشـــفت، وقبض علي أحمد بن نصر، وسيق إلي سامراء حيث عقد له مجلـــس فـــيه قاضـــي القضاة أحمد بن داود الذي ناظر ابن نصر في مسألة خلق القرآن، فتمسك ابن نصر بأنه كلام الله عز وجل ولم يعترف برأي المعتزلة فتناول الواثـــق، الصمصـــامة، وهو سيف له تاريخ فضربه علي رقبته وطعنه في بطنه، وحز رأسه، ثم أمر بحمله إلي بغداد حيث صلب بها عند باب الخرمي.

وضـــح تعصب الخليفة الواثق لمذهب المعتزلة في كل تصرفاتهم، ففي سنة ٢٣١ هـــــ حينما تم تبادل الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين (وهو ما يعرف في المراجع العربية باسم فداء خاقان نسبة إلي الخادم التركي - وكان الفداء الثالث في

العصـــر العباســـي) كان مندوب قاضي القضاة الذي يشرف علي تبادل الاسرى ويســـمى أحمد بن سعيد الباهلي كان يمتحن أسرى المسلمين وقت تبادلهم فمن قال منهم بخلق القرآن، وبنظرية المعتزلة في عدم رؤية الناس لله عز وجل يوم القيامة، وافـــق هذا المندوب علي إعادته لدولة بني العباس وفدي به أسيرا من البيزنطيين، ومن لم يعترف بهذه النظرية المذهبية ترك أسيرا في أرض الروم.

آثر الخليفة الواثق أن يعيش حياة هادئة، فانصرف عن الغزو الخارجي في آســيا الصــغرى (مع الدولة البيزنطية) ، وربما اضطر إلي ذلك بسبب المشاكل الداخلــية فــي دولته، أو أن هدوء الدولة البيزنطية ووقف اغاراتها علي اراضي المسلمين بعد وفاة الإمبراطور ثيوفيل وتوليته ابنه الصغير ميشيل الثالث وانشغاله بالفتن الدينية في دولته، كان من الأسباب التي أدت إلي هدوء العلاقات بين بيزنطة ودولة بني العباس. وقد بلغ حرص الواثق علي استمرار هذا الهدوء أن عزل واليه علـــي الـــثغور والعواصم وهو أحمد بن سعيد الباهلي عندما خرج في شاتية ضد الـــروم فغرق من جنده فير قليل في نهر البدنون، وتصدى له أحد بطارقة الروم، ومع هذا فقد غنم الباهلي أعدادا كثيرة من البقر والغنم عائدا ولكن الواثق رأى أن يعزله، وولي مكانه نصر بن حمزة الخزاعي.

ويبدو لي أن جنوح الواثق بالله إلي هذا الهدوء أو هذه الاستكانة كان راجعا إلي خوفه من ازدياد سلطان ونفوذ الأتراك الذين سيطروا علي كل شئ في الدولة حـــتى أصبح هو نفسه مكتوف الأيدي مسلوب الارادة، وسيطغى سلطان الترك في عصـــر الخلـــيفة المتوكل الذي حاول أن يخفف من تسلطهم علي الدولة فيقتلونه، ويولون بدله المنتصر الذي يصبح ألعوبة في أيديهم.

والحقيقة أن ظهور الأتراك علي مسرح الأحداث في دولة بني العباس أدى إلـــي إخماد نار الخصومة التي كانت مشتعلة بين الفرس والعرب من جهة ثم بين العلوييـــن وبنـــي العـــباس أنفســـهم من جهة أخرى مما مكن لنفوذهم في الظهور

والسـيطرة علي مقدرات الدولة والعمل علي مصلحتهم فقط، وقد ترتب علي ذلك ظهـور الدويـلات المستقلة وشبه المستقلة في أطراف الدولة العباسية مثل الدولة الصـفارية والسامانية والغزنوية، ودولة الاغالبة بتونس، والفاطمية بالمغرب، ثم الطولونـية والأخشـيدية بمصر، وبني أمية بالأندلس، والدولة الزيدية باليمن، مما كـان سـببا في تفكك الدولة الإسلامية، وانفراط عقدها إلي هذه الدول الصغيرة، وبالتالي إلي ضعف الخلافة العباسية واضمحلالها علي المدى البعيد.

الفصل الثاني

الــدولة العباسية في العصر العباسي الثانـي

(عصــر نفــوذ الأتــراك)

٢٣٢ – ٣٣٤ هـ / ٨٣٧ – ٩٤٦ م

١. المعتصم والأتراك.

٢. سيطرة الأتراك علي الخلافة.

٣. عصر نهضة الخلافة.

٤. عودة نفوذ الأتراك.

٥. عصر أمرة الأمراء.

٦. الثورات الاجتماعية ضد الدولة العباسية.

"ضعف الخلافة العباسية"

١- المعتصم والأتراك :

كان العرب هم سناد دولة بني أمية وعصبيتها، وهم الذين قامو بها وأعانوها، حتى سقوطها في سنة ١٣٢ / ٧٥٠.

وكان الفرس سناد دولة بني العباس وعصبيتها، وهم الذين قاموا بها وأعانوها، حتى نهاية عهد الواثق سنة ٢٣٢ / ٨٤٧.

على أن سياسة العباسيين في إيثار الفرس، أدت إلي هياج العرب عليهم من ناحية، وإلي محاولة الفرس السيطرة علي الدولة نفسها، أو إزالتها وإعادة ملكهم القديم من ناحية أخرى.

حينئذ بدأ بنو العباس يفكرون في الاعتماد علي عصبية أخرى غير العرب وغير الفرس، كان الأتراك أحد الشعوب التي لعبت دوراً هاماً ولا يزال في حياة الدولة الإسلامية، وقد عاشوا في مواطنهم الأصلية ببلاد ما وراء النهر وما يليها حتى تخوم الصين بدواً رحل، ينتجعون موارد المياه، ويمارسون حياة تشابه من وجوده عديدة حياة العرب في الجاهلية.

أصطدم المسلمون بالترك حين امتدت فتوحهم امتداداً واسعاً في المشرق علي يدي القائد الكبير قتيبه بن مسلم، الذي راعته شجاعة الترك، وصبرهم علي القتال، وأخذ المسلمون يستميلونهم إلي دينهم ويستقدمونهم إلي حواضرهم كغلمان يخدمون في بيوتهم، وجوار يتسرون بهم.

توسع بنو العباس في هذه السياسة، بعد أن استقرت حدود المسلمين في بلاد ما وراء النهر، فكان الرقيق من الأتراك، يتوافد إلي بغداد ومدن العراق، عن طريق الشراء أو الأسر، حتى زهرت به دور المسلمين وبخاصة كبارهم.

وفي سنة ٢٠٠ هـ أهدى عامل بخاري إلي الخليفة المأمون غلاماً تركياً يدعى طولون، نبغ ولده فيما بعد وخلصت له مصر وبعض أنحاء الشام.

في سنة ٢١٨ ولي الخليفة المعتصم وكان قد فسد ما بينه وبين الفرس الذين تنادوا إلي خلعه وتولية أبن أخيه العباس بن المأمون، فشرع في التحول عنهم وعن العرب إلي عنصر آخر كان لا يزال علي الفطرة، ولم تصبه الحضارة بأوشابها.

كان هذا العنصر هو الأتراك.

أعان المعتصم علي سياسته هذه أن أمه كانت أم ولد تركيه تدعى مارده.

بعث المعتصم في طلب الأتراك من أقاليم دولته الشرقية وإزداد عددهم لديه، حتى بلغ سبعين ألفاً، وحرص علي تعليمهم العربية وتنشئتهم كمسلمين، كما أستقدم لهم زوجات من بني جنسهم حتى يحافظوا علي أصالتهم العريقة.

أصبح الأتراك هم القوة الأساسية في جيش المعتصم وقاموا بدور كبير في حروبه ضد الروم الخارجين عليه وبخاصة الخرمية، و قد تحدثنا في فصل سابق عن الأفشين، وأصله من ملوك أشروسنه، وعلي يديه تم القضاء علي بابك الخرمي.

لم يتوقف المعتصم عند هذا الحد، بل أنه لم يلبث أن أسقط العرب من ديوان الجند وكتب بذلك إلي عماله علي الأمصار، فثارت اليمانية بالأردن كما ثارت القيسية بدمشق، وبعد أن قضت الدولة علي ثورتهم إنتهى دور العرب في جيش الدولة ولم يجدوا مفراً من الإندماج مع غيرهم من الشعوب وممارسة أعمال كانوا يأنفون منها قبل ذلك.

علي أن إيثار المعتصم للأتراك ولختصاصه بهم، أدى إلي الاحتكاك بينهم وبين أهل بغداد، بحيث كاد يقع شر بين الفريقين.

فكـــر المعتصم في وسيله يتجنب بها هذه المشاكل، واستقر رأيه علي أن يبتنـــي عاصمة جديدة للدولة غير بغداد، فابتنى مدينة سر من رأى، علي مبعدة ستين ميلاً إلي الشمال، وانتقل إليها مع جنوده الأتراك في سنة ٢٢١ هـــ.

اســـتمرت ســـامرا (أو سر من رأى) عاصمة للخلافة العباسية حتى سنة ٢٨٩ هـــ حين تحول الخليفة المعتصم بالعاصمة مرة أخرى إلي بغداد.

فـــي سنة ٢٢٧هـــ، ولي الواثق بالله، فتمادى في سياسة أبيه مع الأتراك، وجعل من أشناس سلطاناً، وأوكل إليه الجزيرة وبلاد الشام ومصر كما أوكل إليه إيتاخ خراسان والسند وكور دجله.

وفي سنة ٢٣٢ هـــ مات الواثق وولي أخوه المتوكل علي الله.

٢- سيطرة الأتراك علي الخلافة :

أدت سياســـة الخلفـــاء العباســـيين مـــع الأتـــراك من حيث اختصاصهم بالمناصب الكبيرة في الجيش، ومن حيث إقطاعهم بعض اختصاصهم بالمناصب الكبيرة في الجيش، ومن حيث إقطاعهم بعض الولايات الكبيرة، أدت هذه السياسة إلـــي أن قـــوي شـــأن الأتراك، وبدأوا يتدخلون في أمور الدولة، علي نحو أثار الخلـــيفة المتوكل نفسه ففكر في أن يتخلى عنهم، ويعود إلي سياسة الأمويين في الاستعانة بالعرب بل أنه إنتقل إلي دمشق في سنة ٢٤٤هـــ، وشرع نقل دواوين الدولة إليها.

أضـــطر المـــتوكل للعودة علي سامرا عندما علم بشغب الترك عليه، ولم يمض وقت طويل حتى قتل في سنة ٢٤٧.

كـــان المنتصـــر يخشى أن يعزله أبوه من ولاية العهد، فدبر مع الجنود الأتـــراك مؤامرة لقتله، لكن الحال لم تدم بالخليفة الجديد سوى ستة شهور مات بعدها، واختار الأتراك أحمد بن محمد بن المعتصم خليفة باسم المستعين بالله.

كـــان الأتـــراك يشـــعرون بأنهم أصحاب الفضل علي المستعين، فتمادوا بغيهم، وانفردوا دونه بالدولة وتزعمهم في هذا المجال وصيف وبغا.

يقول أحد الشعراء :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا

يقـــول ماقلاً له كما تقـــول الببغا

لم يجد المستعين إزاء تسلط الترك عليه إلا أن يترك سامرا في سنة ٢٥١ هـــــ، ويـــرحل إلي بغداد فبايع الأتراك لابن عمه المعتز (ابن المتوكل) ودارت حرب بين الفريقين، إنتهت في العام التالي بتنازل المستعين عن الخلافة، ثم قتله بعد ذلك.

لم تستقر الأمور في يدي المعتز، ولا أدل علي ذلك من أنه ولي الوزارة خـــلال عهده القصير أربع وزراء، ثم أصطدم المعتز مع القادة الأتراك، وسعى إلـــي أن يســـقط أســـم وصيف وبغا من الديوان، علي أنه عندما عجز عن دفع مرتبات الجند ثاروا عليه، وأرغموه علي عزل نفسه في سنة ٢٥٥هـــ، وحبسوه إلي أن مات في الحبس.

بايع الأتراك محمد بن الواثق ولقبوه بالمهتدي بالله.

كان المهتدي من أفضل خلفاء بني العباس وأكثرهم تقوى وديناً راعه ما شـــاهده من أحوال مترديه في عصر فأراد أن يصلحها فكان يجاس إلي المظالم فـــيحكم بين الناس بالعدل ويداوم علي الصلاة والصوم ويطرح الملاهي، وكان قدوته في ذلك عمر بن عبد العزيز وينسب علي المهتدي أنه قال "أني أستحي أن يكون في بني أميه مثله، ولا يكون في بني العباس".

كان من الطبيعي أن يسعى المهتدي إلي إسترداد سلطات الخليفة فأصطدم بالأتـــراك الذيـــن تجمعوا في سنة ٢٥٦هـــ، بقيادة موسى ابن بغا، وأشتبكوا مع

الخلـيفة الـذي قاد المعركة بنفسه وهزموا جنوده المغربة[1] ، ثم طلبوا منه أن يتـنازل عن الخلافة، فلما رفض قتلوه وبايعوا ابن عمه أحمد بن المتوكل الذي تلقب بالمعتمد علي الله.

٣- عصر نهضة الخلافة :

كانـت شجاعة المهتدي في تصديه للأتراك حافزاً لمن خلفه من أهل بيته علي أن يعاود هذه السياسة من أجل أن يسترد الخليفة هيبته وعم طاعته رعاياه كافة.

وعـندما ولـي المعتمد في سنة ٢٥٦ هـ بدأ عهداً دام نحو أربعين سنة استعادت خلالها الخلافة بعض ما كان لها قوة في صدر حياتها.

استدعى المعتمد أخاه أبا أحمد طلحة من مكة وأمره بالتصدي للزنج الذين كـانوا قد قاموا بثورة هددوا خلالها العراق، وفي سنة ٢٦١ ولاه عهده بعد ابنه جعفـر المفـوض، ولقـبه الموفـق، وعهد إليه بالولاية الشرقية، وهي العراق والحجاز واليمن وفارس وأصبهان والري وخراسان وطبرستان وسجتان والسند في حين عهد لولده مصر والشام والجزيرة والمغرب.

قام الموفق طلحه بدولة أخيه المعتمد، وأضحت إليه السلطة الحقيقية فيها، وفي ذلك يقول صاحب الفخري:

"كانـت دولة المعتمد دوله عجيبة الوضع، كان هو وأخوه الموفق طلحه كالشريكين في الخلافة، للمعتمد الخطبه والسكه والتسمي بأمرة المؤمنين، ولأخيه طلحـه الأمر والنهي وقيادة العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والامراء، وكان المعتمد مشغولاً عن ذلك بلذاته"

---

[1] تعبد كان يطلق فى هذا العصر على عرب مصر الذين استقدمهم الخلفاء ليعملوا فى جيشهم.

اســتطاع الموفق بما لديه من شخصية قوية أن يضع حداً لتسلط الأتراك وتحكمهــم فــي الخلفــاء، بــل إستفاد منهم في توطيد طاعة الدولة وكبح جماع الثائريــن عليها وبذلك تمكن من التصدي ليعقوب بن الليث الصفار الذي كان قد تغلب علي المشرق وحال بينه وبين اقتحام بغداد.

وجــه الموفــق جيوش الدولة للقضاء علي ثورة الزنج، آلتي اشتعلت في ســنة ٢٥٥هـــ، وأقضت مضاجع الدولة نحو خمس عشرة سنة كما وجه هذه الجيوش أيضا لمناهضة الولاة الخارجين علي الطاعة وبخاصة أحمد بن طولون والــي مصر صادف الموفق نجاحات كبيرة في هذه السياسة وعندما توفى سنة ٢٧٨هـــ، لــم يجد المعتمد إلا أن يخلع ولده المفوض من ولاية العهد ويجعل مكانه أبا العباس ابن الموفق ومنحه لقب المعتضد بالله.

فــي ســنة ٢٧٩هـــ، مات المعتمد فخلفه المعتضد الذي سار سيرة أبيه واستطاع قبل وفاته في سنة ٢٨٩هـــ، أن يصل إلي تسويه مع خمارويه بن أحمد بن طولون الذي راضاه وهاداه وزوجه بابنته قطر الندي.

اســتطاع المعتضد أيضا أن يضرب علي أيدي الأجناد وكان إذا غضب علي أحد القادة أمر بإلقائه في حفره وردم عليه كما عني بنشر الأمن ورفع الظلم عــن الرعية وأسقط المكوس غير الشرعية وبذا جدد دولة بني العباس حتى لقب بالسفاح الثاني، وفي ذلك يقول ابن الرومي:

هنيئاً بنــي العبــاس إن أمامكم
إمام الهدي والباس والجود أحمد
كما بأبــي العباس أنشئ ملككم
كذا بأبــي العباس أيضاً يجــدد
إمام بظــل الأمس يعمل نحــوه
بلهف ملهــوف ويشاقــه الغــد

عـندما ولـي المكتفـي بعد أبيه في سنة ٢٨٩هـ، كانت أحوال البلاد مزدهرة وبيت المال عامر بتسعة ملايين دينار من الذهب وأربعين مليون درهم من الفضة، فضلاً عن دولة سادها الاستقرار والنظام.

استـعادة الدولـة مصر والشام من الطولونيين في سنة ٢٩٢هـ، علي أن ظهـور القـرامطة وإشتداد أمرهم واستغرق كثيراً من جهد الدولة، فقد وصلت غـاراتهم إلـى ضـواحي بغداد نفسها، وكان لكل ذلك أثره في أضعاف الدولة وانتهاء النهضة التي بدأت سنة ٢٥٦هـ، بوفاة المكتفي في سنة ٢٩٥هـ.

٤- عودة نفوذ الأتراك :

شـعر الأتراك بالخطر الناشئ عن وجود خلفاء أقوياء فعدلوا عن عبدالله ابن الخليفة المعتز علي جعفر ابن المعتضد فاختاروه خليفة ولقبوه بالمقتدر.

كـان المقتدر صبياً صغيرا في نحو الثالثة عشرة من عمره لا دراية له بأمور الحكم فأسلم قيادة للأتراك وتدخلت أمه في شئون الدولة.

يقول المسعود الذي عاصر المقتدر وعاش بعده :

"أفضت الخلافة عليه وهو صغير، لم يعان الأمور، ولا وقف علي أحوال الملك، فكان الأمراء والورراء والكتاب يديرون الأمور ليس له في ذلك حل ولا عقـد، ولا يوصـف بتدبير ولا سياسة وغلب علي الأمر النساء والخدم وغيرهم فذهـب ما كان في خزائن الخلافة من الأموال بسوء التدبير الواقع في المملكة، فـأداه ذلـك علـي سفك دمه، واضطربت الأمور بعده، وزال كثير من رسوم الخلافة".

حاول عدد من وزراء المقتدر إصلاح الخلل الذي أصاب جهاز الدولة من هـؤلاء الـوزراء علي بن عيسى بن الجراح الذي ينتمي علي أسرة قديمة من الكتاب، فسعى عندما ولي سنة ٣٠١ هـ، علي ضبط الدواوين ونشر الأمن ونبه علـي الولاة بحسن السيرة مع رعاياهم وإنصافهم من جباة الضرائب، وتصدى

لظاهرة الرشوة التي كانت قد استشرت في ذلك الحين، وجلس بنفسه إلي المظالم وعـنى بتحسين حالة الفقراء والمعوزين، ووقف أوقافاً للنفقة منها علي إصلاح الثغور والحرمين وجعل لذلك ديواناً دعاه بديوان البر.

علـي أن بعـض أصحاب المصالح، ممن كانت تمسهم هذه الإصلاحات وفـي مقدمـتهم أم الخليفة نفسه وقفوا حجر عثرة في طريق الوزير وسعوا في عزلـه إلـي أن تم ذلك في سنة ٣٠٤هـ، وولي مكانه حامد بن العباس الذي لم يظهـر كفاية في ممارسة مهام منصبه، واضطر إلي أن يستعين في هذا المجال بالوزير السابق علي بن الجراح وجعله نائباً له.

توالى علي الدولة بعد ذلك عدد من الوزراء الضعاف وعندما حاول علي بـن الفـرات أن يسترد ما كان للوزير من سلطة، انتهى أمره إلي القتل في سنة ٣١٢هـ، ولـم يعد للوزارة دار تختص بها، وإنما صار من تلاه من الوزراء يمارسون أعمالهم من دار الحاجب.

في الوقت نفسه أخذ الأتراك احتياطهم حتى لا يلي الدولة خليفة قوي يقف فـي سـبيلهم فدرجوا علي تنشئة أبناء المقتدر تنشئة تحول بينهم وبين الممارسة السلمية لسلطاتهم.

يذكر الصولي أنه عندما عهد إليه بتربية الراضي وهرون ولدي المقتدر كان يحبب إليهم العلم، ويشتري لهما كتب الفقه واللغة والأدب، فوصلته تعليمات من القصر بأن يكف عن ذلك وقيل له : ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء وهذا أبوهما قد رأينا كل ما نحب فيه وليس بعالم "فبكى الصولي وقال "كيف نفلح مع قوم هذه نياتهم".

اضطربت الأحوال في بلاد العراق، فخرج مؤنس الخادم وهو أحد القواد الأتـراك - علي المقتدر، حين بلغه عزم الخليفة علي عزله من منصبه وتولية آخر بدلاً منه، ومع أن المقتدر عدل عن عزمه هذا إلا أن مؤنساً لم يلبث أن تآمر

مــع غــيره من الجند علي عزله فعزله، ثم أعاده ولم يلبث أن عزله مرة ثانية وذبحه، وولي أخوه القاهرة في سنة ٣٢٠هـــ.

كـــان القاهـــر يخشى علي نفسه مصيراً كمصير أخيه المقتدر، فعمد إلي التظاهر بالقوة، وزاد في ألقابه عبارة "المنتقم من أعداء الله" ونقشها علي السكه، وحاول أن يستميل الجند إليه بالمنح والعطايا لكنهم تألبوا عليه بعد سنتين وعزلوه وسلموا عينيه فصار أول من تسمل عيناه من الخلفاء.

بعد عزل القاهر جعل الأتراك مكانه الراضي ابن المقتدر.

٥- عصر أمرة الأمراء :

كانت الأمور قد تردت إلي حد بعيد حين ولي الراضي في سنة ٣٢٣هـــ، فـــأن القادة الأتراك لم يقتنعوا بسيطرتهم علي الدالة فحسب، وإنما انصرفوا علي المتـــنازعات فـــيما بينهم وكانت هذه المنازعات تترك أثرها السيئ علي الدولة نفسها، كما ظهر عنصر جديد هدد الأتراك في نفوذهم هو عنصر الديلم، بل أن العنصر العربي بدأ يعود علي الساحة مثلاً في الحمدانيين بالموصل.

أحـــس الأتـــراك بهذه التطورات ووقفوا عاجزين إزاءها، وبعد أن كانوا يفضلون الإقامة في بغداد كي يكونوا قريبين من الأحداث صاروا يؤثرون التوجه إلي الولايات البعيدة عن العاصمة حتى ينئو بأنفسهم عن المتاعب.

فـــي سنة ٣٢٤هـــ، سعى الراضي علي حل المشكلة بأن استدعى محمد ابن رائق أمير واسط والبصرة وفوضه سلطانه، ودعاه بأمير الأمراء وتقرر أن يخطب له علي المنابر وينقش أسمه علي السكه وأطلقت يداه في توليته الوزراء وعزلهم.

يقـــول مسكويه "وبطل منذ يومئذ أمر الوزارة، فلم يكن الوزير ينظر في شئ من أمر النواحي والدواوين والأعمال، ولا كان له غير أسم الوزارة فقط".

استقرت الأحوال فترة، علي أنه في سنة ٣٢٦هـ، خرج أبو عبدالله البريدي صاحب الأهواز علي ابن رائق، كما خرج عليه أحد قواده الأتراك ويدعى بجكم، والحق به الهزيمة وطرده من بغداد وجلس مكانه كأمير للأمراء.

اعتزم ابن رائق استرداد سلطته فأقتحم بغداد في سنة ٣٢٧هـ، واستولى علي بيت المال، ولم ينجح الخليفة في استرضائه إلا بعد أن ولاه الشام.

في سنة ٣٢٩هـ، مات الراضي وخلفه أخوه إبراهيم الذي تلقب بالمتقي بالله بجكم أميراً للأمراء، فلما قتل بجكم هذا علي يدي بعض الأكراد عاد ابن رائق إلي بغداد وإسترد منصبه لكن أبا عبدالله البريدي الذي نافسه فيه سير أخاه أبا الحسن في جيشه من الأتراك والديلم، فلحقت الهزيمة بابن رائق وهرب من بغداد، وفي أثره المقتفي.

لجأ الخليفة إلي الموصل حيث طلب عون حاكمها الحسن بن حمدان، فأجابه علي مطلبه، واصطحبه إلي بغداد في سنة ٣٣٠هـ، وتلى منصب أمرة الأمراء، بعد أن قتل ابن رائق وخلع عليه المتقي ولقبه ناصر الدولة كما خلع علي أخيه ولقبه سيف الدولة.

تعسف ناصر الدولة مع الخليفة، وضيق عليه في نفقاته وانتزع منه ضياعه، وفي الوقت نفسه اختل حال الأمن في بغداد، وانتشر اللصوص وغلت الأسعار، حتى صار الناس يموتون جوعاً.

انتهز المتقي فرصة رحيل ناصر الدولة علي الموصل، فاستمال توزون الدايملي وجعله أميراً للأمراء في سنة ٣٣١هـ.

علي أن الخليفة ما لبث أن اختلف مع توزون ففارق بغداد مرة ثانية علي الموصل وأخفق ناصر الدولة في مساعدته فأرسل المتقي علي واليه علي مصر محمد بن طفج الأخشيد يطلب عونه، فاقترح عليه أن يفد إلي مصر حيث الأمان

لكن المتقي رفض وقرر العودة إلي بغداد، فوقع في يدي توزون الذي سمل عينه وحبسه.

أعلن توزون عبدالله ابن المكتفي خليفة ولقبه بالمستكفي وأستبد بدونه بالسلطة، ومات بعد شهور فخلفه في منصب أمير الأمراء كاتبه أبو جعفر بن شيرزاد.

لم يكن ابن شيرزاد بأحسن حال ممن سبقه، فقد لجأ إلي المصادرة، لينفق علي أرزاق الجند من الأتراك والديلم وتعسف في جمع الضرائب، حتى أضطر التجار إلي الهرب من بغداد وانتشر الاضطراب في المدينة.

الثورات الاجتماعية ضد الدولة العباسية

تمهيد:

١-ثورة الزنج

٢- القرامطة

الثورات الاجتماعية ضد الدولة العباسية

تمهيد :

رافـق ضـعف الدولة العباسية ظاهرتان هامتان، أولاهما: الاستقلال أي استقلال معظم أقاليم الدولة عنها، مع الاعتراف بسيادتها أحياناً وعدم الاعتراف بهـذه السيادة أحياناً أخرى الظاهرة الثانية هي قيام ثورات اجتماعية نزعت إلي تغيير الأسس التي نهضت عليها الدولة الإسلامية، بل المجتمع الإسلامي ذاته.

أهـم هذه الثورات هما ثورة الزنج وثورة القرامطة، ومع ما كان لهاتين الثورتين من طابع إجتماعي، إلا أنه كان لهما أيضاً طابع سياسي – ديني.

والحقـيقة أن رفـع هاتين الثورتين شعارات دينية كان له ما يبرره، لأن الإسلام بطبيعته دين ودنيا، ويتعذر الفصل بين هذين الجانبين.

من هنا تعرض هؤلاء الثوار لهجوم من أعدائهم امتد من ساحة المعارك إلي ساحة الأفكار ومن العصر الذي عاشوا فيه إلي عصرنا هذا.

والخـلاف القـائم الآن بين الباحثين في هل أتى هؤلاء الثوار بما يمس جوهر الدين، وبالتالي لا يعدون مسلمين، أنه أن ما يبدو علي السطح خلاف، هو في الحقيقة اجتهاد في التفاصيل أخطأ أصحابه أو أصابوا.

نـرجح مـن جانبنا أن هاتين الثورتين كانتا محصلة لظروف اجتماعية معيـنة، ولـم يكـن لدى روادهما أفكار تتناقض مع الإسلام، وربما دخلت هذه الأفكار في نسيج الدعوة بعد ذلك.

ولديـنا نموذج واضح في الشيعة والخوارج، فهؤلاء مسلمون، ومازالوا مسلمين ومع ذلك، فإن بعض من بدأ شيعياً أو خارجياً لم يلبث أن أداه تطرفه إلي الوقوع تحت تأثير أفكار غريبة وغير إسلامية، وبعد زمن طال أو قصر لم يعد مسلماً.

علـــي أن هـــناك سبباً هاماً في سوء ظن بعض المؤرخين بهذه الثورات الاجتماعية، هذا السبب يتحدد في أن التراث الفكري الذي أبدعه الثوار اندثر كله أو جلـــه، وإذا كان التراث الفكري لقوم كالمعتزلة والشيعة والخوارج قد وصلنا فـــي معظمه، بالمرجع في ذلك أن هؤلاء مازال لهم وجود في حياتنا حتى يومنا هـــذا، أما الزنج والقرامطة فلم يعد لهم وجود منذ أماد متباعدة، وتكفل أعداؤهم من السنة والشيعة بتدمير تراثهم.

تأسيساً علي ذلك فأن مصادرنا في الكتابة عن هؤلاء الثوار هي المصادر نفسها التي بتسب لأعدائهم، وعلينا أن نتملاها بحذر شديد.

١- ثورة الزنـج :

فـــي سنة ٢٥٥ اشتعلت ثورة تعرف في التاريخ بثورة الزنج، وقد دامت هذه الثورة خمس عشرة سنة إلي أن انتهت في سنة ٢٧٠هـــ.

والـــزنج تعبـــير يقصد به – علي وجه العموم – قوم ذو بشرة داكنة، أو أقـــرب إلـــي أن تكون داكنة، ويقصد به – علي وجه الخصوص – العبيد الذين كانوا يجلبون في معظمهم من سواحل أفريقية الشرقية.

أ- الإسلام والرق :

فـــي عصـــور موغلة في القدم عرف الإنسان الرق الذي أضحى ظاهرة عامـــة في التاريخ، حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وربما حتى سنوات قليلة فحسب.

اخـــتلف موقـــف الإســـلام مـــن الـــرق عن غيره من الديانات والنظم الاجتماعية، فقد نظر إلي الرق علي أنه حال مؤقتة، لأن الأصل في الإنسان هو الحرية وعلي ذلك فالرقيق حقوق كما أن عليه واجبات.

من حماة هذه الحقوق التي جرى تطبيقها بدقة أنه لم يكن مصرحاً للمالك بالتصـــرف مـــع عبده كما يهوى، وإذا حدث وأفقده حياته، أو أصابه بأذى، فإن

الملـــك يتعرض لعقوبة، تختلف بين فقيه وبين فقيه آخر ومنها أيضاً عدم جواز الفصل بين أفراد الأسرة الواحدة من الرقيق عند البيع.

وإذا كـــان الإســـلام قـــد أباح الأمة الكتابية بملك اليمين، فقد أباح الأمة المسلمة بالنكاح وملك اليمين، وأباح بعض الفقهاء الأمة الكتابية بالنكاح.

كانـــت الأمـــة حين تنجب من سيدها، تتغير وضعها فتصبر أم ولد، ولا يجوز له بيعها فإذا فعل نقض بيعه، وإذا مات عنها صارت حره.

وعلـــي ذلك نجد معظم أمراء البيت العباسي وخلفائه أبناء أمهات أولاد، مثل المأمون وأمه مراجل الفارسية، والمعتصم وأمه مارده التركية.

وغنى عن البيان أن الإسلام شجع علي عتق العبيد، وجعله أحد مصارف الـــزكاة، وكـــان في إمكان العبد أن يشترى حريته بمبلغ من المال يؤديه لسيده مـــنجماً، وهـــي طريقة المكاتبة، أو يوصى السيد بعتقه حال وفاته، وهي طريقة التدبير.

وكانت تصدر بشأن العتق وثيقة يوقع عليها شهود.

وكـــان يحـــدث أحـــياناً أن يدعى بعض الناس الحرية، ويدعى آخرون امـــتلاكهم لهم، فكان الفقهاء والقضاة يميلون علي جانب الأولين، ويطلبون ممن يدعـــى امـــتلاكهم أن يأتي ببينة، تطبيقاً لمبدأ البينة علي ادعى واليمين علي من أنكر.

عـــندما يتحرر العبد يصير مولي لمن أعتقه، أي عضواً في أسرته يورث مـــولاه، ويـــرثه مولاه وينسب إليه إذا لم يعلم أبوه، وقد تبنى الرسول "صلي الله عليه وسلم" زيداً مولاه علي أن نزلت الآية الكريمة، التي بناء عليها رد زيد إلي نسبه في قبيلة كلب.

هـــيأ الإسلام أيضاً للعبد الذمي لسيد ذمي فرصة الحرية إذا أسلم، بل أن العتقاء الذين ظلوا علي ديانتهم الأصلية، لم تكن تؤخذ منهم جزيه.

كان العبيد بعد تحريرهم يشاركون في الحياة العامة، ولدينا نموذج الأجناد الترك في العصر العباسي الثاني، وقد استطاعوا أن يسيطروا علي الخليفة نفسه، بحيث لم يعد له من الأمر شئ. ولدينا أيضاً في تاريخنا المصري المماليك، الذين حكموهـا فترة طويلة امتدت حتى دخول العثمانيين وشاركوا في حكمها بعد ذلك إلـي أن أزالهم محمد علي الكبير. كما أن المعتقين لعبوا دوراً أساسياً في الثقافة الإسلامية نستطيع أن نلمسه من تراجمهم في كتب الطبقات.

يتضح من ذلك وغيره أن الرقيق عند المسلمين كان بوجه عام أفضل من الرقيق عند غير المسلمين، ولم تنفصل الأفكار الإسلامية بشأنه عن الواقع الذي عاشه الرقيق تقريباً.

هـذه المقدمة مهمة لأنه فيما عدا ثورة الزنج التي هي موضوع بحثنا، لا نشـاهد ثورة أخرى قام بها العبيد علي مدار التاريخ الإسلامي كله، في حين أن ثوراتهـم خـارج حدود هذا التاريخ عديدة، ويكفي أن نتذكر ثورة سبارتاكوس "SPORTACUS" الشـهيرة فـي الـتاريخ القديم والتي تهددت الإمبراطورية الرومانية ذاتها.

ما دامت هذه مبادئ الإسلام بشأن الرقيق، وما دامت هذه حياتهم في ظل الإسلام.

إذن لماذا قامت ثورة الزنـج؟

ب- أسباب الثورة ومقدماتها :

قامـت ثـورة الـزنج لأسباب خاصة بالزنج أنفسهم في مرحلة تاريخية معيـنة، وعندما انتفت هذه الأسباب بعد ذلك، لم يعد ثمة ضرورة لثورة أخرى يقومون بها.

أسـفر الرخاء الذي ساد الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول عن ظهـور طبقة من الأثرياء، تجمعت لديهم رؤوس أموال كبيرة نتيجة لعلمهم في

لبحر، حيث كـ ـ سفنهم ترتاد سواحل الهند والصين كما كانت ترتاد سواحل ور ـ عسهم

ويـنوه ابـن الفقـيه الذ ـار البصرة في أواخر القرن الثالث بالطبيعة الـتجارية لأهلهـا فيقول "ابعد الناس نجعة في الكسب بصرى وحسيري (يمنى) ومـن نحل فرغانة القصوى (أقصى بلاد الترك) والسوس الأقصى (أقصى بلاد المعرب) فلابد أن يرى فيها بصريا أو حسيرياً".

أنصـرف هؤلاء السادة علي أنفاق أموالهم في مجالات الترف التي زخر بهـ عصرهم، كما تصرفوا أيضا في المؤامرات التي تردد صداها في حاضرة الدولة وبخاصه بعد تغلب الأتراك عليها.

علـي أنه كان هناك مجال اخر لأنفاق هذه الأموال تكالب عليه الأثرياء وهـو شراء العبيد ولما كانت أسعار العبيد البيض (أو البيضان) مرتفعة، بسبب استخدامهم في الجيش كجنود (لدينا نمودج الأتراك) فقد أنصرف بعض الأثرياء من أهل جنوب العراق علي شراء العبيد السود (أو السودان)، وقد تكلفت ب لك مراكبهم التي كانت تتنقل بين موانى العراق وبين سواحل أفريقية.

كانت مهمة العبيد في الحضارة الإسلامية، تختلف عن مهمتهم في غيرها مـن الحضارات. لأن المسلمين جعلوا هده المهمة علي نحو أساسي هي الخدمة فـي دار السـيد أو فـي المنطقة القريبة من هذه الدار، ولم تكن مهمتهم العمل الإنتاجـي فـي زراعة أو صناعة، إذ كان يقوم بهدا العمل في الضياع الكبيرة فلاحون أحرار مسلمون أو غير مسلمين. عندما تجمعت من العبيد أعداد كبيرة، ووجـد أصحابهم أن مجالات الخدمة المنزلية أصبحت محدودة أمامهم، انصرفوا إلـي توجـيههم للعمل في الزراعة، وربما نقل هؤلاء السادة هدا الأسلوب عن جيرانهم في أوربا، حيث كان الزراعي علي نحو أساسي منوطاً بالعبيد والأقنان وهم أنصاف العبيد

كـــان ذلك أمراً غريباً ،لأنه يخالف ما جرت عليه العادة من ناحية ولأنه وهو الأهم أدى إلي سخط العبيد أنفسهم.

كيف كان ذلك؟

نتج عن عمل العبيد في الزراعة تراكم رأسمالي عند السادة حفزهم علي إعـــادة استثماره بشراء المزيد من العبيد، ودفعهم إلي العمل ذاته فيزداد التراكم بالتالي، ويتيح الفرصة لاستثمار جديد وهكذا.

لم يكتف السادة بذلك بل أنهم وجهوا عبيدهم إلي استصلاح أراضي جديدة تهيـــئ الفرصة لمزيد من الزراعة، خصوصاً ولأن فائض رأس المال كان يشجع علي ذلك، ولأن عملية الاستصلاح نفسها كانت تجرى شمال بحر العجم (الخليج العربـــي) حيـــث توجد مستنقعات يسهل استخراج الملح منها، وكان الملح سلعة عزيزة في ذلك العصر يشتد الطلب عليها.

ولا يخفـــي أن استصـــلاح أرض كان يعقبه مباشرة أن تصير ملكاً لمن استصلحها، وهو ما يقول به الفقه في مجال أحياء الأرض الموات.

تجمعـــت مـــن العبـــيد أعداد كبيرة في الأراضي المزروعة والأراضي المستصلحة، وكان أفراد الجماعة الواحدة منهم يتراوح بين خمسمائة وبين خمسة آلاف وشعر أصحابهم بأهميتهم كقوى إنتاج تدر عائداً ربحياً كبيراً، فسعوا علي تخفـــيض نفقات إعاشتهم، فلم يعطوهم أجراً محدداً، واكتفوا لهم بقليل من الدقيق والـــتمر والســـويق، وضـــيقوا عليهم من ناحية السكنى، وامتد هذا التضييق إلي المعاملـــة نفسها فأي تهاون من أحدهم في العمل يجعله عرضه للتعذيب ويصير عبرة لإخوانه.

ســـرت بين العبيد روح من التذمر أعان عليها أنهم، وان كان بعضهم قد وفـــد حديـــثاً من أفريقية، ولم يكن يجيد العربية، إلا أن البيئة حولهم كانت بيئة

إســلامية، ولما كان الإسلام دين بسيطاً، ليست فيه طقوس، ومن اليسير التعرف علي تعاليمه، فإنه أصبح دين هؤلاء العبيد كقاعدة.

عرف العبيد – رغماً عن ثقافتهم المحدودة – أن الإسلام يقول في شأنهم قولاً يختلف عما يشاهدونه من واقع.

أعــان علــي ذلك أيضاً طبيعة المنطقة التي عاش فيها هؤلاء العبيد، فقد تمرســت هــذه المنطقة بفكر الخوارج الثوري، كما تمرست أيضاً بفكر الشيعة ورغماً عن قمع هؤلاء وأولئك مرات، ومرات إلا أن أفكارهم لم تنقرض تماماً، أنما باقية ليتلقفها بعدهم ثوار غيرهم.

النموذج إذن كان حاضراً.

في أواسط القرن الثالث أضيف عنصر جديد، هذا العنصر هو التضخم أو الغــلاء بمصــطلح العصر، لأن تدفق الثروات وكثرة الأموال أديا علي ارتفاع الأسعار وبخاصة أسعار الحنطة والشعير وهما سلعتان رئيسيتان لا غنى عنهما، وقــد أدى ذلــك علــي سخط الطبقات الدنيا التي لا تتوافر لديها القوة الشرائية اللازمة لمواجهة هذا الغلاء.

ويشــير الطبري – المؤرخ المعاصر – إلي ما قام به أهل بغداد علاجاً للموقــف – بــأن منعوا سلعهم من تباع في سامرا،فجاراهم أهل هذه المدينة بأن منعوا سلعيتهم من أن تباع في بغداد.

لم تستطيع الدولة أن تفعل شيئاً حيال هذه التطورات ويكفيها ما لديها من مشــاكل ضــربت أطــنابها في سامرا وبغداد عزل خلالها خلفاء وسلمت أعين بعضهم، وحبس البعض الآخر فظل في حبسه إلي أن مات.

ج- علي بن محمد والثورة :

علــي بــن محمد الفارسي الأصل من أهل الطالقان وفد علي العراق في سنة ٢٤٧هــ، وأتصل ببعض خاصة الخليفة المنتصر بسامرا، ثم غادروها إلي

غيرها من مدن العراق، وطاف بالمناطق الواقعة على رأس بحر العجم والتي كانت تكتظ بالعبيد فلما عاين أحوالهم، ولمس بنفسه تذمرهم أستقر رأيه على الثورة بهم.

ولما كانت السمة العامة للثورات سمة دينية، فإن علي بن محمد أدعى نسبا علوياً، أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى ابن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

الجدير بالذكر أن الثائر رغما عن اتخاذه هذا النسب العلوي لم يدع إلي مذهب شيعي بعينه بل ينسب إليه أنه كان يسب عثمان وعلياً ومعاوية وطلحة والزبير والسيدة عائشة.

دعا علي بن محمد إلي مبادئ أقرب إلي مبادئ الخوارج ونذهب من ناحيتنا إلى أن علياً هذا في دعوته كان متسقاً مع نفسه ومع أحداث ثورته وطبيعتها، لأن الخوارج كانوا أكثر ثوريه من الشيعة، فهم سياسياً لم يقصروا الإمامة في قبيلة معينة ولا حتى شعباً معيناً بل هم أجازوها لمن كان في أصله عبداً ثم تحرر، وذهب بعضهم إلي إنكار الإمامة نفسها من ناحية أخرى فقد عرف عن الخوارج بساطتهم في فهمهم للدين، ولم تجتذبهم الثقافات القديمة والأفكار المسبقة التي نشاهدها عند الشيعة.

عقيدة مثل تلك كانت تجتذب ولا شك أقواماً حديثي عهد بالإسلام بل حديثي عهد بالعربية الأمر الذي رفع زعيمهم إلي أن يستعين بالتراجمة أحياناً للتفاهم معهم.

عرف علي بن محمد أيضاً بصاحب الزنج.

في سنة ٢٥٥هـ، قوي أمر صاحب الزنج وانتشرت دعوته لتحرير العبيد في العراق والبحرين وهجر فأقبل علي البصرة، واجتمع إليه كثيرمن

العبيد الأبقيين، فأتاه أصحابهم يطلبونهم في مقابل أن يبذلوا له عن كل عبد خمسة دنانير، فرفض الثائر طلبهم وأمر فضربهم عبيدهم السابقون بالسياط.

أتخذ صاحب الزنج لواء نقش عليه هذه الآية الكريمة "إن الله أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهد من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم".

أول صـــاحب الزنج هذه الآية تأويلاً سياسياً، فأدعى أن المؤمنين ماداموا قد صاروا كذلك فليس لهم بعد أن يسترقوا..

يــوم الفطـــر من هذا العام خطب علي بن محمد في الزنج، وصلي بهم، وذكـــرهم بحـــالهم التي كانوا عليها، وحفزهم علي الحفظ علي حريتهم والتمسك بهـــا، ومناهم بالغنائم التي سوف يحصلون عليها باستمرار ثورتهم، وابتنى لهم مدينة دعاها المختارة.

خرج صاحب الزنج من المختارة، واجتمعت له جيوش الزنج فأنتشر بها فـــي جـــنوب العـــراق وخوزستان والبحرين ونهب القادسية وعندما حاربه أهل البصـــرة هـــزمهم، واســـتولى علـــي سفن عديدة لهم، وربما كانت هذه السفن مخصوصه لشحن العبيد من سواحل أفريقية علي العراق.

تناهت أخبار الثورة إلي حاضرة الدولة في سامرا فأرسل الخليفة المعتمد جيشاً بقيادة جعلان وهو أحد الأتراك، ودار قتال قرب البصرة أسفر عن هزيمة جعلان وقتله، واستولى الزنج علي مدينة الأبلة وهي ميناء وهام تقع علي الساحل كمـــا استولوا علي الأهواز، واقتحموا البصرة نفسها في سنة ٢٥٧هـــ، وأشعلوا الـــنار فيها ونبحوا كثيراً من أهلها فأضطر سائرهم إلي الهجرة بها علي غيرها من المدن.

قوي أمر صاحب الزنج ودخلت جموعه واسط وأمهرمر، فعاود المعتمد حـــربة، في سنة ٢٥٩هـــ، وأرسل إليه قائده الكبير موسى بن بغاه وشيعه بنفسه حتى أبواب سامرا وخلع عليه.

انتصر موسى علي الزنج، وأغراه انتصاره بمتابعة الحرب ضدهم فانقلب علي سلسة من الهزائم، وأصبح الزنج علي بعد سبعة عشر ميلاً من بغداد.

أنضـــم إلـــي الـــزنج فـــي هذه المرحلة عدد كبير من الفلاحين الأحرار وغيرهم من الفئات المحرومة، تذكر المصادر منهم اثنين أحدهما طحان والآخر بائع عصير، كما أنضم إليه أيضاً عدد كبير من البدو.

كـــان الموقـــف خطـــيراً يـــتهدد وجـــود الدولة نفسه، كما يتهدد البنيان الاجتماعـــي الذي تعبر عنه هذه الدولة وزاد من خطورته العدد الهائل من القتلى الذيـــن أصـــابهم الـــزنج، وفي ذلك يقول المسعودي – وهو مؤرخ قريب العهد بـــالأحداث يصف صاحب الزنج "أفنى من الناس مالا يدركه العد، ولا يقع عليه الحصـــاء، ولا يعلـــم ذلـــك إلا عـــالم الغيب ... والمقل يقول : أفنى من الناس خمسمائة ألف، وكلا الفريقين يقول ذلك ظناً وحدساً، إذ كان شيئاً ولا يضبط".

لم يجد المعتمد إلا أن يبعث إلي لأخيه أبي أحمد طلحة، وكان المهتدي قد نفاه إلي مكة فخلع عليه وولاه عهده ودعاه بالموفق.

تهيأ الموفق للمواجهة واتصل بوالي مصر أحمد بن طولون يطلب عونه، فاستجاب له وأرسل مليوناً ومائتي ألف دينار.

توجـــه الموفـــق لحرب الزنج وأحرز عدة انتصارات عليه، لكنها كانت انتصـــارات محدودة، لم تؤثر علي حركتهم علي نحو أساسي، وفي الوقت نفسه ســـعى صـــاحب الزنج للإتصال ببعض الخارجين علي الدولة ومنهم يعقوب بن الليث الصفار، كي يتعاونوا سوياً ضد الموفق، لكنه لم يجد منه أذناً صاغية.

أعـــاد الموفـــق تعبئة قواته وخرج علي واسط في صفر سنة ٢٦٧هـــ، ونجـــح فـــي هزيمه الزنج، وأجلاهم عن الأهواز، ثم حاصر مدينتهم المختارة، وبني إزائها مدينة دعاها الموفقة نسبة إليه.

اشـــتد الموفق في حصار المختارة، وقطع ولده عباس المسيرة عنها، ثم سـقط فـــي يديه نصفها المغربي فأستسلم له عدد كبير من الزنج عاملهم معاملة طيبة، فأغراهم بذلك علي الانضمام إلي جانبه، وظل حصاره لسائر الثوار حتى سقطت المدينة كلها في يديه سنة ٢٧٠هـــ/٨٨٣م.

أسـفر اقـتحام المخـتارة عـــن مقتل عدة آلاف من الزنج وإحتز رأس صاحبهم، وجعل علي رمح طيف به في البلاد، وعم الفرح بغداد ونظم عدد من الشعراء قصائد في هذه المناسبة، وعاد الناس إلي بلادهم التي كانوا قد هجروها، وعاد العبيد إلي العبودية.

٢- القرامطة :

مـــا كادت ثورة الزنج تنته، حتى اشتعلت ثورة جديدة، في منطقة قريبة، دعيت هذه الثوار بثورة القرامطة.

قرامط نسبة إلي قرمطه وهو حمدان بن الأشعث، دعي بذلك لقصر قامته ورجليه، ويقال أيضاً أن قرمط تعني عند أهل العراق فلاحاً وكان حمدان يمتهن الفلاحة. ..

أ- الإسماعيلية وتطورها :

ينقســـم الشيعة إلي فريقين كبيرين هما الزيدية والإمامية، أما ما عدا ذلك من فرق فهي قليلة الشأن ومعظمها أندثر.

يدعـــو الزيدية – وهم أكثر اعتدالاً – إلي زيد بن علي زين العابدين، بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وترى أن علياً يستمد حقه في الإمامة، من كونه أفضـــل الناس بعد النبي "صلي الله عليه وسلم"، وليس لأنه وهيه، ولم تكفر أحداً

من الصحابة، وترى بجواز إمامة المفضول، مع وجود الأفضل، وعلي ذلك أقرت بإمامة أبي بكر وعمر.

اما الإمامية – وهم أكثر عداداً – فذهبوا إلي أن الامامية لا يكفي فيها الوصف، وإنما هي معينة الشخص، فعلي عين بوصية من النبي " صلي الله عليه وسلم".

علي أن الإمامية يختلفون بعد أن يصلوا علي جعفر الصادق، فذهب فريق علي إمامة ابنه موسى الكاظم وهؤلاء دعوا بالإثنى عشرية، ويذهب فريق آخر إلي إمامة ابنه الآخر إسماعيل، وهؤلاء دعوا بالسبعية أو الإسماعيلية.

يرى الإثنى عشرية أن الإمام الثاني عشر، وهو محمد المنتظر دخل – وهو صغير سرداباً في دار أبيه الحسن العسكري بمدينة سامرا ولم يعد، ويرون أيضاً أنه ما دام الأئمة هم الأوصياء علي الأمة فإن الامام يصير معصوماً من الخطأ، وعلي يديه تجري الخوارق.

أما الإسماعيلية فيشتركون مع الإثنى عشرية في معظم ما يقولون، فكلهم يضيفون إلي فكرة أخرى، هي الإمام المكتوم أو المستور، وأنه المهدي الذي لن تقوم القيامة، حتى يملأ الأرض عدلاً، كما ملئت جوراً، ويضيفون علي فكرة العصمة فكرة أخرى وهي أن العصمة لا تعنى فقط أن الإمام لا يرتكب خطيئته بل أن ما نظنه خطيئة للإمام، إنما هي علم في الحقيقة.

ونتيجة لمقام بعض دعاة هذا المذهب في شرق الدولة الإسلامية تأثروا بالعقائد السائدة هناك، وقد أغرتهم بالسرية لذلك أكانوا يدعون بالباطنية أحياناً. وأصل هذه التسمية الزعم بأن للشريعة ظاهراً وباطناً للناس علم الظاهر، وللإمام علم الباطن كما أن ما شاب بعض طوائف الإسماعيلية من غموض، وارتباطها بالمغيبات فقد دعيت هذه الطوائف بالحشاشين.

تتسلسل الإمامة عند الإسماعيلية فتنتقل من إسماعيل بن جعفر الصادق على ولده محمد المكتوم بن إسماعيل بن محمد المكتوم، ثم محمد الحبيب بن جعفر المصدق، ثم جعفر المصدق، ثم عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب، وهو أصل الدولة الفاطمية.

اتخذ الإسماعيلية مدينة سلمية، من أعمال حماة بالشام مركزاً لنشر دعوتهم، ومنها يتوجه الدعاة إلي سائر الأنحاء. وتولى أمر الدعوة في أوائل القرن الثالث ميمون القداح الذي مات فخلفه ولده عبدالله الذي استطاع أن يستميل علي الدعوة رجلاً من أهل السواد (العراق العربي تقريباً) هو حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط، فنشر الدعوة علي المذهب الإسماعيلي، وساعده في ذلك صهره عبدان عندما مات حمدان قرمط وعبدان، في سنة ٢٨٠هـ، آل أمر الدعوة بالعراق إلي زكرويه بن مهروية في الشمال وإلي ابن سعيد الحسين بن بهرام الجنابي في الجنوب.

عند هذا الحد افترقت الدعوة عن سائر الإسماعيلية، وأصبح لها خط مستقل عنها، لذلك سوف نجتنب وصفها بالإسماعيلية وندعو أصحابها بالقرامطة فحسب.

ب- أسباب الثورة ومقدماتها :

لخص النويري في كتابه نهاية الأرب الأسباب العامة للثورة الجديدة في عبارة مقتضبة فيقول "تشاحن السلطان وخراب العراق وفساد البلدان فتمكن الدعاة ومن تبعهم لهذا السبب، وبسطوا أيديهم في البلاد وعلت كلمتهم".

يعني النويري بذلك أن المشكلات الاجتماعية، قد تفاقمت هذه المرة واتسع مداها لتجاوز العبيد – الذين كانوا الكتلة الأساسية في ثورة الزنج – إلي غيرهم من الأحرار من أكراد وجفاة الأعاجم وجفاة العرب – حسب تعبير الطبري – ويقصد بجفاة هنا الطبقات الدنيا من الشعب.

ساءت حال هذه الطبقات، بسبب نظام الإقطاع العسكري الذي اختص به الأتـــراك، وما صاحبه من مكوس وضرائب غير شرعية وفساد في عملة اختل وزنها.

يشـــير مســـكويه إلـــي أن بيـــت المال عجز عن أعطيات الجند فمنحوا إقطاعـــات يرتزقون منها ولما لم تكن لهؤلاء الجند، دراية وافرة بشئون المال، فأنهم أوكلوها إلي جباة متخصصين تعسفوا مع الناس.

امتد إقطاع فشمل علي جانب الأجناد طبقة أخرى من كبار رجال الدولة، اشتروا بعض ما كان لأبناء البيت العباسي من أرض دعيت بالصوافي.

اتســـع مجال الإقطاع باتساع مجال الإلجاء، وهو أن يلجئ صغار الملاك أراضـــيهم إلـــي كبارهم، ومعني يلجئ هنا أن تسجل هذه الأراضي في الديوان بأسماء كبار الملاك فيتمتع صغارهم بحمايتهم نظير مال يؤديه إليهم، وشيئاً فشيئاً وضـــع كبار الملاك أياديهم علي هذه الأراضي، وتحول أصحابها الأصليون إلي مجرد فلاحين.

أدى ذلـــك – كمـــا يقـــول مسكويه – غلي أن "فسدت المشارب وبطلت المصـــالح، ... فأتت الحوائج علي التناء (الزراع) ورقت أحوالهم ... وصاروا بين هارب حال، وبين مظلوم صابر لا ينصف وبين مستريح علي تسليم ضيعته إلي المقطع ليأمن شره".

كـــان مـــن يترك الريف، ويهبط إلي المدينة يتعرض لاستغلال أصحاب الأعمال وشرهم، مما اضطر معه الصناع إلي أن يترابطوا معاً في مجموعة من طوائـــف الحـــرف، لكل واحدة منها رئيس يعرف بالأستاذ، ولما كانت الحرف تـــتجمع عـــادة فـــي مكان معين من المدينة فقد جرى نوع من الترابط بين هذه الطوائف بعضها وبعض أي صاروا إلي حرماً جبهة بازاء الأجناد.

كان ذلك ينتظر من يفجر ثورة.

وكان ذلك من شأن القرامطة.

ج- الدعوة القرمطية :

يفترق القرامطة عن غيرهم من الإسماعيلية باهتمامهم بالجانب الاجتماعي اهتماماً فائقا، ولم يكن الجانب العقائدي يشغلهم كثيراً، مما أدى فيما بعد غلي مخاصمتهم للإسماعيلية، بل والحرب ضدهم من ناحية والالتقاء بالعباسيين من ناحية أخرى.

تسربت إلي القرامطة أفكار يمكن أن ندعوها اشتراكية، وحين دانت لهم بعض المدن القريبة من الكوفة، جعل الناس يضعون أموالهم في موضوع واحد، ويعيشون كأسرة واحدة واستعانوا علي ذلك بتأويل بعض آيات القرآن الكريم وأصبح بكل قرية رجل من ثقافتها تجمع عنده أموال القرية من بقر وغنم وحلي ومتاع، فكان يكسو عاريهم وينفق عليهم ما يكفيهم، ولا يبقي فقيراً بينهم ولا محتاجاً، ولا ضعيفاً وشجع الصناع علي الاهتمام بصناعتهم وكانت المرأة تجمع إليه كسبها من مغزلها والصبي أجر نظارته للطير، فلا يملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه.

تستطرد الرواية التي يذكرها النويري فتقول "فلما استقام له ذلك كله وصبوا إليه وعلموا به، أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ذات ليلة معروفة ويختلطن بالرجال. وقال أن ذلك من صحة الود والألفة بينهم".

لا نستطيع أن نتقبل هذه العبارة الأخيرة كما هي، فليس لدينا ما يدل علي أنهم مارسوا أشياء مثل تلك، ولدينا من الأخبار ما يدل علي أنهم حرصوا علي الصلاة والحج، بل أن القرامطة كتبوا علي ألويتهم آيات من القرآن.

الشيء الوحيد الثابت علي القرامطة أنهم في بعض حروبهم اقتحموا الكعبة واستولوا علي الحجر الأسود، ونقلوه إلي قاعدتهم في البحرين، وبطبيعة الحال لا يرضى مسلم صادق في إسلامه عن فعل مثل ذلك، علي أن الأمويين

سبقوا القرامطة فضربوا الكعبة بالمنجنيق، ثم أن القرامطة رفضوا أغراء العباسيين بأن يعيدوا الحجر الأسود علي مكانه لقاء مبلغ كبير من المال، وأعادوه بعد ذلك دون مقابل.

المرجع لدينا أن الخصومات السياسية، كانت وراء التهم العقائدية التي أصابت القرامطة.

والثابت لدينا أن دعاوى القرامطة الاجتماعية وراء هذه الخصومات السياسية ولدينا مثال علي ذلك مما يرويه ابن الأثير من أن علي بن عيسى بن الجراح وزير المقتدر – وكان واسع الثراء – سأل أحد القرامطة عندما وقع في يديه لماذا صار قرمطياً أجابه "لما صح عندي أنه علي حق وأنت وصحابك – أي الخليفة – كفار تأخذون ما ليس لكم".

ابتدأت دعوة القرامطة في جنوب العراق واستفاد أصحابها من التناقضات الاجتماعية الصارخة هناك، وإذا كان صاحب الزنج قد اعتمد علي العبيد بالدرجة الأولي، وجعل مجال حركته داخل الأرياف فأن القرامطة اعتمدوا علي العبيد وغيرهم من الأحرار، أفادوا من نظام الطوائف الحرف التي صارت أشبه بخلايا ثورية وصار الأساتذة دعاة لهم، لذلك ذهب البعض إلي أن النقابات الإسلامية، أسست بفضل القرامطة.

تأثر القرامطة في بنائهم التنظيمي بصابئة العراق وتمرسهم بعلم الفلك، فبعد أن كان الإسماعيلية يجعلون مراتب الدعوة تسعاً، جعلها زعيم القرامطة سبعة وجعل نفسه داعية مطلقاً، أي أنه ليس نائباً عن الإمام، وإنما هو يدعو إلي نفسه.

لا يبعد أيضاً تأثر القرامطة ببعض الأفكار اليونانية الخاصة بتقسيم المجتمع تقسيماً دقيقاً إلي حكام وحراس ومنتجين، فكان لهم رئيس يسترشد بجماعة من أهل الشورى أي أهل الحل والعقد، أما الحراس فهم جماعة عسكرية

ينشـــئون تنشـــئة خاصة فيذكر المقريزي أن المقاتلة بالإحساء بلغوا عشرين ألفاً مستعدين للفداء أما المنتجون فيذكرنا ناصر خسرو أنهم كانوا ثلاثين ألفاً بالمنطقة نفسها، يعملون بالزراعة وفلاحة البساتين، وأن الصناع كانت تنتظمهم جماعات متخصصية، تقدم العون لكل منهم حتى يصلح من شأنه.

د- الثورة :

ســـعي زكـــرويه زعـــيم قرامطة العراق إلي نشر الدعوة في بلاد الشام وحاصر ولده يحيي دمشق في سنة ٢٨٩هـــ، فلما قتل علي بابها انتقل الأمر إلي أخـــيه الحســـين فقتله محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة العباسي المكتفى بعد سنتين، فخرج زكرويه منتقماً لمقتل ولديه فلاقى مصيرهما في سنة ٢٩٤ هـــ.

انـــتهى أمر قرامطة العراق، لتتحول الزعامة إلي قرامطة البحرين وابن سعيد الحسين بن بهرام الجنابي.

توجـــد أبـــو ســـعيد إلي البحرين سنة ٢٨٣هـــ، فوجد صدى لدعوته من الأعراب، واستطاع أن يدخل هجر وهي عاصمتها، لكنه جعل الإحساء عاصمة له في سنة ٢٨٦هـــ.

أرســـل الخليفة المعتضد جيشاً بقيادة العباس بن عمرو السغنوي في سنة ٢٨٩هـــ، فلقي هزيمة كبيرة، وبذا استطاع أبو سعيد أن يمتد بجنود دولته فشملت هجـــر والبحرين والإحساء والقطيف وعندما مات في سنة ٣٠٢هـــ، خلفه ولده سعيد الذي خرج عليه أخوه أبو طاهر سليمان وولي مكانه.

أنحاز أبو طاهر إلي الدولة الفاطمية البازغة في بلاد المغرب، واعترف بالسيادة الاسمية لها، وزخف بجيشه علي البصرة والكوفة وتقدم في سنة ٣١٦ هـــ إلي بغداد نفسها وكادت تسقط في يديه، لولا تصدي مؤنس الخادم قائد الخليفة المقتدر له.

في العام التالي هاجم أبو طاهر مكة، وأقام الخطبة لعبيد الله المهدي، وعاد إلي الإحساء ومعه الحجر الأسود.

أثار ما فعله أبو طاهر استياء عبيد الله المهدي، وأرسل إليه كتاباً يؤنبه فيه علي فعلته تلك ويلعنه.

في سنة ٣٣٢هـ مات أبو طاهر، وخلفه أخوه أحمد فأعاد الحجر الأسود إلي مكانه في الكعبة سنة ٣٣٩هـ، وكان أبو طاهر قد رفض إعادته في مقابل خمسين ألف دينار يعطيها له الخليفة العباسي.

في سنة ٣٥٩ مات أحمد وخلفه ولده الحسن الذي تلقب بالأعصم فتعسف مع بني عمه أبي طاهر – وكانوا موالين للفاطميين – ولم يلبث أن أقام الخطبة في مكة للخليفة العباس المطيع.

تدهورت العلاقات بين القرامطة وبين الفاطميين بعد استيلاء الأخيرين علي دمشق في سنة ٣٥٩هـ، فقد طالبهم الأعصم بالإتاوة التي كان يؤديها إليهم الإخشيديون فلما رفضوا أمر بحذف اسم المعز الدين الله من الخطبة، وبعث يطلب عون العباسيين فلبى عز الدولة بختيار البويهي طلبه، وأيده الحمدانيون بالموصل، فكتب الأعصم علي رايات الجيش المتوجه إلي دمشق عبارة "السادة الراجعون إلي الحق".

أستولى القرامطة علي دمشق سنة ٣٦٠ وقتلوا جعفر بن فلاح الكتامي قائد الفاطميين، وأقاموا الدعوة علي مساجدها للخليفة العباسي، واستولى بعد ذلك علي الرملة.

سار الأعصم إلي مصر فاستولى علي القلزم ثم عين شمس وفي سنة ٣٦١هـ، حاصر القاهرة التي حفر جوهر القائد خندقاً حولها، فلما فشل القرامطة في اقتحام هذا الخندق انسحبوا.

بعد انتقال المعز لدين الله من المغرب إلي مصر في سنة ٣٦٢ أرسل إلي الأعصـــم كتاباً مطولاً تراوحت لهجته بين الشدة وبين اللين، ورغبة في الطاعة، فرد عليه الأعصم بعبارة مختصره "وصل كتابك الذي قل تحصيله وكثر تفصيله، ونحن سائرون إليك علي أثره والسلام".

زحف الأعصم إلي مصر مرة ثانية في سنة ٣٦٣ وعسكرت قواته قرب الخـندق، فاستعان المصريون برشوة بعض خلفاء القرامطة من قبائل طئ، مما أسـفر عن هزيمتهم وارتداد الأعصم إلي الشام، وعاد إدراجه إلي الإحساء، ولم يلبث الفاطميون أن استردوا دمشق.

تجدد الصدام بين القرامطة وبين الفاطميين في سنة ٣٦٥ عندما ثار أحد القـادة الأتـراك بدمشق وأرسل هذا القائد ويدعى أفتكين يطلب عون الأعصم، الأمـر الذي اضطر معه جوهر القائد غلي رفع الحصار عن دمشق والعودة إلي مصر، علي أن الخليفة العزيز بالله سار إلي الشام بنفسه في سنة ٣٦٧هـ، ودار قتال عند الرملة، أسفر عن انهزام أفتكين، وانسحاب الأعصم إلي الإحساء.

وإذا كان القرامطة قد غزوا الشام ومصر، فإنهم لم يغمضوا عيونهم عن العراق، فأصابوه ببعض غزواتهم، مثل غزوهم الكوفة في سنة ٣٧٥ فتصدى لهم البويهيون وطردوهم.

بعـد وفـاة الحسن الأعصم في سنة ٣٦٧ عادت الخلافات داخل الأسرة الحاكمة، حتى أستقر الأمر علي أن يتولى الحكم ستة من السادة عاودا الاعتراف بالخلافات الفاطمية.

فـــي أواخر القرن الرابع تلقص نفوذ القرامطة، ولم يتبق لهم سوى ساحة صغيرة علي شاطئ الخليج وانتهى أمرهم في سنة ٣٨٩ بأن استولى الأصغر بن أبـي الحسـن الثعلبـي علي دولتهم، وملك الإحساء منهم ودعا للخليفة العباسي الطائع.

الفصل الثالث

العصـــر العباســـي الثالـــث

٣٣٤ـ٤٤٧هـ/٩٤٦ـ١٠٥٥م

١- ظهور بني بويه وقيام دولتهم .

٢- سياسة بني بويه مع الخلفاء العباسيين.

٣- العراق في عصر بني بويه.

٤- الحضارة الإسلامية في عصر بني بويه.

العصــــر العباســــي الثالــث

٣٣٤ـ٤٤٧هـ/٩٤٦ـ١٠٥٥م

١ــ ظهور بني بويه وقيام دولتهم :

عاش الديلم وهم أقوام من غير الفرس جنوبي بحر قزوين، وأسلموا في وقت متأخر علي مذهب الشيعة الزيدية.

ولما كان الديلم معروفين بشجاعتهم وقدراتهم العسكرية الفائقة، فقد إستعان بهم عديد من الحكام المسلمين في الهضبة الإيرانية، وتطرق بعضهم إلي بغداد.

ينتسب بنوبويه ــ وهم علي والحسن وأحمد ــ إلي الديلم، وقد عملوا في جيش القائد الديلمي ما كان بن كاكي، فلما هزم في بعض حروبه ضد مواطنه مرداويج بن زيار، غيروا مواقعهم إلي جانب المنتصر.

كان مرداويج قد وضع يديه علي دولة الحسن بن زيد العلوي ــ الملقب بالأطروش ــ بطبرستان، وأمتد نفوذه إمتداداً واسعاً في القسم الغربي من إيران.

رحب مرداويج ببني بويه وخلع عليهم، وولي كبيرهم علياً بلاد الكرج، فأثبت كفاءة في حكمها، وتعاظمت سلطته بعد أن أستولي علي أصبهان.

أثار ما حققه علي بن بويه من نجاحات غضب مرداويج فأنفذ إليه أخاه وشمكير في جيش كبير، فلما أقترب من أصبهان زال عنها علي وقصد أرجان فأستولي عليها، ثم ثني في سنة ٣٢٢ بشيراز، بينما أستولي أخوه أحمد علي كرمان.

كتب علي بن بويه إلي الخليفة الراضي، يطلب منه أن يفــوضه أعمال فارس، وتعهد بأن يؤدي ألف ألف درهم في مقابل ذلك وبأن ينتظم في أداء هذا المبلغ كل عام، فأجابه الخليفة وأرسل إليه الخلعة والتفويض واللواء، ولكن علياً

احتال علي الرسول فأرتدى الخلعة، وقرأ التفويض علي أهل شيراز، ولم يلبث أن أمتنع عن إعطاء الرسول ما قد وعد به من مال.

تأهب مرداويج في إرسال جيش يقضي به علي بني بويه قبل أن يستفحل أمرهم، فأسرع علي بن بويه، وتفاوض معه و اتفق الطرفان علي أن يقيم علي الخطبة لمرداويج فيما تحت يديه من بلاد، ويبعث إليه بأخيه الحسن ليكون رهينة تضمن التزامه بالاتفاق.

في سنة ٣٢٣ اغتيل مردايج علي أيدي بعض غلمانه الأتراك فزالت بموته أكبر عقبه تحول دون البويهيين في إيران .

استولي بنو بويه علي أصبهان والري وهمذان وكرمان وبقية العراق العجمي، ثم تجاوزه إلي العراق العربي فأستولي أحمد بن بويه علي الأهواز في سنة ٣٢٦هـ.

بدأ البويهيون يتطلعون إلي العراق بعد أن فرغوا مما جاوره من بلاد، ولما كان الأخ الأكبر وهو علي مشغولاً بتوطيد أمره في الدولة الجديدة، فقد جعل العراق منوطاً بأخيه الأصغر أحمد الذي وصل في سنة ٣٣٢ إلي مشارف بغداد وكادت تقع في يديه، لولا ما أبداه توزون، التركي من شجاعة في التصدي له، فأوقع به الهزيمة وأرغمه علي الارتداد إلي الأهواز.

فـــي سنة ٣٣٣ مات توزون وخلفه في منصبه كأمير للأمراء كاتبة ابن شـــيرزاد، فاضطربت أمور العراق، وكاتب القواد أحمد بن بويه يدعونه لدخول بغداد .

فـــي ١١ جمـــادي الآخرة سنة ٣٣٤/ديسمبر ٩٤٥ دخل أحمد ابن بويه بغـــداد ورحـــب به الخليفة المستكفي، وخلع عليه، وعقد له لواء أمرة الأمراء، ولقـــبه معـــز الدولة، ولقب أخاه علياً صاحب بلاد الفرس بعماد الدولة، كما لقب

أخاه الحسن صاحب أصبهان والري بركن الدولة، وأمر أن تنقش ألقابهم وكناهم علي الدنانير والدراهم.

بدخــول أحمــد بــن بويه بغداد في سنة ٣٣٤ وتوليته أمرة الأمراء بدأ العصر البويهي الذي أمتد حتى سنة ٤٤٧ / ١٠٥٥.

٢- سياسة بني بويه مع الخلفاء العباسيين :

بعد أيام قليلة من دخول معز الدولة بغداد، أقدم علي خلع الخليفة المتكفي، لاتهامــه بالــتآمر مع الحمدانيين ضده، فتقدم أثنان من الجنود الديلم من الخليفة وســاقاه إلي دار الأمير البويهي الذي أرغمه علي أن يخلع نفسه، وسلمت عيناه، وحبسه فظل في الحبس حتى مات في سنة ٣٣٨.

يذهــب بعــض المؤرخين إلي أن خلع البويهيين للمستكفي، وتوليتهم ابن عمــه المطــيع، دليل علي ضعف الخلافة العباسية في عهدهم، والحقيقة أن هذا القــول مغالي فيه، لأن الخلافة لم تفقد شيئاً بمقدمهم، ولم يأت البويهيون بجديد، أي لــم تكــن الخلافــة قوية حتى يضعفوها، الصحيح أن الخلافة كانت ضعيفة وظلــت ضعيفة والجديد الذي أتي به البويهيون هو أنهم قننوا هذا الوضع، وأهم مظاهره أن أمرة الأمراء صارت وراثية في بيتهم، واتخذوا ألقاب الملك وخطب لهم مع الخليفة في بغداد.

وفــي المقابل فقد استفادة الخلافة من وجود بني بويه إلي حد بعيد ويدل علي ذلك أنه قد وليها خلال ما يزيد علي مائة عام أربعة خلفاء فحسب، وبطبيعة الحال فإن ذلك كان يوفر قدراً من الاستقرار حرمته الخلافة قبل ذلك.

واجــه بنوبويه عقب مقدمهم مشكلة كبيرة، وهي أنهم كانوا شيعة زيدية، في حين كانت الخلافة التي تحكم سنية عباسية.

ويقال أن معز الدولة فكر في أن ينقل الخلافة من العباسيين، إلي العلويين لكنه عدل عن ذلك بعد أن قال له بعض خواصه "ليس هذا برأي، فإنك اليوم مع

خلـيفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه، مسـتحلين دمـه ومـتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصاحبك صحي خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا".

الواقـع أن عـدم نزع الخلافة من بني العباس، كان حكمة من البويهيين حتى يستأثروا وحدهن بالنفوذ دون الخليفة، وقد وجدوا في مذهبهم الزيدي غطاء شـرعياً لذلـك، فقد أجاز الزيدية – وهم شيعة معتدلون – أمامية المفضول مع وجود الأفضل.

وفـي الوقت نفسه خشي بنوبويه إذا هم حولوا الخلافة عن العباسيين، أن يتألب عليهم منافسوهم من السامانيين والغزنويين وغيرهم من الحكام، فضلاً عن أهل السنة أنفسهم.

ورغمـاً مـن تجريد الخلفاء من سلطاتهم السياسية، فقد ظلوا يحتفظون بحقهـم فـي تعييـن القضاة وأئمة المساجد والنقباء وولاة الحسبة وأمراء الحج وغيرهم من أصحاب الولايات الدينية، كما احتفظوا بحقهم في تولية العهد ابنائهم وتفويـض الأمراء حكم البلاد، وعندما التمس محمود الغزنوي من الخليفة القادر بـالله تفويضاً، بعث به إليه ولقبه يمين الدوبة وأمين الملة وعند وفاة محمود في سنة ٤٢١ لقب القادر ولده مسعوداً بالناصر لدين الله.

كان يحدث أحياناً أن يسئ الأمير البويهي علي الخليفة العباس، خصوصاً عـندما تشـتد حاجته إلي المال، فبعدد حول معز الدولة بغداد صادر اقطاعات المسـتكفي وضـياعه، وأقطعها قواده وخواصه، واقتصر له علي خمسة آلاف درهم مياومه نقصت عن ألفين في خلافة المطيع، علي أن عضد الدولة أعاد فيما بعد بعض هذه الضياع علي الخليفة.

وفـي سـنة ٣٥٦ مات معز الدولة وخلفه ولده عز الدولة بختيار، فسار سيرة أبيه مع المطيع وصادره وضيق عليه إلي أن مات في سنة ٣٦٣.

لـــم يكـــن الطائع بأحسن حال من المطيع، فعندما أحتاج بهاء الدولة إلي أموال أشار عليه أصحابه بأن يخلع الخليفة ويستولي علي ما في داره من ذخائر، وعلي ذلك فقد تقدم إليه بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يده، لكنه أنزله عن سريره، والخلـــيفة يستغيث ويقول : إنا لله وإنا إليه راجعون، وحمله إلي دار بهاء الدولة حيث خلع وبويع للقادر بالله في سنة ٣٨١هـــ.

شـــارك بنوبويه العباسيين في بعض مظاهر سيادتهم الدينية فأصبح اسم الأمير البويهي منذ عهد عضد الدولة يذكر مع الخليفة في خطبة الجمعة، بل إن عضد الدولة عندما اختلف مع الطائع، حذف اسمه من الخطبة شهرين.

لم يتوقف طموح عضد الدولة عند هذا الحد، فقد شارك الخليفة في ضرب الطـــبول والأبـــواق أمام داره في أوقات الصلاة، فصارت تضرب ثلاث مرات، ارتفعت إلي خمس في عهد جلال الدولة شأنه في ذلك شأن الخليفة نفسه.

وإذا كـــان عضـــد الدولة قد تلقب في حفل عام بتاج الملة فصار أول من يـــتخذ لقبين من الأمراء، فإن ولده شرف الدولة تلقب بشاهنشاه، أما جلال الدولة فأنه طلب من القائم بأمر الله في سنة ٤٢٥هـــ أن يخطب له بملك الملوك، فامتنع فـــي البداية، ثم استفتى الفقهاء، فأجاز ذلك أربعة منهم، واعترض قاضي القضاة ولم يقف أعتراضه دون رغبة جلال الدولة.

الأكـــثر من ذلك فإن أبا منصور بن جلال الدولة تلقب بالملك العزيز في سنة ٤٣٠ ، وبعد عشرة سنوات تلقب أبو نصر خسرو فيروز بالملك الرحيم.

٣- العراق في عصر بني بويه :

أقـــام البويهيون علي نحو أساس في شيراز لكنهم كانوا يأتون علي بغداد بين حين وآخر، حيث أعدت لهم دار مخصوصة يزاولون منها أمور الحكم.

كان أحمد بن بويه الملقب بمعز الدولة هو أول أمراء بني بويه بالعراق، وقد سعى علي توطيد حكمه بها، ومن أجل ذلك دخل في نزاعات مع الحمدانيين

الذيـن كانوا يطمحون إلي استرداد منصب إمرة الإمراء، واستطاع ان يطردهم مـن بغداد، ومضى إلي تكريت في الشمال ونهبها، ثم تعقب البريدين بالبصرة، وأرغم أبا القاسم البريدي علي الهرب منها إلي القرامطة بالبحرين.

خلـص أمـر العراق إلي معز الدولة فضلاً عن الأهواز وكرمان وكانت علاقاتـه طيـبة بأخويـه عماد الدولة في فارس وركن الدولة في الري وهمذان وأصبهان.

مـات معز الدولة في سنة ٣٥٦ فخلفه ولده بختيار الذي تلقب بعز الدولة لكـنه لـم يعمل بنصيحة أبيه الذي أوصاه بطاعة عمه ركن الدولة، وابن عمه عضـد الدولة ابن عماد الدولة فعمل علي مناوأتها ،وانصرف إلي جمع الأموال ومصـادرة كـبار الديالمة مما أدي إلي اضطراب أمور العراق فاستنجد بعضد الدولـة الـذي خف إلي معاونته، علي أنه لم يلبث أن أنقلب عليه وحاربه وقتله وولي مكانه في سنة ٣٦٧.

بلغـت الدولـة البويهية أوجها في عهد عضد الدولة واستطاع أن يوحد أمـارات البويهين في العراق وكرمان وفارس وخوزستان وغيرها، الأمر الذي يوضحه خطاب الخليفة الطايع له في حفل عام "قد رأيت أفرض إليك ما وكل الله تعـالى إلـي مـن أمور الرعية في شرق الأرض وغربها، وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي وأسبابي، فتولى ذلك مستخيراً بالله".

بعد وفاة عضد الدولة سنة ٣٧٢ خلفه ولده أبو كاليجار وتلقب بصمصام الدولة، وعلي أن أخاه شرف الدولة طمع في ملك العراق فاستولى علي واسط ، ولما أدرك صمصام الدولة أن لا طاقة له بأخيه استسلم له فحبسه في إحدى قلاع فارس وجلس مكانه في سنة ٣٧٦.

لم يطل العهد بشرف الدولة فمات بعد ثلاث سنوات ليخلفه أخوه أبو نصر الملقب ببهاء الدولة، فاستطال عهده إلي سنة ٤٠٣.

فـــي عهد بهاء الدولة قامت عدة حروب بينه وبين أخوته وبني عمه كما، أن إيثاره للأتراك من جنوده أدى إلي ثورة جنوده الديلم عليه.

خلـــف أبو شجاع أباه بهاء الدولة، وتلقب بسلطان الدولة ولما كان صبياً صغيراً في نحو الثالثة عشرة، فقد نازعه أخوه قوام الدولة، صاحب كرمان، كما نازعـــه أيضــاً أخـــوه الآخر مشرف الدولة الذي أجبره علي التنازل عن الملك والرحيل إلي الأهواز وولي مكانه في سنة ٤١١.

خلـــف جلال الدولة أخاه مشرف الدولة في سنة ٤١٦ وفي عهده تصاعد نفـــوذ الجـــنود الأتراك بل أنهم ثاروا عليه في سنة ٤١٩ ونهبوا داره وحصروه ومـــنعوا عـــنه الطعام والماء مما اضطره إلي طلب وساطة الخليفة القادر بينه وبينهم.

كذلـــك نشـــب نزاع بين جلال الدولة وبين أبي كاليجار ابن أخيه سلطان الدولـــة، وكـــان يحكم فارس، واضطر جلال الدولة إلي الهرب من بغداد ثلاث مرات إلي أن تم الصلح بينهما في سنة ٤٢٨.

توفـــى جـــلال الدولة في سنة ٤٣٥ ولم يستقر الحكم لولده أبي المنصور فـــيروز الملقـــب بالملك العزيز، فقد استمال أبو كاليجار قواده بالأموال، فأقاموا الخطـــبة له ببغداد، فدخلها وولي مكان الملك العزيز، وتلقب بعماد الدولة لكنه لم يعمر في حكمه سوى خمس سنوات، سعى خلالها إلي درء خطر السلاجقة ببناء سور حول مدينة شيراز ومسالمة طغرلبك ومصاهرته.

كـــان أبـــو نصر خسرو فيروز بن عماد الدولة هو آخر أمراء بني بويه ببغداد، وقد تلقب بالملك الرحيم، ونشبت حروب بينه وبين أخوته وكانوا كثيرين مما مهد السبيل لدخول السلاجقة بغداد في سنة ٤٤٧.

٤- الحضارة الإسلامية في عصر بني بويه :

ازدهـرت الحضـارة الإسـلامية فـي عصر بني بويه ازدهاراً عظيماً وتعددت مراكزها، فلم تعد قصراً علي بغداد والبصرة والكوفة، وإنما تعدتها إلي الـري وأصـفهان وشيراز وقام البويهيون أنفسهم بدور كبير في هذا المضمار، وينسـب إلي عضد الدولة إبتناء مساجد عديدة ومستشفيات في مدينة بغداد مثل البيمارستان العضدي الذي أوقف عليه أوقافاً كثيرة، كما بني مشهد علي ومشهد الحسين.

أما في شيراز – وهي عاصمة الدولة – فقد بني عضد الدولة بها قصراً احتوى علي ثلاثمائة قاعة، وغطى جدرانها بالقيشاني المحلى بالرسوم.

وإذا كـان السـامانيون قد شجعوا الثقافة الفارسية، فإن عضد الدولة من ناحيـته شجع الثقافة العربية، فقصده المتنبي شاعر العربية الكبير ممتدحاً، وأبو علـي الفارسي وهو من كبار النحاة وأهدى إليه كتابة في النحو ويدعى "أيضاح" كما قصده أبو الوفاء الفلكي المشهور.

نهـج أمـراء بنـي بويه نهج عضد الدولة، فابتنى شرف الدولة مرصداً بشيراز، أعان علي تقدم علم الفلك كما أنشأ سابور بن أزد شيروزير بهاء الدولة مكتبة ببغداد احتوت علي عشرة آلاف مجلد توجه إليها العلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

كذلـك فأن بعض رجال بني بويه كانوا من رجال الأدب، يكفي أن نذكر مـنهم القاضي أبا الحسن البصري المعروف بالماوردي الذي ألف كتاب الأحكام السـلطانية، وهـو من المصادر الهامة لدارس التاريخ، كما كان منهم أيضاً أبو الفضـل بن العميد الكاتب الشهير الذي قيل فيه "بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بأبـن العمـيد". والصاحب بن عباد الوزير الخطير الذي ألف كتاب "المحيط في اللغة" في عشر مجلدات.

ومـــع أن بنـــي بويه كانوا شيعة زيدية إلا أنهم أتاحوا الفرصة لمختلف المذاهـــب الإسلامية لأن تعبر نفسها، فأنصرف الخليفة القادر إلي تصنيف الكتب للـــرد علـــي المعتزلة والشيعة، وفي الوقت نفسه ظهر القاضي عبد الجبار عالم المعـــتزلة الكبـــير وخصيمه اللدود أبو الحسن الأشعري متكلم أهل السنة وفقيهم والشـــيخ المفيد أكبر مجتهدي الشيعة. وفي جنوبي العراق بالبصرة تصاعد نجم أخوان الصفا الذين وضعوا إحدى وخمسين رسالة في مختلف مناحي الفكر.

الفصل الرابع

العصـــر العباســـي الـــرابـــع

{عصر السلاجقة وسقوط الخلافة العباسية}

٤٤٧ – ٦٥٦ هـ / ١٠٥٥ – ١٢٥٨ م

١-ظهور السلاجقة وقيام دولتهم

٢-دخول السلاجقة بغداد

٣-سياسة السلاجقة مع الخلفاء العباسيين

٤-زوال دولة سلاجقة العراق

٥-سقوط الخلافة العباسية.

العصـــر العباســـي الـــرابـــع

٤٤٧ - ٦٥٦ هـ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨ م

١- ظهور السلاجقة وقيام دولتهم :

عاشـــت فـــي تركستان مجموعة من القبائل التركية المعروفة باسم الغز، وفـــي ســـنة ٣٧٥ اضطر هذه القبائل علي الرحيل عن وطنها إلي بلاد ما وراء النهر، بسبب ظروف اقتصادية آلت بها، دفعتها إلي الهجرة.

قاد هذه القبائل رحلتها إلي العالم الإسلامي زعيم يدعى سلجوق بن دقاق، غلب اسمه عليها فصارت تدعى بالسلاجقة.

أعتنق السلاجقة الإسلام علي المذهب السني، وعقدوا حلفا مع السامانيين أصحاب بلاد ما وراء النهر، فسمحوا لهم بالاستقرار قرب بخاري وسمرقند.

انتعشـــت أحوال السلاجقة، وبخاصة بعد زوال الدولة السامانية في سنة ٣٨٩ وصار لهم جيش وافر العدة، مما أثار حفيظة الخانيين، وسعوا إلي الإيقاع بينهم وبين السلطان محمود صاحب غزنة.

كـــان محمـــود بـــن سيكتكين الغزنوي قد أنشأ لنفسه دولة كبيرة ضمت خراســـان ومـــا وراء النهر، وغزا الهند أثنى عشرة مرة، فلقب بالغزي، ثم أنعم الخليفة العباسي عليه بلقب يمين الدولة.

انصـــاع محمود الغزنوي لدسائس الخانيين واحتال علي السلاجقة فارسل إلـــي زعيمهم إسرائيل سنة ٤١٥ يعرض عليه أن يتعاونا سوياً واقترح أن يلتقيا فـــي مكـــان قـــرب نهر جيحون، وبذلك تمكن السلطان محمود من القبض علي إســـرائيل وعدد من وجوه قومه وألقي به في إحدى قلاع الهند، فظل بها إلي أن مات سنة ٤٢٢هـــ.

خلــف ميكائــيل أخاه إسرائيل في زعامة السلاجقة وسعى إلي أن يتدبر أمره مع السلطان محمود، فبعث إليه يلتمس الرحيل بقومه إلي خراسان، والإقامة بين نساوباورد، وقال "إن مقامنا أصبح يضيق بنا، وإن مراعينا أصبحت لا تفي بحاجــة مواشينا" ومع أن أرسلان والي طوس بعث إلي السلطان محمود يحذره من مغبة الانصياع لطلب السلاجقة، إلا أنه أجابهم لما طلبوه.

يشــكل انتقال السلاجقة إلي خراسان مرحلة جديدة في تاريخهم فقد أخذوا في تدعيم قوتهم ويتحينون الفرصة للانتقام من السلطان، وتهيأت لهم هذه الفرصة فــي سنة ٤١٨، فوقعت الحرب بينهم وبين والي طوس، وتحقق النصر لهم في البداية علي أن مقدم السلطان بنفسه حول نصرهم إلي هزيمة.

كــان لميكائــيل ولــدان هما جغرى بك أبو سليمان داود، طغرل بك أبو طالب محمد، وكانا فارسين مقدامين، استطاعا أن يجمعا حولهما القبائل، وانتهزا فرصــة موت السلطان محمود في سنة ٤٢١، وأخذا ينشران نفوذهما في أنحاء خراسان.

لمــا أطمئــن السلاجقة إلي قوتهم طلبوا من والي نيسابور بأن يأذن لهم بالإضافة بالقرب منها، فرفض الوالي واستعان بالسلطان مسعود بن محمود الذي أســرع إلــي نيسابور في سنة ٤٢٦ لدفع خطرهم فالتقي بهم قرب نسا وانهزم السلاجقة في البداية، لكنهم انتصروا في النهاية انتصاراً باهراً، واضطر مسعود إلي مصالحتهم وترك لهم المنطقة ورحل إلي الهند.

قوى أمر السلاجقة بعد هذا الصلح، وحمل زعائمهم ألقاب الدهاقين ويقول الــراوندي "أشتد بأسهم وازدادت قوتهم ولاحت عليهم إمارات الملك وعلامات الحكم ومخايل السلطان".

عــاود مســعود مهاجمــته السلاجقة في سنة ٤٢٩ فعاودته الهزيمة مرة أخرى، وأضحى السلاجقة أكبر قوة في خراسان.

شعر السلاجقة بأن الوقت قد حان لإعلان قيام دولتهم فوحدوا قيادتهم في يدي طغرلبك الذي جلس علي عرش مسعود في نيسابور، وباشر مهامه كسلطان وإذا كـان الخلـيفة العباسي لم يعترف به إلا سنة ٤٣٢ إلا أن هذا الاعتراف لا يعدو كونه مسألة شكلية فحسب.

عـندما ترامـت هذه الأخبار علي مسعود توجه إليهم مرة ثانية وأخيرة حاقت به الهزيمة في دندانقان سنة ٤٣١، وكانت هزيمة ساحقة، أنقلب بعدها إلي غـزنة مدحـوراً، وغـنم السـلاجقة مغانم وفيرة ورجع طغرلبك إلي نيسابور منصوراً.

٢- دخول السلاجقة بغداد :

قـوي أمـر السـلاجقة بعد موقعة دندانقان وجعل طغرلبك عاصمته في الـري، وسعى إلي أن يحصل علي إعتراف الخليفة العباسي به فأرسل إليه في سنة ٤٣٢ يظهر ولاه، وحبه للجهاد وبين له غدر السلطان محمود بعمه إسرائيل، وكيف أن الغزنويين أنصرفوا عن الجهاد إلي اللهو وعدم مراعاة شئون دينهم.

قـبل أن يصل إلي طغرلبك رد الخليفة القائم كان قد تم له الإستيلاء علي جـرجان وطبرستان من الغوريين، كما فتح خوارزم، فلما وصله رسول الخليفة إلـي بغـداد، اعتذر طغرلبك عن تلبية الدعوة حتى يتم له فتح سائر أقاليم إيران فتمكن من بسط نفوذه علي قزوين وهمذان وأذربيجان وأصبهان، ثم دخل تبريز في سنة ٤٤٦ ومضى يتطلع إلي العراق.

كـان أبـو كاليجار الملقب بعماد الدولة قد أستقرت إليه أمور العراق في سنة ٤٣٥ واعترته المخاوف من تقدم السلاجقة في الهضبة الإيرانية، فسعى إلي مصـالحة طغرلـبك، حتى يأمن شره واتفق معه في سنة ٤٣٩ علي أن يتزوج طغرلـبك بأبنـته ويـتزوج أبو منصور بن عماد الدولة بابنة الملك دولود أخي طغرلبك.

كـــان المؤيـــد فـــي الدين داعي الدعاة هبة الله الشيرازي قد نشر الدعوة للفاطميين بفارس والعراق مما أثار مخاوف الخليفة القائم، فبعث إلي عماد الدولة يطلـــب منه تسليمه هبة الله ويتوعده الاستعانة بالسلاجقة، إذا لم يستجيب لمطلبه فاضطر هبة الله للرحيل إلي مصر في سنة ٤٣٨.

وجـــدت الدعـــوة الفاطمية تأييداً من بعض القادة الأتراك، وبخاصة أبى الحـــارث أرســـلان البسا سيرى، وعندما تنبه الخليفة القائم لذلك في سنة ٤٤٦ أرســـل إلـــي الملـــك الرحـــيم – الذي خلف أباه عماد الدولة – يطلب منه أبعاد البساســـيري من بغداد ولم يجد البساسيري إلا ان يغادر المدينة إلي الحلة، حيث نـــزل علي أميرها دبيس بن مزيد وظل مقيماً بها، حتى اضطر إلي المسير إلي الرحبة بعد أن دخل طغرلبك بغداد.

لـــم تكـــن أحوال العراق بخافية عن طغرلبك، فقد أعتزم انتهاز الفرصة واظهـــر فـــي سنة ٤٤٧ أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلي مصر وإزالة المستنصر العلوي صاحبها، وأرسل إلي الخليفة يستأذنه في دخول بغداد، فأذن له وأمر بإقامة الخطبة له علي منابرها.

اظهـــر العامة في المدينة تذمرهم من دخول طغرلبك وقتلوا بعض جنوده الأمـــر الذي أدى إلي استياء طغرلبك، واستدعى الملك الرحيم، واتهمه بتدبير ما حدث وأرسله إلي قلعة قرب الري، فظل معتقلاً بها ثلاث سنوات حتى مات.

لما علم الخليفة بما حل بالملك البويهي بعث إلي طغرلبك يستنكر ما حدث ويقول "أنهم إنما خرجوا إليك بأمري وأماني، فإن أطلقتهم، وإلا فأنا أفارق بغداد" فاضـــطر طغرلبك إلي إطلاق بعضهم، فرحل كثير منهم إلي البساسيري والتفوا حوله.

طال مقام السلاجقة ببغداد حتى ضج منهم أهلها فغادروها في سنة ٤٤٨ بعد أن أقاموا سنة لم يحظ طغرلبك خلالها بمقابلة الخليفة.

عــاد هبة الله إلي العراق ومعه مدد من مصر، ونجح في استمالة بعض الأمراء العرب إلي دعوة الخليفة المستنصر بالله فأقام له الخطبة بالموصل، ولما تأكد من نجاحه رجع إدراجه إلي مصر.

خاف طغرلبك من تفاقم الأوضاع وسارع بدخول بغداد مرة ثانية في سنة ٤٤٩، وقابل الخليفة القائم الذي خلع عليه ودعاه بملك الشرق والمغرب، وخاطبه علــي لسان وزيره "إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس لقربك، وقــد ولاك جمــيع ما ولاه الله من بلاده ورد عليك مراعاة عباده، فأتق الله فيما ولاك، وأعرف نعمته عليك في ذلك، واجتهد في نشر العدل وكف الظلم وإصلاح الرعية".

لم ينعم طغرلبك بالاستقرار، إذ خرج عليه أخوه إبراهيم ينال الذي كاتب البساسـيري، وأظهــر رغبته أن يدعو للخليفة الفاطمي، فاضطر طغرلبك لأن يفارق بغداد وتعقب البساسيري وانصاره إلي نصيبين، ثم استعان بابن أخيه ألب أرسلان، واستطاع في سنة ٤٥١ أن ينتصر علي إبراهيم ينال بالقرب من الري، وأسره ثم قتله.

انتهز البساسيري فرصة انشغال طغرلبك بثورة أخيه، وزحف إلي بغداد فــي أربعمائــة فــارس حــاملاً الــرايات المستنصرية التي كتب عليها "الإمام المستنصــر بــالله أبو تميم معد أمير المؤمنين" وتمكن في سنة ٤٥٠ من دخول المديــنة، وأقــام الخطبة للفاطميين في جامع المنصور وضرب السكة باسمهم، وأرغــم القائم علي أن يكتب إقراراً بأنه لا حق لبني العباس في الخلافة، وأبعده إلي حديثه عادة.

عــندما بلغــت هــذه الأنــباء مصر، أقيمت بها احتفالات ووقفت إحدى المغنيات تحت قصر الخليفة المستنصر تنشد هذين البيتين :

يابني العباس صدوا ملك الأمر معد

ملككم كان معاراً والعواري تسترد

فأعجـب المستنصـر بغـنائها، واقطعها أرضاً مازالت تعرف إلي اليوم بأرض الطبالة.

عول طغرلبك علي العودة إلي العراق بعد أن قضى علي ثورة أخيه فلما أقترب من بغداد أدرك البساسيري أن لا طاقة له به، فغادرها إلي الكوفة في سنة ٤٥١ ولم يلبث أن أعتزم الخفية القائم العودة إلي بغداد، فخرج طغرلبك لاستقباله عند وصول النهروان، وقبل الأرض بين يديه، واعتذر له عن تأخره بسبب فتنة أخيه، وأعلن عزمه علي مطاردة البساسيري والسير إلي الشام ثم مصر.

بعد قليل تمت هزيمة البساسيري وقتله واستقر الأمر للسلاجقة بالعراق.

٣- سياسة السلاجقة مع الخلفاء العباسيين :

كأن دخول السلاجقة بغداد في سنة ٤٤٧ بداية عهد جديد للخلافة العباسية ، ومـع أنهـم أبعدوا خطر الفاطميين إلا أن أحوال الخلافة لم تختلف كثيراً عما كانـت عليه في أيام البويهيين، بل أنهم عاملوا العراق علي أنه إقليم من أقاليم دولتهم الواسعة، واكتفوا بأن أرسلوا نواباً عنهم، وظل الخليفة يعيش من الأرزاق والإقطاعات التي يقررها له السلاجقة ولم يكن له من نفوذ سوى نقش أسمه علي السكه وذكره في الخطبة، واحتجت عن رعاياه، ولم يعد يظهر إلا في المناسبات العامة.

قبل أن يرحل طغرلبك إلي الري أمر بأن تحمل موارد العراق المالية إلي خزانته، بدلاً من خزانة الخليفة وأناب عنه في حكم بغداد موظفاً يعرف بالعميد، وعيـن موظفاً آخر لحفظ الأمن في بغداد يعرف بالشحنة، ووضع تحت تصرفها حامية من جنوده.

أراد طغرلبك تدعيم نفوذه السياسي بأن يتزوج بابنة الخليفة الذي فزع من ذلـــك الأمـــر، ثم اضطر في النهاية إلي الإدعاء علي أن طغرلبك مات قبل أن يدخل بها.

تولى ألب أرسلان السلطنة في سنة ٤٥٥ فبادر إلي إعادة ابنة الخليفة إلي أبيها، فأمر القائم بالخطبة له في مساجد بغداد باسم "السلطان العظيم عضد الدولة وتاج الملة أبو شجاع ألب أرسلان محمد بن داود". وعندما انتصر السلطان علي الروم في ملازكرد لقبه "السلطان الأعظم ملك العرب والعجم ملوك الأمم".

وحين أعتزم ألب أرسلان ترشيح ولده ملكشاه ولياً لعهده بعث إلي الخليفة بذلـــك فوافقه في ترشيحه، ولم يلبث أن اعتلى ملكشاه عرش أبيه في سنة ٤٦٥ وأرسل القائم إليه عهده بالسلطنة.

مـــات القائم في سنة ٤٦٧ بعد أن حكم خمسة وأربعين سنة فخلفه حفيده المقتدي بأمر الله، وتواصلت العلاقات الطيبة بينه وبين ملكشاه، إلا أن العلاقات توترت في سنة ٤٧١، فقد طلب ملكشاه من المقتدي أن يعزل وزيره ويولى آخر رشحه هو مكانه، واستجاب الخليفة بعد تردد، ولم يلبث أن تزوج بابنة السلطان، مما أدى إلي تحسين العلاقات بينهما.

طلب ملكشاه من المقتدي أن يجعل الأمير جعفر وليا لعهده بدلاً من أخيه وكان جعفر أبناً للخليفة من ابنة السلطان.

رفض المقتدي طلب ملكشاه فاعتزم التوجه إلي بغداد في سنة ٤٨٥ لخلعه غير أنه مات قبل أن يتحقق هدفه.

بعـــد وفـــاة ملكشاه ولي أبنه محمود، وكان طفلاً في الخامسة من عمره واعترف به الخليفة ولقبه ناصر الدنيا والدين.

كان لمحمود أخ أكبر منه هو بركياروق طمع في السلطنة ودارت الحرب بينــه وبين أخيه وتمكن من هزيمته، ودخل بغداد في سنة ٤٨٧ ومنحه الخفيفة لقب ركن الدين.

توفى المقتدي في سنة ٤٨٧ وخلفه ولده أحمد الذي تلقب بالمستظهر بالله، فجدد الاعتراف ببركياروق فلما علم تاج الدين تتش بن ألب أرسلان، وكان يلي بعـض بــلاد الشام بذلك ثار مطالباً بالسلطنة واستولى علي حلب ومدن أخرى غـيرها، وأرســل إلي المستظهر يطلب الاعتراف به سلطاناً فأجابه، وأمر بأن يخطب له علي منابر بغداد، لكنه عندما هزم علي يدي ابن أخيه قرب الري في سنة ٤٨٨ وفشل، أعاد الخليفة الخطبة باسم بركياروق.

علــي أن الأمــور لــم تستقر بيدي بركياروق، فقد ثار عليه أخوه محمد صــاحب أذربيجان، وأرغم الخليفة علي الاعتراف به سلطاناً، وبذا صار هناك سلطانان معترف بهما، وانتهى الأمر إلي اتفاق الأخوين علي أن تكون المناطق الشمالية لمحمد والمناطق الجنوبية لبركياروق.

لما توفي بركياروق في سنة ٤٩٨ خلفه أبنه ملكشاه، فقدم إلي بغداد وخلع الخلـيفة علـيه ولقبه جلال الدولة، فأثار ذلك حفيظة السلطان محمد، فسار إلي بغـداد ودخلهــا الغربي وخطب له بمساجد هذا الجانب، بينما كانت الخطبة في الجانــب الشــرقي باســم ملكشاه، واستمرت الحال علي ذلك حتى عزل ملكشاه وسلمت عيناه.

عــندما مــات الســلطان محمد في سنة ٥١١ خلفه ولده محمود وأقيمت الخطــبة لــه فــي بغداد لكن عمه سنجر حاكم خراسان أستاء لذلك وأعلن نفسه سلطاناً، وبذا أصبح هناك سلطانان مرة أخرى.

انــتهز الخلــيفة المسترشــد الــذي ولي سنة ٥١٢ هذه الفرصة واعتزم الــتخلص من النفوذ السجلوقي، وأخذ يضرب السلاجقة بعضهم ببعض فاستحال

السلطان محمود ولما علم سنجر بذلك بعث إلي ابن أخيه يحذره من مغبة هذا التحالف، واقتنع محمود بنصيحة عمه وأيده في هذا الاقتناع اتصال الخليفة بأمراء الأطراف واستعانته بهم، فاعتزم محمود المسير إلي العراق في سنة ٥٢٠

تأهب المسترشد لمقاتلة محمود، وكاد ينتصر عليه لولا وصول عماد الدين زنكي والي البصرة لنجدة سلطانه، فاضطر الخليفة إلي طلب الصلح، واضطر محمود أيضاً إلي مغادرة بغداد عندما علم بخروج أخيه محمد عليه وذلك سنة ٥٢٥.

مات السلطان محمود بعد قليل، ونشب صراع طويل بين السلاجقة علي السلطنة انتهى علي أن صار مسعود بن محمد بن ملكشاه سلطاناً في سنة ٥٢٦ وأقره المسترشد.

عاود المسترشد سياسته السابقة ووصل به الأمر إلي أن قطع الخطبة لمسعود في سنة ٥٢٩ ، فوقعت الحرب بينهما وانتهت بأسر الخليفة وحبسه في قلعة قرب همزان، فغضب أهل بغداد ومنعوا الصلاة والخطبة.

لما وجد السلطان سنجر ما أحدثه أسر الخليفة من رد فعل سيئ طلب ابن أخيه مسعود أن يعتذر للمسترشد، فوافق وتم الصلح بينهما علي أن مسعوداً حرض بعض الإسماعيلية علي المسترشد، فقتلوه في سنة ٥٢٩ وتظاهر السلطان بالأسف لموته.

ولي الراشد بعد أبيه المسترشد، فتعهد لمسعود بأنه إذا حاول محاربته حق عليه الخلع، وتعهد أيضاً بأن يؤدي إليه أربعمائة ألف دينار، لكنه تنصل من وعوده بعد ذلك بل ألب عليه حكام دولته وعلي رأسهم عماد الدين زنكي صاحب الموصل.

تغلب مسعود علي هذا الحلف في سنة ٥٣٠ ودخل بغداد وأشهد الفقهاء علي سوء سيرة الراشد فأفتوه بخلعه، فولي مكانه عمه المقتفى، ولم يقف عند هذا

الحـــد، بل أوعز إلي جماعة من الإسماعيلية فقتلوه في سنة ٥٣٢ مثلما قتلوا أباه قبله.

صـــار المقتفــي مع مسعود بلا حول ولا طول، وعندما أرسل إليه هذا الأخير في سنة ٥٣١ يطلب مائة ألف دينار، كان المقتفي لا يملك غير الدار التي يقيم فيها.

٤- زوال نفوذ السلاجقة بالعراق :

بـــدأت معـــاول الهـــدم تعمـــل عملها في دولة السلاجقة بسبب نزاعاتهم الداخلـــية، وفساد النظام الإقطاعي الذي أنشأه نظام الملك وزير السلطان ملكشاه، وتوطـــد أمـــر الصليبين في بلاد الشام، وهجوم قبائل الخطا علي مشرق الدولة الإسلامية وأخيراً قيام الدولة الخوارزمشاهية.

اســـتطاع الخليفة المقتفي أن يسيطر علي بغداد بعد وفاة السلطان مسعود فـــي ســـنة ٥٤٧، بل أنه قطع الخطبة لابن أخيه محمد، الذي سارع إلي حصار بغـــداد، لكنه رفع الحصار حين علم بخروج بعض أهل بيته عليه، ولم يلبث أن مات في سنة ٥٥٤.

اســـتقرت الحـــال بالمقتفي بعد زوال الخطر عن بغداد وصار أول خليفة يحكم بها مستقلاً عن نفوذ السلاجقة لكنه مات في العام التالي.

خلـــف المســـتنجد أبـــاه المقتفي وتابع سياسته في الضرب بين السلاجقة بعضـــهم وبعـــض، وعلي النحو نفسه سار ولده المستضيئ عندما ولي في سنة ٥٦٦.

فـــي ســـنة ٥٧٥ ولـــي الخلافة أبو العباس أحمد بن المستضيئ وتلقب بالناصـــر لدين الله وخلال عهده الطويل الذي امتد نحو خمسين عاماً استطاع أن يسترد بعض ما كان للخلافة من نفوذ في صدرها الأول.

في سنة ٥٧٩ استعاد الناصر من السلاجقة أربل وشهر زور وجزيرة ابن عمر وفي سنة ٥٨٥ استعاد تكريت وأضاف إليها حديثه عانة في العام التالي.

أرسل الناصر إلي علاء الدين تكش خوارزمشاه يشكو إليه طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة بالعراق ويحثه علي قتاله ووعده بأن يقطعه ما بيده من بلاد، فلـبى تكش طلب الخليفة، والتقى جيشه بالعسكر السلجوقي قرب الري في سنة ٥٩٠ فهزم طغرلبك واحتزت رأسه، وأهداها نكش إلي الناصر فأمر برفعها علي أحد أبواب بغداد.

نتـيجة لهـذا النصر سيطر الخوارزميون علي العراق العجمي وتلقدوه رسمياً من الخليفة الذي صارت له السلطة في العراق العربي وخوزستان.

طمـع الخوارزمـيون في أن يحلوا في بغداد محل السلاجقة فلما رفض الخليفة دارت الحرب بين الفريقين وأضطر الناصر إلي أن يستعين علي أعدائه بالغوريين الأمـر الذي دعا تكش إلي التخلي عن أطماعه، ولما مات في سنة ٥٩٦ خلفـه ولـده عـلاء الدين محمد عاود التوجه إلي غزو العراق، فلم يجد الناصر إلا أن يطلب معونة التتار.

سقـــوط الخــلافــة العباسيـــة

١- التتار وجنكيزخان

٢- التتار والدولة الخوارزمية

٣- التتار وسقوط بغداد

سقــوط الخــلافة العباسية

١- التتار وجنكيزخان :

التــتار (التــتر) أو المغول شعب من الشعوب التي استوطنت في أواسط آســيا، وبخاصــة الأراضي الواقعة علي تخوم الصين وقد عاشوا عبر العصور بــدواً ينتجعون مواطن الكلأ في الصحروات الأستبسية الشاسعة، شأنهم في ذلك شــأن أقــربائهم مــن الهون الذين اشتهروا في العصر الروماني، والأتراك – سلاجقهم وعثمانيهم – الذين اشتهروا في العصر الإسلامي.

لــم يكــن العالم يعرف شيئاً عن التتار حتى أذن القرن السادس الهجري (الثانــي عشــر الميلادي) بالمغيب، فروع هذا العالم بزحف التتار غرباً بسرعة لايدانيها سوى زحف العرب بعد وفاة نبيهم الكريم. علي أنه ثمة فارقاً أساسياً بين الزحفيــن رغماً عن تشابه الشعبين في أشياء كثيرة أخصها البداوة، هذا الفارق يكمن في نوعية الرسالة التي كانت هف الزحف وأسلوبه فقد كانت رسالة التتار وأسلوبهم في وقت واحد هو التدمير، التدمير فحسب.

وربمــا كــان إفــتقار التــتار علي كل شئ عدا التدمير، هو الذي جعل فتوحاتهم تتم بسرعة مذهلة ثم تنقرض بسرعة مذهلة أيضاً، والسبب في ذلك أنهم كانوا بلا تراث ثقافي أو حضاري يطبعون به الشعوب التي حكموها، بل أنهم لم يلبثوا أن أسلموا في معظمهم، وتحمسوا في إسلامهم، وإن لم يتعمقوه، وقد أعان الإســلام علــي بقائهم، بعد انقضاء عهد قوتهم، بل أعان أيضاً علي بقاء بعض دولهم حتى القرن الماضي.

امــتدت فتوح التتار وغزواتهم آلاف الأميال طولاً، وآلاف الأميال مثلها عرضاً فشملت الصين، والنصف الشمالي من الهند ونصف أوربا الشرقي وجميع

العـــالم الإسلامي في قارة آسيا - فيما عدا الجزيرة العربية - وكانوا علي أهبة أخذ مصر نفسها...

فـــي سنة ١١٧٥م مات يسوجاي - زعيم إحدى قبائل التتار وخلف صبياً صغيراً في نحو الثالثة يدعى تيموجين.

تمـــتع هـــذا الصبي بمواهب عديدة أهلته ليكون زعيماً لقبيلته، ثم زعيماً لقـــبائل التـــتار كافة. وفي سنة ١٢٠٦/٦١٣ وكان قد بلغ مبلغ الرجولة، اجتمع زعمـــاء التـــتار في قوريتلاي - أي مؤتمر عام - وأعلن الشامان، وهو الكاهن الوثني "أن السماء قد خلعت علي تيموجين لقباً أرفع من اللقب الذي كان يلقب به أسلافه وأن اسمه قد أصبح منذ الآن جنكيزخان".

تعني جنكيزخان عند التتار الملك العظيم ذا الحول والطول.

وضع جنكيزخان للتتار أليساق أو الياسة.

تعد أليساق دستور التتار الذي كان عرفاً فحوله جنكيزخان بعد أن نظمه وأضاف إليه إلي نص مكتوب يلتزم به التتار جميعاً.

نلاحظ علي هذا الدستور بوجه عام :

أ- عـــنف لهجـــته التـــي تجعـــل القتل لبعض المسائل البسيطة مثل الكذب والخسارة في التجارة وعون الأسير والسكوت عن آبق العبيد.

ب- الطاعـــة التامة لشخص الحاكم والانصياع لهذه الطاعة دون تفكير وعلي كل تتاري أن ينفذ ما يطلبه الحاكم حتى لو كانت معبته حياته نفسها.

ت- علي أنه يجب التعاون بين التتار بعضهم البعض ماذا وقع من أحدهم شئ وهـــو يحارب علي صهوة جواده وجب علي غيره من زملائه أن ينزل ويناوله أياها.

ث- والـــتكافل أيضـــاً فلا يأكل أحدهم وغيره جوعان، بل أنه يجب ألا يتميز بالشبع.

ج- وهم فيما بينهم بسطاء في التعامل وبسطاء أيضاً في التعامل مع زعيمهم فلا ينادونه بغير أسمه مجرداً.

ح- ومادامـــت الحرب عقيدتهم، فلابد من حرية الضمير بين بعضهم وبعض ولا يتعرض أحد منهم لملة يعتقدها أحد آخر منهم.

خ- ولابـــد أيضاً من أن تساهم المرأة في المجتمع بدور وافر فهي تقوم بعمل الرجل في حالة غيابه في الحرب.

د- والتتار متمايزون عن المسلمين، فلا يذبحون ذبائحهم ولا يحرصون علي نظافتهم الشخصية ولا نظافة ملابسهم.

ذ- ولا بـــأس مـــن الميل لأبناء علي بن أبي طالب، فلا يكلف أحدهم بشيء (والســـبب فـــي ذلـــك رغبة جنكيزخان في استثمار عناصر الفرقة بين المسلمين بعضهم البعض).

كانـــت تجاور بلاد التتار من ناحية الغرب دولتان تركيتان دولة الخطا وهي دولـــة وثنـــية، ودولـــة خوارزم، وهي دولة إسلامية تفرعت عن دولة سلاجقة فارس.

٢- التتار والدولة الخوارزمية :

بلغـــت دولـــة خـــوارزم أقصـــى اتســـاعها في عهد علاء الدين محمد خوارزمشـــاه ٥٩٦/١١٩٩ - ٦١٧/١٢١٩ حتى أصبحت أكبر قوة إسلامية في المشرق، وامتدت من حدود العراق غرباً إلي حدود الهند شرقاً، ومن شمالي بحر طبرســـتان (قزويـــن) وبحـــيرة خوارزم (آرال) شمالاً علي بحر العجم (الخليج العربي) جنوباً.

تطلع علاء الدين إلي أن يحل محل السلاجقة في العراق فلما فشل مسعاه اعتـــنق المذهب الشيعي، واستصدر من رجال الدين فتوى بخلع الناصر لدين الله

العباسي، واختار رجلاً علوياً من أهل ترمذ يدعى علاء الملك، وبايع له وخطب له أيضاً علي المنابر وضرب السكة بأسمه.

في سنة ٦٠٦/١٢٠٢ انتصر علاء الدين علي الخطأ، وفي سنة ٦١٢ اجهز علي الغوريين اصحاب الهند، وانفتح الطريق أمامه علي العراق.

شعر الخليفة الناصر بالخطر الذي يتهدده، فكاتب جنكيزخان، ويصف المؤرخ المعاصر ابن الأثير بأنه (الطامة الكبرى التي يسغر عندها كا ذنب عظيم).

من الطريف أن رسول الخليفة علي جنكيزخان كان من اللازم عليه أن يعبر أراضي الدولة الخوارزمية، لذلك فيقال أنه كتبت الرسالة علي رأس الرسول بعد أن حلق شعره، ثم ترك هذا الشعر لينمو، كما استظهر الرسول الرسالة لما وصل إلي خاقان التتار ردد الرسالة، ولكي يبرهن علي صحتها حلقت رأسه فقرأت الرسالة علي الحضور.

وصلت رسالة الناصر إلي جنكيزخان متأخرة لأن خوارزمشاه كان قد بدأ المسير بجيوشه بالفعل وأزال أتابكية فارس، وأتابكية أذربيجان والتقى قرب همذان في سنة ٦١٤ بشهاب الدين سهروردي رسول الخليفة إليه، فلم يأذن الشاهنشاه بالجلوس، ولما سلم عليه لم يرد، ثم خطب سهرردي خطبة بليغة فذكر فضل بني العباس وزهد الخليفة وورعه ودينه، فرد عليه علاء الدين "أنا أجئ وأقيم، خليفة يكون بهذه الأوصاف".

سار خوارزمشاه من همذان إلي حلوان، فحاصره الشتاء وهبت علي جيشه عواصف ثلجية أهلكت كثيراً من جنوده، وتعرض الباقون لعادية الأتراك والأكراد، فآثر علاء الدين العودة من حيث آتى.

ما كاد الشاهنشاه يصل علي بخاري في سنة ٦١٥/١٢١٨، حتى وجد سفارة من جنكيزخان يطلب منه التجارة بين البلدين فوافق خوارزمشاه، وعليه

بـــدأ الجواســـيس التـــتار يـــتخفون في هيئة التجار، ويأتون مملكة خوارزمشاه يتحسسون أخبارها.

أكتشف حاكم أترار – وهو حصن يقع علي أطراف الدولة – حقيقة بعض هـــؤلاء الـــتجار فقـــتلهم، فطلب جنكيزخان من خوارزمشاه تسليمه الحاكم، وإلا فليأذن "بجرب ترخص فيها غوالي الأرواح".

كانت أجابة خوارزمشاه أن قتل رسول الخاقان.

زحفت جموع التتار الجراد المنتشر.

يقـــول ابن الأثير الذي عاصر هذه الأحداث "لقد بقيت عدة سنين معرضاً عـــن ذكـــر هـــذه الحادثة، واستعظاماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدم رجلاً وأوخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك".

فـــيا ليـــت أمي لم تلدن، وياليتني مت قبل هذا، وكنت نسياً منسيا ... ثم رأيـــت أن تـــرك ذلك لا يجدي نفعاً ... هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى ...

فلو قال قائل : "إن العالم منذ خلق الله تعالى آدم علي الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها .. وهؤلاء لم يبقوا علي أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فإنـــا لله وإنـــا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة استطار شررها وعم شررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح".

اجتاحت جيوش التتار دولة خوارزم من جميع نواحيها وعندما سقطت في يديـــه مدينـــة أتـــرار، أمـــر بحاكمها فسكبت في عينيه وأذنيه كمية من الفضة المصهورة إلي أن مات.

اقــتحم جنكيزخان بخاري، ودخل جامعها علي ضهوة جواده وحوله إلي حظــيرة لخيوــله وجعلها تدوس المصاحيف بسنابكها، ونهب المدينة نهباً تاماً ثم أحرقها، بعد أن قتل الرجال وسبى النساء والولدان وافتض جنوده البكار، وقتلوا من لا يصلح للسبي.

كــرر جنكيزخان الذي وصف نفسه بـــ "نقمة الله علي الأرض" فعله هذا في سمرقند وغيرها من المدائن.

بعد أن فرغ التتار من بلاد ما وراء النهر عبروا علي خراسان واحترفوا شــمالي غيران حتى بلغوا الري، ففتح قاضي قضاتها الشافعي أبواب المدينة لهم مــن أجل أن يجهزوا علي خصومه من أهل المذاهب الأخرى، فلما تم لهم ذلك أجهزوا علي الشافعية أنفسهم ولم تلبث أن وصلت طلائع التتار إلي أربل شمالي العراق العربي.

عــادت جــيوش التتار علي سمرقند، حيث عقد الخاقان الأعظم اجتماعاً لكــبار القادة في سنة ١٢٢٤/٦٢١ ثم غادر المدينة إلي العاصمة قره قورم في أعماق آسيا.

أما خوارزمشاه الذي لم يقع في أيدي التتار، فأنه ظل طريداً مطارداً علي أن لاذ بــإحدى الجزر في بحر قزوين، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة في سنة ٦١٧/ ١٢٢٠.

اســتقر جلال الدين منكبرتي في بلاد الهند، ثم إعتزم بعث ملك أبيه، وتم له ذلك بعد أن انسحب التتار، فطلب من الخليفة الناصر أقامة الخطبة له ببغداد، ولم يجبه فاعتزم المسير إليه في سنة ٦٢٢ وحصن الناصر بغداد وأنفق في سبيل ذلك ألف ألف دينار. علي أن جلال الدين أنسحب فور وصوله تكريت عندما علم بإنتقاض أذربيجان وسالم الناصر الذي مات في العام نفسه ثم سالم ولده الظاهر وحفيده المستنصر.

حـــاول جـــلال الدين استفزاز المسلمين لحرب التتار، لكنه قبل أن يتم له ذلـــك، دهمه جيش تتاري ضم ثلاثين ألف مقاتل، وأخذ يطارده من بلد علي أخر حـــتى أنتهى به المطاف علي قرية كردية فقتله بعض أهلها غيلة في سنة ٦٢٩/ ١٢٣١.

٣- التتار وسقوط بغداد :

في سنة ٦٢٤/١٢٢٣ مات جنكيزخان وصار ولده أغطاي خاقاناً للتتار، وقـــبل أقـــل من عشرين عاماً تم له فتح بلاد الصين وكوريا في أقصى الشرق، وأزال الدولـــة الخوارزمية، وأجتاحت جيوشه أوربا، ودانت لها موسكو وكييف، واســتولت علـــي المجـــر وبلغاريا وبولندا، وفي عام وفاة أغطاي ٦٣٩/١٢٤١ عبرت هذه الجيوش نهر الدانوب وتطرقت إلي المانيا نفسها.

خلـــف أغطاي ولده كيوك ثم مانجوخان بن تولوي بن جنكيزخان ٦٤٦/ ١٢٤٨ – ٦٥٥-١٢٥٧.

فـــي عهـــد مانجوخـــان تسرب علي قورم عدد من الرهبان والمبشرين المســيحين ومعظمهم صليبيون، وصرف هؤلاء جهدهم من أجل عقد حلف بين الصليبين في الشام وبين التتار.

كان الصليبيون يمرون في هذه الأثناء بظروف صعبة، فقد تعثرت الحملة التـــي قادها القديس لويس علي مصر، وبدأت قلاعهم تتساقط واحدة بعد الأخرى في أيدي المماليك.

كـــان التتار في حروبهم مع جلال الدين منكبرتي قد أوغلوا في أطراف العـــراق، فدخلـــوا ميافارقيـــن وقتلوا من أهلها عددا كبيرا وتابعوا سيرهم إلي الموصل فأصابوا بعض قراها، وفي سنة ٦٣٢/١٢٣٥ دخل أربل.

عـندما تناهت هذه الأنباء إلي الخليفة المستنصر أرسل بعض قواته التي اشـتبكت مع التتار في معارك صغيرة سنة ١٢٣٨/٦٣٥ وكانت الغلبة في هذه المعارك للتتار، وأسفرت عن نهبهم للجزيرة وديار بكر وميافارقين.

كانـت هـذه الحملات الصغيرة مقدمة للحملة الكبيرة التي قادها هولاكو شقيق الخاقان.

في سنة ١٢٥٥/٦٥٣ بدأ هولاكو حملته الكبيرة، فخرج من سمرقند وعبر نهـر جيحون ونزل بطوس وعقب الإسماعيلية الذين سيطروا علي هذه الأنحاء، واقـتحم قلعـتهم الشـهيرة الموتفي سنة ١٢٥٧/٦٥٥ وقتل زعيمهم ركن الدين خورشاه.

جعـل هولاكو قيادته في همذان وأرسل بعوثاً من جنده فنهبت ديار بكر وميافارقين ثم أرسل إلي الخليفة العباسي المستعصم بالله يطلب أن يهدم حصونه ويردم خنادقه ويخضر لمقابلته.

كـان المستعصم الذي خلف أباه المستنصر في سنة ١٢٤٢/٦٤٠ قد ألقي القـيادة لوزيـره علاء بن العلقمي وكان شيعياً رافضياً ينقسم علي أهل السنة ما انـزلون بالرفضة من ضروب الهوان، وعندما هاجم السنة الكرخ – وهو معقل الرافضي ببغداد – طلب ابن العلقمي من أصحابه الكف عن القتال والصبر وقال لهم "أنا أنتقم لكم مما حدث".

تحـول ابـن العلقمي إلي جاسوس لهولاكو، فصار يغري الخليفة بقطع أرزاق الجـند توفـيراً للنفقات، وبحثه علي مهادنة التتار، ويخفي عنه أخبارهم، وفـي الوقـت نفسه يكاتب الأعداء يغريهم بالفتح، ويلتمس أن يكون نائباً عنهم بالعراق.

أرسـل الخليفة إلي هولاكو سفارة علي رأسها شرف الدين ابن الجوزي، لم تسطع أن تثنيه عن عزمه في أخذ بغداد، ورفض عرض سفير الخليفة في أداء

جـــزية سنوية، وقال "لقد قطعنا طريقاً طويلاً فكيف نرجع دون أن نرى الخليفة أنـــنا بعـــد أن نتشـــرف بالمثول بين يديه، وبعد أن نتحدث معه، سنسمع أوامره مباشرة".

عـــبر التـــتار نهر دجلة وألحقوا بالجيش العباسي الذي كان يقوده مجاهد الدين أيبك الدويدار، وحاصروا المدينة من ناحيتها الشرقية والغربية.

كـــان يصحب التتار في حصارهم بغداد أمراء المسلمين، مثل سعد أتابك شـــيراز، وبـــدر الديـــن لؤلؤ أتابك الموصل، كما كان يصحبهم أيضاً عطا ملك الجويني المؤرخ المشهور، ونصير الدين الطوسي الفلكي.

أنصاع المستعصم لمشورة وزيرة ابن العلقمي الذي اقترح عليه الخروج إلي هولاكو ومصالحته علي نصف خراج العراق يؤديه كجزية.

يـــوم الأحـــد ٤ صـــفر ٦٥٦/١٠ فبراير ١٢٥٨ خرج المستعصم للقاء هولاكـــو ومعه أولاده الثلاثة وعدد كبير من أعيان بغداد، وقدم إليه مقدارها ألفا ثـــوب وعشـــرة آلاف دينار غير الجواهر والنفائس، فلم يلتفت هولاكو وأعطاها لأمـــرائه ثـــم سأله عما لديه من ذهب مخبوء، فدله المستعصم عليه وكان شيئاً كثيراً.

طلـــب هولاكو من الخليفة أن يأمر الناس بالكف عن القتال ففعل وما كاد يـــتم ذلـــك حـــتى انقض التتار يمعنون فيهم تقتيلاً حتى صار القتلى في طرقات المدينة كالتلال وناهز عددهم المليون ونزل هولاكو بقصر المأمونية، واباح بغداد أســـبوعاً هـــدم التـــتار فيه مساجدها وجردوا قصورها وأحرقوا مكتباتها وسبوا نساءها وهتكوا أعراض بناتها.

أما المستعصم وبنوه فقد وضع كل منهم في بساط، وأمر هولاكو برفسهم حتى ماتوا، وسبي بناته الثلاث.

بعد ثلاثة شهور قتل الوزير ابن العلقمي.

بسقوط بغداد سقطت الخلافة العباسية التي أمتد تاريخها لما يزيد علي خمسة قرون، علي أن سلاطين المماليك بمصر شاؤا أن يجددوا هذه الخلافة عندهم حتى يتمنى لحكمهم غطاء شرعي يرضي به المسلمون، وعلي ذلك استدعى الظاهر بيبرس الأمير أحمد وهو عم المستعصم وبايعه خليفة باسم المستنصر.

ظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر حتى أزالها العثمانيون في سنة ٩٢٣/ ١٥١٧، وبقيت معطلة إلي أدعاها السلطان عبد الحميد في سنة ١٨٧٦ فظلت في البيت العثماني حتى سنة ١٩٢٤.

الفهرست

مطبعة الزهراء
ت: ٠٥٠/٦٩٦٩٩١٨ - ٠١٢٢٢٥٢٢٦٨١